الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 381
آذار: 2016

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
- **أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.**
- **ألا يتجاوز حجم المادة** 4000 **كلمة.**
- **ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.**
- **يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود** 50 **كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.**
- **لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.**
- **بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.**
- **للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.**
- **يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.**

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

7- ملف الراحلين فائق بطي وعزيز سباهي

مقالات

22 - نزاعات دول المنافسة الرأسمالية وتجلياتها الإقليمية ..... لطفي حاتم
28 - اللوحة الاجتماعية في المجتمع العراقي .....فرحان قاسم
38 - التنمية البشرية والتعليم في العراق ..... نجيب محي الدين
45 - اشكالية السكن في العراق ..... إبراهيم المشهداني
56 - ماذا يعني استقلال القضاء؟ ..... هاتف الاعرجي
59 - الديمقراطية والطبقة العاملة ..... فيصل لعيبي صاحي
65 - قراءة في أسباب العجز العربي ومقومات الإصلاح ..... محمد سيف الإسلام بوفلاقة

نصوص قديمة

70 - آراء في اصلاح الاجهزة القضائية في العراق ..... صفاء الحافظ

نصوص مترجمة

94 - تقرير قاسم حسن الى الكومنترن (القسم الثالث) ..... ترجمة: عبد الله حبة

حوارات

104 - (الثقافة الجديدة) تحاور الشاعر والناقد العراقي ذياب شاهين ..... اجرى الحوار: ناظم السعود

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

114 – المثقف ناقداً رؤيوياً ..... سعد محمد رحيم

في الحدث الادبي

116 – شهربان تودع رمّانها المسرحي في هولندا..... كلمة في رحيل الكاتب والفنان نورالدين فارس

دراسات نقدية

117 – عبد الرحمن منيف ومساءلة وهم التاريخ ..... فاضل ثامر
126 – رحلة مع شعر الهايكو الياباني ..... جواد وادي
138 – الماء يكتب على الجسد (القسم الثالث) ..... ناجح المعموري

شعر

147 – عتمة مشهد لذيذ ..... مشتاق عبد الهادي

قصص

151 – قماشة الجنفاص ..... حسن كريم عاتي

155 – متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة: جودت جالي
167 – في المناسبة... العام 2016 ..... رياض العلوان

لوحتي غلافي العدد: للفنان أرداش كاكافيان

كلمة العدد

على الطريق نحو المؤتمر الوطني العاشر

يمكن القول ان عجلة التحضيرات للمؤتمر الوطني العاشر للحزب الشيوعي العراقي قد انطلقت؛ ففي أيّار من هذا العام تكون قد مرت أربع سنوات على انعقاد المؤتمر الوطني التاسع (10 – 13/ أيار 2012)، لذا فان عام 2016 هو – حسب النظام الداخلي للحزب – عام المؤتمر العاشر.. وعلى الصعيد التنظيمي بدأت وتيرة النشاطات المختلفة بالتحرك على مختلف الصُعد بهدف ان تتوج بعقد المؤتمر في موعده ليكون محطة اخرى تساهم في تعزيز مواقع الحزب في المشهد السياسي الوطني، ورفع دوره في مسلسل الانتقال الصعب الذي تمر به بلادنا في اللحظة الراهنة.

ومن المؤكد ان هذه النشاطات وتنوعها تترجم الحرص على حيوية وأهمية الموقع السياسي الذي يحتله الحزب في المعركة الدائرة اليوم حول شكل ومضمون الدولة الجديدة وطبيعة النظام الذي يقام على انقاض نظام دكتاتوري مقيت. كما تترجم هذه الحماسة تطلع اعضاء الحزب وأصدقائه، وكل الخيرين من ابناء وبنات شعبنا الى توطيد مكانته السياسية والفكرية وتفعيل دوره. ولا شك أن نجاح المؤتمر سيظل مرهونا بجدية ونوعية النشاطات التحضيرية له، على الصعد السياسية والتنظيمية والفكرية، وطبيعة النقاشات حول مسودات الوثائق حتى اقرارها بصيغها النهائية من طرف المؤتمر باعتبارها إعلانا ديمقراطيا وتتويجا سياسيا – فكريا لفترة من الحوارات والتفكير العميق، ومن الاجتهاد وتنوع المقاربات والجدل الثري.

ومن المؤكد أن حصيلة الأعمال على مختلف المستويات التنظيمية، ستراكِم حصيلة طيبة من الأفكار والتصورات والمقترحات والمقاربات والآراء حول المرجعية الفكرية، والبرنامج النضالي، والرؤية الاقتصادية والاجتماعية، وحول تقويم سياسة الحزب خلال السنوات الاربع الاخيرة ومدى مشروعية الخط السياسي الذي بلوره وطبقه وأغناه خلال هذه الفترة. ومما لا شك فيه ان النقاشات، التي ستجري على مختلف المستويات التنظيمية حتى أعلى منبر حزبي، المؤتمر الوطني العاشر، لن تتقوقع حول واقع الحزب، وطبيعة دوره الراهن في ظل وضع مضطرب يموج بكثير من الاحتمالات، على اهمية ذلك، بل ينبغي ان تتركز أيضا حول آفاق تطور الحزب وترقيته، فكرا وممارسة، في سياق التبدلات والتحولات الجارية على الصعد المحلية والإقليمية والدولية، باعتبارها تشكل واحدة من التحديات الهامة.

وحتى تكون مثمرة ينبغي أن تتسم النقاشات بصراحة في الطرح، وشجاعة في إبداء الرأي، وجرأة في المقاربة، فمثل هذه المنهجية سوف تنتج خلاصات اصيلة وعميقة تتيح بناء مفردات برنامج يتعاطى مع حركة الواقع وتناقضاته الفعلية ويجيب على أسئلته، وتمكّن من بناء خط سياسي عميق وناضج قادر على تعبئة الحزب ومنظماته وأعضائه وعضواته لمواجهة تحديات بالغة التعقيد وأوضاع مفتوحة على كل الاحتمالات.

وفي غمرة التحضيرات لعقد هذه الفعالية العتيدة ثمة حاجة الى التأكيد على ضرورة ان يقترن تقويم أداء ودور الحزب، سياسيا ومجتمعيا في المرحلة الحالية، في سياق تطور الحركة الاحتجاجية وتنامي دور الحزب ومنظماته في هذه الحركة، فلقد راكمت تجربة السنوات الخمس الاخيرة الكثير من الدروس والخلاصات، ومن هنا ضرورة الاستفادة منها وتوظيفها بشكل صحيح.

ولا يجادل احد اليوم أن بلادنا تواجه منعطفا سياسيا – تاريخيا يتسم بدقة متناهية وبتعقيد بالغ. فليس خافيا على احد أن تنامي التفاوت وتعمقه ما بين "التطور الديمقراطي"، على تواضع منجزه بعد 13 عاما من سقوط النظام الدكتاتوري، والاستقطاب الاجتماعي التي تشهده البلاد، وتفاقم ذلك إلى المدى الذي أضحى عليه اليوم والذي بات ينذر بتحديات كبيرة، ومخاطر عديدة، وتغذية مناخات التطرف الديني والاستقطاب الطائفي ونظام المحاصصات وتأخير انجاز المهمة الوطنية الكبرى: استكمال الاستقلال الوطني ودحر (داعش) وحلفائها وتحرير البلاد من دنسها وإرهابها.

ان ما يؤطر المرحلة السياسة الراهنة أيضا، هو واقع الوهن، واختناق الانفاس الذي بات يطبع فعل وأداء الحكومة العراقية وما يتقاذفها من خيارات، فينعكس سلبا على وتيرة عملها وعلى حجم مردوديتها، في ظل ازمة بنيوية عميقة وتوترات امنية كبيرة وأوضاع اجتماعية – اقتصادية بلغت من التوتر ما يجعل من انفجارها في كل لحظة أمرا ممكنا بكل ما يحمله ذلك من مخاطر وآثار.

وإلى جانب هذه التحديات المحلية السوسيّو – اقتصادية، والسوسيو ـ سياسية المقلقة، يأخذ التحدي الجيو – سياسي، ممثلا بمناورات ومكائد الخصوم الاقليمين ودول الجوار أبعادا جديدة يتعين عدم الاستهانة بها، هذا اضافة الى ما تشهده الاوضاع الاقليمية من تطورات متسارعة، وما تطرحه من تحديات خطرة يصعب التنبوء بما تحمله قوادم الايام.

وملخص القول، إن الرهان الأكبر للمؤتمر الوطني العاشر هو أن يشكل؛ في ظل هذه اللوحة المتلاطمة من التحديات والمخاطر، محطة نوعية بمواصفات فكرية وسياسية وجماهيرية وتعبوية، تمكن الحزب من **إعادة انتشاره**، وتوسيع مدى إشعاعه، وتنمية نفوذه، وتعظيم انفتاحه على المجتمع ومكوناته وقواه الجديدة، وفعالياته الصاعدة، وديناميكياته الناهضة.

ان إرادة التجميع، وخيار الانفتاح على المجتمع وقواه هما حدّان متلازمان في معادلة واحدة، لا يمكن أن يكتسبا مدلولا ذا جدية، إذا لم يتجاوزا مستوى إعلان النوايا، ويترجما في إطار مشروع، مسطر بالتزامات محددة.

ومن جِهة ثانية، فإن الربط الجدلي بين النضال من أجل توطيد وتوسيع دور الحزب وتعميق انفتاحه على مختلف القوى والفئات والشرائح المجتمعية وخصوصا الكادحة منها، لا يمكن أن يستقيم ويأخذ مصداقيته إلا إذا اقترن بنضال لا يقل تصميما وإصرارا، من أجل تكريس وتعميق الممارسة الديمقراطية في تنظيمات وفضاءات الحزب التي ابتدأها المؤتمر الوطني الخامس – مؤتمر الديمقراطية والتجديد في عام 1993، على مختلف الصعد. ومن المهم في هذا المجال أن تتم العملية في إطار منظور حداثي لدور المؤسسة الحزبية في التنظيم والتمثيل والاقتراح والتعبئة، وصناعة القرارات وبناء السياسات الحزبية وتطبيقها بإبداع.

ويحدونا الأمل الصادق بأن يشكل المؤتمر الوطني العاشر محطة نوعية أخرى على طريق أن يصبح الحزب قطبا سياسيا فاعلا، جماهيريا، حداثيا وديمقراطيا. وبينت التجربة ان الرهان الأرأس هو تطوير وتفعيل جاذبية هذا القطب لمختلف القوى والنخب السياسية والثقافية الحية، في سبيل تجاوز عوائق الانتقال الديمقراطي المعقد واحتواء تحديات المرحلة التاريخية التي تجتازها بلادنا، بما يمكن من دحر "داعش" وأمثالها وبناء دولة مدنية ديمقراطية عصرية تقوم على فكرة المواطنة الحقة وتشكل، بالمقابل، نفيا لنظام المحاصصات الطائفية – الاثنية.

واعتبارا من العدد القادم، 382، والذي من المخطط ان يصدر في نهاية مايس 2016، ستكون ابواب (**الثقافة الجديدة**) مشرعة للحوار حول المؤتمر الوطني العاشر ومسودات وثائقه.

ملف الراحلين

فائق بطي وعزيز سباهي.. وداعاً

لن تنكسر الأقلام!

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي تنعى الرفيق فائق بطي (أبو رافد)

ينعى الحزب الشيوعي العراقي ببالغ الألم والأسى الشخصية الوطنية والثقافية والصحافية البارزة الرفيق د. فائق بطي، الذي توفي صباح 25 كانون الثاني2016 في مستشفى بلندن، عن عمر ناهز 82 سنة، وبعد معاناة وصراع مريرين مع مرض غادر.

انتمى الرفيق الراحل في عمر مبكر الى الحزب الشيوعي، وعانى الكثير من مضايقات وملاحقات الاجهزة الامنية للحكومات الدكتاتورية، وتعرض للاعتقال غداة انقلاب 8 شباط 1963.

قطع دراسته للصحافة في القاهرة سنة1957 إثر وفاة والده، وعاد الى بغداد ليتولى رئاسة تحرير جريدة "البلاد"، التي واصلت صدورها بعد ثورة 14 تموز 1958. وهو من مؤسسي نقابة الصحفيين العراقيين، وقد عمل لاحقا في جريدتي الحزب "الفكر الجديد" و"طريق الشعب".

في سنوات المنفى تولى اصدار عدة مطبوعات، منها "عراق الغد" (1986 – 1987 و"رسالة العراق" التي ظهرت أول مرة في 1994 واستمر صدورها الى ما بعد سقوط نظام صدام سنة 2003.

في سنوات الثمانين انتخب الفقيد رئيسا لـ"رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين" في الخارج.

وانتخب عضوا في اللجنة المركزية للحزب في مؤتمره الخامس سنة 1993، وجدد انتخابه في المؤتمرين التاليين: السادس (1997) والسابع (2001).

كان من المعارضين البارزين لنظام صدام حسين الدكتاتوري، وقد شارك في اجتماعات "لجنة العمل المشترك للمعارضة العراقية" وفي نشاطات المعارضة عموما، وبضمنها مؤتمر المعارضة العراقية الذي عقد في بيروت شهر آذار 1991.

وكان خلال ذلك مساهما نشيطا في حملات التضامن مع شعبنا العراقي ضد نظام الطاغية المقبور وقمعه وإرهابه.

ألف وأصدر العديد من الكتب والمطبوعات، بينها ثلاث موسوعات عن الصحافة العراقية، والصحافة الكردية، والصحافة السريانية (تحت الطبع)، كما اصدر ثلاثة اجزاء من مذكراته (الوجدان)، ولم يستطع إكمال الجزء الرابع بسبب المرض.

كبيرة هي خسارتنا برحيل الرفيق فائق بطي.

ونحن اذ ننعاه اليوم نتوجه بالمواساة، في وجه خاص، الى زوجته الرفيقة العزيزة سعاد الجزائري، والى كريمته وأسرة آل بطي جميعا، والى جمهرة الصحفيين الشيوعيين العراقيين، والى عموم الاسرة الصحفية العراقية التي وهبها الكثير من اهتمامه وجهده.

ستبقى ذكرى الرفيق فائق بطي حية مضيئة في قلوب الشيوعيين العراقيين وعامة ابناء شعبنا الطيبين.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
25 كانون الثاني 2016

رسالة تعزية من رئيس الجمهورية د .فؤاد معصوم في وداع الراحل د . فائق بطي

تلقينا بأسى بالغ خبر رحيل عميد الصحافة العراقية الدكتور فائق بطي والذي فقدت الأوساط الصحفية والثقافية بوفاته إعلامياً بارزاً كرس حياته وثقافته من أجل إعلاء الكلمة الحرة ورفعة المهنة الصحفية الملتزمة.
وفيما نستذكر بتقدير عال مكانة الفقيد في ارساء قيم الصحافة الوطنية والأمانة المهنية، لا يسعنا إلا الإعراب عن الإعتزاز بالدور الكبير الذي لعبه هذا الصحفي الرائد وتجلى جانب منه في الإلتزام بقضايا شعبه وفي ترسيخ تقاليد الصحافة الحرة ونشر قيم التقدم كما كان لنتاجه الفكري ومؤلفاته وتاريخه التأثير البالغ في تكوين أجيال من الصحفيين، فيما كانت حياته النضالية والمهنية تعبيراً عن التواصل الحيوي القيّم بين الصحافة والمجتمع.

د. فؤاد معصوم
رئيس الجمهورية

برقية تعزية الاستاذ مسعود بارزاني رئيس اقليم كردستان

تلقينا بحزن وأسى نبأ وفاة الاستاذ فائق روفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وأحد مؤسسي نقابة الصحفيين العراقيين، الذي ترك بصمة متميزة في تاريخ الصحافة العراقية من خلال عمله الدؤوب وانجازاته ومؤلفاته المهمة في عالم الصحافة.

مسعود بارزاني
رئيس اقليم كردستان

برقية تعزية فرياد رواندزي

بمزيد من الحزن والأسى تلقينا نبأ وفاة الصحفي الرائد الاستاذ فائق بطي بعد مرض عضال، اننا نعزي انفسنا بهذا الحدث الجلل لكاتب وصحفي افنى عمره لخدمة الحقيقة والكلمة الحرة.

فرياد رواندزي
وزير الثقافة

تعزية ميسون الدملوجي رئيسة لجنة الثقافة والاعلام النيابية

تتوجه لجنة الثقافة والإعلام النيابية بأحر التعازي الى الأسرة الاعلامية برحيل عميد الصحافة العراقية السيد فائق روفائيل بطي الشخصية الوطنية صاحب (الوجدان) المفعم بحب الناس والوطن والتفاني في خدمتهما، سليل أسرة ثقافية وإعلامية كريمة ساهمت في الحياة السياسية في العراق بشجاعة دفاعاً عن سيادة العراق والانتصار الى الحق والعدالة الاجتماعية.

ميسون الدملوجي
رئيسة اللجنة

فائق بطي .. قديس الصحافة

ألفريد سمعان
الامين العام لاتحاد الادباء والكتاب العراقيين

هو ليس قديس الصحافة وأنشودة الآمال المرسومة على ملامح الامناء على الكلمة الشريفة، بل هو المشعل المضيء منذ اكثر من نصف قرن. حمل الامانة وهموم الشعب وتجشم صعوبة الدروب المعبدة بالأشواك وعلى ضفتيها تتربص العقارب وتتبارى الاحقاد وتزمجر القيود، وهي تهدد وتطلق صرخات الرعب لإيقاف المسيرة وإنزال اشد اساليب القمع وإذلال المناضلين الاشداء، حملة رايات الحرية وكرامة الانسان.

كان فائق الذي عرف بقامته الرشيقة وابتسامته التي لا تغادر شفتيه امينا على تراث والده روفائيل بطي الذي كان من ابرز المثقفين الذين عرفهم عصره، واحد اركان الصحافة العراقية، عندما اصدر جريدة البلاد، واستطاع عبر ما كان ينشر فيها تغطية الاحداث ومواكبة التطورات السياسية المعقدة التي كانت تتطلب نوعا من الذكاء والخبرة والتحدي والدهاء الفكري الخلاق، وقد استقطب ابرز الكتاب واسهم في بناء الصرح الصحفي بوسائل طباعية متواضعة، ولكنها استطاعت ان تشق طريقها بحكمة واعتزاز من دون ان تنحني او تتنازل عن متابعة الحقيقة ورصد الامور الصعبة المعقدة والانتصار للشعب وكرامته.

ان القديس فائق وأشقاءه تحملوا المسؤولية وكانوا امناء على تراث ابيهم. وقد انفرد القديس بإدارة الجريدة في عمر مبكر لأنه كان متابعاً على مستوى رفيع وخاض التجربة القاسية بذكاء واعتزاز ووضع لمساته الابداعية واستطاع ان يكسب الاقلام المخلصة الشريفة ويجند الكلمة لانتصار الشعب وتحقيق امانيه وفضح الاجراءات والتصرفات الدكتاتورية التي حاولت وعملت على رصد تحركات المناضلين والبطش بهم وتنفيذ اقسى العقوبات وإغراق السجون بقوافل لم تخضع للذل والعبودية.

لقد كان القديس مثقفاً كبيراً يتابع بغبطة وثقة ما يجري على الساحة الوطنية في الداخل ونقل تجارب الكفاح في العالم وتطوير العمل الصحفي وفتح ابواب جديدة لنشاطات تغري القراء. وجريدة البلاد اول من فتح باب الرياضة وكرس شاكر اسماعيل لها ثم تبعه آخرون.

ان القديس فائق سيبقى في الذاكرة وتظل قيثارة الصحافة تعزف له وقافلة الكلمة النيرة تغني وتشدو باسمه، لأنه المعلم الذي كتب تاريخ الصحافة ونثر ثمارها في كل مكان ويبقى قديساً ثائراً ينشد له التاريخ الثوري احلى الاناشيد.

أبا رافد.. لا شيء يضاهي صداقتك!

رضا الظاهر

أبا رافد.. لماذا قلتَ: وداعاً، مع أنك تعلم، علم اليقين، أننا لم نكمل حديثنا؟ لماذا أخذتَ النهار ومضيت، وتركتَ عندنا الليالي؟ لماذا هجرتَ "البلاد"؟ لماذا رحلت؟ قل لي: إلى أين تمضي بنا الأيام؟!

كيف لي أن أنسى تلك الغرفة الصغيرة، في الطابق الأول من بيت "طريق الشعب"، مطلة على شارع السعدون ببغداد، وفيها تعلمت منك، إبان السبعينات، دروساً في الصحافة، والثقافة، والأريحية، والسمات الشخصية الجميلة؟

ما زلت أتذكر، جلياً، كيف كنا نتجادل ونختلف وننجز.. كنتُ أصغركم عمراً. كنتَ، أنت، ويوسف الصائغ، في "سكرتارية التحرير"، من جيل الخمسينات، بينما أنا من جيل لاحق، الستينات، وربما السبعينات. فقد كنتُ في أواخر عشريناتي في تلك الأيام.. كانت "الغرفة"، على صغرها، رحبة، إذ استقبلت صادق البلادي لينضم إلينا، مضيفاً نكهة جديدة.

كيف لي أن أنسى أيام "إيلنغ برودواي" غرب لندن، وحاناتها التي شهدت أعذب لقاءاتنا؟ كيف لي أن أنسى "لندن برنت أند ببلشنغ سنتر"، حيث كنا نلتقي أنت وسعود الناصري وأنا، في مطبعة أبي سلام (يعقوب قوجمان)، وكنتَ تمطر بـ"تدقيقاتك" كلير مشعل، وهي "تصفّ"، بحرص معهود، "رسالة العراق"؟

كنتَ في أوائل أربعيناتك حين احتضنتنا "طريق الشعب". وفي ساعة عودتي من لندن الى بغداد قبل أيام، كنا قد تواعدنا على لقاء قريب، وكان صوتك متشبثاً، وأنت في الثمانين، كشأنك في كل حين، بالحياة.. لكن، الى أين تمضي بنا الأيام؟!

هل تتذكر ما كنا نردده في غرفة "طريق الشعب" قبل أربعين عاماً؟:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة
ووجـــهك وضاح وثغرك باسم

فيا للمتنبي من عارف بأيامنا!

لماذا تركتنا، وقد كنتَ صاحب "الوجدان" في كل حين؟ وكيف لي، صديقاً، أن أرثيك كاتباً ومؤلفاً، وصحفياً، ومناضلاً، متألقاً بسيرة حياته، وأمثولته التي قلّ نظيرها؟

خضتَ غمار حياة مفعمة بالمآثر، وبالسعي، غير هيّاب، الى الحقيقة.. وبقيتَ من بين قلة يجيدون فن المودة والإصغاء والجدل وإثارة الأسئلة..

ما أسرع ما كنتَ تلبي نداء صداقة في زمن جاحد قلّ فيه من يمدّون يداً.

فائق بطي..

سلاماً، وقد أرشدتَ خطواتنا في دروب الآلام.

سلاماً، أيها المهتدي بمصباحك يضيء طريقنا.. الهادينا، بأمثولتك، الى اكتشاف الحقيقة.

سلاماً، مقامك في الذاكرة حيّاً، يا قابضاً على جمر المعاناة، وأنت تنقل إرث التنوير الى متشبثين بالرجاء.
سلاماً، وارث الينابيع.. مورثها.. وقد انتمينا إليك مجترحاً خير العمل.
دائماً سأتوسل بالندى أن يبلل أزهار ضريحك.
دائماً سأتوسل بيديك أن تمسحا عن جبيني تراب الأحزان.
هاك، إذن، قميص الروح، موشىً بالجمر وعشب الذاكرة، ترتديه في رحلة الأبد.
أبا رافد.. سيّد الكلام.. يلزمني جدار أرحب من غيابك حتى تليق بك كلماتي.
لا شيء يضاهي صداقتك!

ذهب فايق ..

زهير الجزائري

قبل ان أضع خطوتي على سلم الطائرة المتجهة الى بغداد قال لي كاظم بالتلفون (ذهب فائق) تعثرت. أنا ذاهب الى بلد لا اخبار فيه غير الموت. مع ذلك صعدت الدرجة حيث لا مجال للعودة. الغيوم تكلل سماء بيروت بعد العاصفة والبحر يسحب أمواجه فيصدق الصخور ناشرا الزبد الأبيض. يفعل ذلك منذ بدء الخليقة. انظر من النافذة، لكن من داخلي تأتيني صورة أخرى، صورة فائق منكبا على اوراقه. أرى الشعر الشائب بلون الورق، وليس بلون الكلمات. قال لي سأكتب آخر كتبي لو أمهلني الزمن. أمهله الزمن ولم يمهله الألم. أمن المعقول إني لن أراه ثانية. ذاكرتي تعاند الخبر على قولة المتنبي (فزعت فيه بأنبائي الى الكذب). أعاند الموت فاستحضر الصورة من السحاب الرصاصي وأجيبها الي، الى الوضوح فيأتيني الوجه المشدود بدقة وأناقة وذاك الشعر الشائب والإصرار العصبي لرجل يقاوم الالم لينجز كتابه الأخير.
تأتيني حياتي حين استحضر فائق في ذاكرتي.
اردت ان اتعلّم طيبته ففشلت لأني استدعيها في حين تخرج الطيبة منه مثل النفس. أردت ان اتعلّم الكتابة مثله كوظيفة يومية.. يلبس بنطلونه والقميص ويذهب لطاولة الكتابة مثل موظف يحترم حرفته. أردت تقليده ففشلت حين غلبني مزاجي. قرابة خمسين عاما من الرفقة ترسب فايق في داخلي: هو أول رجل ابشره حين أمط ذراعي: انهيت الكتاب، وربما كنت الثاني بعد سعاد حين بشرني: انتهت الموسوعة!
ذهب فايق! أقولها وأنا ازيح صورة الأيام الأخيرة وأشدد على صورته وهو يكتب: كم من الأجيال القادمة ستعرف وهي تفتح الجريدة مع قهوة الصباح ستعرف أن وراء هذه الوريقات تاريخا من تعب وسجون وعناد، وفايق واحد ممن صنعوا هذا التاريخ ودونوه. ضعوا على قبره وردا صنع من ورق الجرائد، فقد أحب ابو رافد هذا الورق وهو يبتل بالحبر، رويدا رويدا... سيتوقف دوي المكائن قليلا حتى يهز فايق رأسه فتدوي ثانية وتصدر الطبعة الأولى.

الرفيق عزيز سباهي .. وداعا

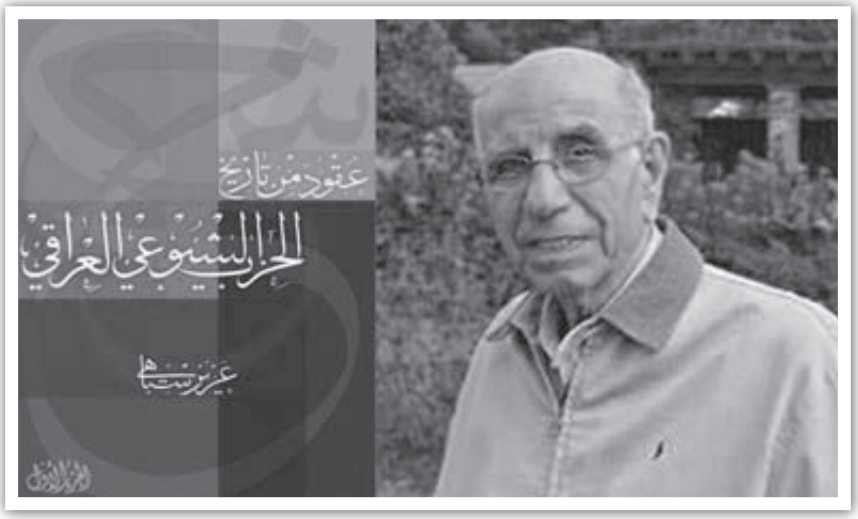

تعزية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي برحيل الرفيق عزيز سباهي

ينعى الحزب الشيوعي العراقي بحزن وألم عميقين كادره البارز، الباحث الرفيق عزيز سباهي، الذي اختطفه الموت يوم الثلاثاء 26 كانون الثاني 2016 في كندا، بعد معاناة طويلة مع المرض.

ولد الرفيق عزيز سباهي سنة 1925، والتحق بصفوف الحزب الشيوعي في سن مبكرة، ومنذ البداية انغمر متفانيا في النضال الوطني.

في أواخر سنة 1948 اعتقل لأول مرة بسبب نشاطه السياسي، وكان اول حكم صدر في حقه السجن عشر سنوات والإبعاد عشر سنوات اخرى! وقد قضى سنوات عديدة في سجن بعقوبة الانفرادي، وسنوات أخرى في سجن نقرة السلمان، وتحمل صنوف الاضطهاد والعذاب شأن رفاقه المناضلين الآخرين، وبرغم ذلك اصبح نموذجا للشيوعيين الذين حولوا سنوات سجنهم الى سنوات دراسة وتحصيل معرفي، وقد ارتقى اثناءها بلغته الانجليزية وترجم بفضل ذلك كتبا عديدة الى العربية.

كان الرفيق الراحل عضوا في اللجنة الاقتصادية المركزية للحزب في سنوات 1974 – 1978، وفي السنوات الاخيرة من الثمانينات وبداية التسعينات أصبح عضوا في قيادة تنظيم الحزب في الخارج وفي لجنة العمل الإيديولوجي كما كان عضو هيئة تحرير مجلة «الثقافة الجديدة» لسنوات طويلة.

ألّف وترجم العديد من الكتب التي نشرت خلال العقود الماضية، وكان مما ألّفه باسم نصير سعيد الكاظمي كتابا «الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق»، و«مساهمة في كتابة تاريخ الحركة النقابية في العراق»، ومما ترجمه كتاب «الكومينتيرن والشرق»، وكلل جهده البحثي بالمؤلف الكبير«عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي» الذي اصدره بثلاثة اجزاء وقدم فيه للقراء اول مصدر غني وأمين مطبوع، يغطي مسيرة ستة عقود تقريبا من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي.

بوفاة «ابو سعد» فقدنا رفيقا وفيا وانسانا ساميا ومناضلا ثابتا ومثقفا مبدعا سخي العطاء.

تعازينا الحارة الى رفيقة عمره ودربه العزيزة ليلى الشيخ، وأبنائه سعد وزياد وسامرة، وشقيقه عبد الإله والى سائر افراد العائلة الكريمة، والى رفاقه وأصدقائه ومحبيه جميعا.

وسنبقى نتذكر الرفيق عزيز سباهي على الدوام.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
27 كانون الثاني 2016

هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) تعزي برحيل عزيز سباهي

الرفيق النبيل عزيز سباهي .. وداعا

كأن هذه القامات الواقفة شامخة تأبى أن تظل تتنفس وهي ترى كل هذا القبح وكل هذا العجز، ليس في عراقنا وحده، بل في كل الدنيا، فتدع القلب يتوقف عن النبض من دون أن تلحقها ذرة شك في أن الاشتراكية آتية، لتكنس أدران الرأسمالية.

بالأمس فارقنا عميد الصحافة العراقية فائق بطي، فخسرنا فيه ما خسرنا، واليوم وقبل أن يُوارى الثرى يلحقه ابو سعد، العزيز السباهي.

(الثقافة الجديدة) وهي تودع أبا سعد، عضو هيئة ومجلس تحريرها لسنوات عديدة، تعزي رفيقة عمره أم سعد وأبناءه سعد وزياد وسامرة وجميع اهله ورفاقه وقرائه ومحبيه، مثلما تعزي أنفسها، راجية للجميع الصبر والسلوان. نم أيها الرفيق عزيز مطمئنا فستنعم بالذكر الطيب دوما، وسيبقى "عقود من تاريخ الحزب الشيوعي"، وغيرها الكثير، شاهدا على إبداعات وأمانة هذا الشيوعي بالفطرة، الذي عمق الوعي بها بدأبه، وتوسعه وتنوع دراساته وثرائها العميق، وجلاها بروح الفن، فهو خطاط معترف له، كما عاش مثالا يُلهم ويُقتدى، خلقا وتواضعا ودأبا وإبداعا.

العزيز أبا سعد.. لَقد تركت لنا تراثاً ثرياً سيظل يتحدث عنك، ويذكر بك، ويبقيك حياً دائم الحضور بيننا، فأنت أحد أجمل أقلام وطننا المسكونة بـ"جنون" الحرية والعدالة والمساواة والكرامة والاشتراكية .

هيئة تحرير الثقافة الجديدة

2016/ 01/ 27

ثبت بالدراسات والمؤلفات التي وضعها او ترجمها عزيز سباهي:

1 – في الفلسفة الماركسية، مترجم عن الكاتب السوفييتي أفانسييف، صدر في بغداد عام 1969.
2 – سيرة حياة لينين، ترجم عن الإنجليزية وصدر عن دار الفارابي ومكتبة النهضة في بغداد.
3 – المزارع التعاونية في الهند، لمؤلفه زين العابدين رئيس الاتحاد التعاوني الزراعي في الهند وصدر عن دار الرواد عام 1978.
4 – نشأة وتطور الطبقة العاملة في البحرين، اصدار معهد العمل العربي في الجزائر عام 1979.
5 – نشأة وتطور الطبقة العاملة في الكويت، اصدار المعهد العربي في الجزائر عام 1978.
6 – الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، صدر عام 1987 بتوقيع نصير سعيد الكاظمي.
7 – مساهمة في كتابة تأريخ الحركة العمالية في العراق، ألف بتوقيع نصير سعيد الكاظمي وصدر عام 1987.
8 – الكومنترن والشرق، ترجم بتوقيع نصير سعيد الكاظمي وصدر في عام 1987.
9 – أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، وألف باسم عزيز سباهي وصدر عن دار المدى عام 1996 وطبع للمرة الخامسة.
10 – مستقبل الرأسمالية، ترجم عن ليستر ثورو، وصدر عن دار المدى عام 1998.
11 – عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، صدر في ثلاثة أجزاء.
12 – ترجم اطروحة الدكتور ثابت عبد الله عن التجارة في البصرة في القرن الثامن عشر (لم يصدر بعد).
13 – وضع خمس دراسات اقتصادية واجتماعية عن مشكلة السكن في العراق.
14 – وضع عديدا من الأبحاث الزراعية، القيت في مؤتمرات زراعية ونشر بعضها في الصحف.
15 – أسهم في ندوة عالمية حول النفط ببحث حول امكانيات نجاح التأميم.
16 – أصدرت له مجلة (الثقافة الجديدة) عديدا من الدراسات الاقتصادية وهو عضو في مجلس تحريرها.

خسارة لا تعوض
تداعيات مؤلمة في رحيل الرفيقين فائق بطي وعزيز سباهي

عبد الرزاق الصافي

لم نكد نفيق من صدمة رحيل عميد الصحافة العراقية ومؤرخها الرفيق فائق بطي حتى فجعنا برحيل الرفيق عزيز سباهي أحد المع كوادر الحزب الشيوعي العراقي الثقافية، الذي قضى في صفوف الحزب ما يربو على السبعين عاماً، ذلك انه انتمى الى صفوف الحزب منذ اواسط اربعينات القرن الماضي.

ولقد جرى توديع الرفيق فائق بطي بما يستحقه من إشادة من قبل الحزب وأوساط الرأي العام الشعبي والرسمي، هو جدير بها، لما جسده في حياته من عطاء جم ونكران ذات وتضحية في المسيرة النضالية طيلة ستة عقود.

اما الرفيق عزيز سباهي فهو الآخر يشكل إنموذجاً للمناضل الشيوعي في تكريسه كل طاقاته لخدمة قضية النضال الوطني، وتحمله كل ما يتطلبه ذلك من تضحيات. فقد كان من سجناء نقرة السلمان في العهد الملكي. وتعرض للاعتقال والتعذيب على ايدي انقلابيي 8 شباط 1963 الأوباش وحرسهم اللا قومي المسعور.

وبرغم كل ما عاناه على ايدي السلطات المعادية للشعب فقد دأب على تطوير كفاءاته الثقافية وتكريسها للكتابة والبحث والترجمة منذ كان في (نقرة السلمان)، واغنى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات والتراجم الغنية.

ويعد مؤلفه الكبير (ستة عقود من النضال) الذي كرسه لتأريخ الحزب الشيوعي العراقي مأثرته الكبيرة في التأليف والبحث، ذلك انه كتبه بعيداً عن مكتبته وفي ظروف من عدم الاستقرار واضطراره الى كتابة بعض فصوله بسبب ضياعها!

وبرغم مرضه وكبر سنه، اذ أنه شارف على التسعين عاماً، لم ينقطع عن التأليف والترجمة ومد مجلة (الثقافة الجديدة) بالمقالات والتراجم التي تغني المكتبة العربية وتزود المناضلين بأسلحة الفكر العلمي والثقافة التقدمية.

إن رحيل الرفيقين فايق بطي وعزيز سباهي خسارة لا تعوض.

1/ 31

الرفيق عزيز سباهي في ذمة الخلود

جاسم الحلوائي

ببالغ الحزن والأسى، تلقينا نبأ وفاة الرفيق عزيز سباهي (أبو سعد) الكاتب والباحث المرموق صباح يوم الثلاثاء 26 كانون الثاني 2016 عن عمر ناهز التسعين عاماً في مغتربه في كندا.

الرفيق عزيز سباهي مناضل معروف في صفوف الحزب الشيوعي العراقي منذ سبعة عقود. وقد تعرض خلال نضاله من أجل حرية وطنه وسعادة شعبه إلى ثمانية عشر عاما من السجن والإبعاد، بما في ذلك سنوات عديدة قضاها في سجن نقرة السلمان الصحراوي وتحمل صنوف التعسف والاضطهاد الذي تعرض له السجناء الشيوعيون العراقيون. واضطر الى الهجرة من العراق عام 1978 أثناء تعرض الحزب الشيوعي العراقي للقمع الوحشي من قبل النظام الدكتاتوري المقبور. لقد استفاد سباهي من إقامته في السجون، وحيثما أمكن ذلك، لتطوير قابلياته، فطوّر لغته الإنجليزية وترجم عدداً من الكتب إلى العربية. لقد التقيت سباهي أول مرة في سجن بعقوبة الانفرادي عام 1957 وفي رجليه سلسلة حديدية لأنه من ذوي الأحكام الثقيلة.

يعد الرفيق عزيز سباهي من الكوادر المثقفة في الحزب الشيوعي العراقي وكان عضوا في اللجنة الاقتصادية المركزية خلال السنوات 1974 ـ 1978. وأصبح عضوا في قيادة تنظيم الخارج وفي لجنة العمل الأيديولوجي في السنوات الأخيرة من الثمانينيات وبداية التسعينات من القرن الماضي. ولم يكن من اهتمامات سباهي شؤون التنظيم الحزبي بقدر اهتمامه بالكتابة والبحث. فقد ترجم وألف العديد من الكتب، على سبيل المثال لا الحصر، فإنه ترجم كتاب «الكومينتيرن والشرق» لمؤلفه أ. ريجينكوف ونُشر باسم نصير سعيد الكاظمي. وألف ونشر بالاسم نفسه كتابين الأول «الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق» (1987). والثاني «مساهمة في كتابة تاريخ الحركة النقابية في العراق» (1989). وتوج بحوثه التاريخية بكتابه الكبير «عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي» وبصدور هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة أصبح لدى القارئ، ولأول مرة، تاريخ مدونّ ومطبوع يغطي حوالي ستة عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. وبذلك يتوفر مصدر مهم للثوريين ولجميع المناضلين من أجل غد أفضل ولجميع الباحثين في تاريخ العراق المعاصر بشكل عام وتاريخ الحزب الشيوعي العراقي بشكل خاص

المجد والخلود والذكر الطيب للفقيد عزيز سباهي والصبر والسلوان لأهله وأصدقائه ومحبيه.

رحيل صاحب
"عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي"

د. حسان عاكف

اقترن التعرف إلى عزيز سباهي بالنسبة لأبناء جيلنا بكتاباته عن الزراعة والواقع الزراعي والإصلاح الزراعي في العراق، إضافة الى اقتران اسمه باسم شقيقه الشهيد صبيح سباهي الذي جرت تصفيته في اقبية ومعتقلات انقلابيّ 8 شباط الاسود.

لقاءاتي الاولى مع الفقيد ابو سعد كانت عام 1983 في دمشق حين جاء قادما اليها من الجزائر للتفرغ الى العمل في مجلة "الثقافة الجديدة" والعمل الثقافي والإعلامي.

جمعتنا لقاءات واجتماعات حزبية مشتركة عديدة في فترة وجودنا في دمشق، حيث كان هو ضمن لجنة الاعلام والثقافة وكنت ضمن لجنة العلاقات الوطنية. وكان الفقيد واحدا من الرفاق الذين كنت حريصا على الاصغاء لمداخلاتهم وتحليلاتهم والتعلم منها.

افترقنا منتصف الثمانينيات، لنلتقي مرة اخرى نهاية تسعينات القرن الماضي في كردستان وسوريا. ذات إجازة زرت دمشق قادما من شقلاوة التقيت الراحل عزيز سباهي هناك. في تلك الفترة كان ابو سعد يحمل قلمه وأوراقه وحقيبة سفر مليئة بكتب تتعلق بالمهمة التي اخذ على عاتقه إنجازها، اكثر مما كانت تحتوي من حاجات شخصية اساسية لمسافر كان يتنقل بين مدن كردستان العراق الخارجة عن سيطرة الدكتاتورية ودمشق وبيروت ومدن اوربية أخرى للقاء بسياسيين وباحثين وأكاديميين، معمرين ومخضرمين على وجه الخصوص، من مختلف الاتجاهات ممن كان يعتقد انهم يمكن ان يساعدوه في اكمال المهمة الشاقة، التي تطوع لإنجازها، والمتمثلة في انجاز كتاب "عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي".

سألني ان كنت راغباً بمرافقته لزيارة "محمد علي الزرقة"، أحد الطلبة السوريين الذين قدموا من لواء الاسكندرونة بداية اربعينيات القرن الماضي لإتمام دراسته الجامعية في بغداد. رحبت بمقترحه وفرح غامر يتملكني، اذ من اين لي ان احظى بمثل هذه الصدفة النادرة للقاء هذا الرجل الذي كنت قد قرأت كيف ان قوميته وعروبته التي حملها معه من الاسكندرونة الى بغداد لم تمنعه من التأثر بالفكر الماركسي، الذي قاده الى الانتماء الى الحزب الشيوعي العراقي، وحظي بالتعرف الى باني الحزب يوسف سلمان (فهد) وقادة الحزب الآخرين ويحضر مؤتمره الاول عام 1945، مندوبا عن محلية بغداد واللجنة الطلابية، قبل ان تسقط السلطات الملكية الجائرة آنذاك عنه

الجنسية العراقية وتعيده الى دمشق. زرنا الرجل في شقته في مساكن برزة (مسبقات الصنع)، كان رغم بلغوه الثالثة والثمانين يتمتع بصحة جيدة وحيوية واضحة وذاكرة متوقدة، وبعد ان اعد لنا القهوة، راح يسرد لنا الكثير من القصص والحكايا والمواقف التي عاشها اثناء دراسته في بغداد عموما، وفي داخل الحزب بشكل خاص، بما فيها سكنه في بيت واحد مع سكرتير الحزب فهد لعام ونصف العام، وعلاقته مع زكي بسيم. كان بعد أن يرد على أسئلة واستيضاحات ابو سعد ينهض الى زاوية في رف من رفوف مكتبته، التي كانت تشغل جدران صالة الاستقبال وغرفتين اخريين في الشقة، ليستل منها مجلة او كراسا او كتابا يعود اصداره لعقد الاربعينيات، يتعلق بموضوع السؤال.

حين غادرنا مضيفنا "ضربنا على الخشب" ونحن مستمرون في الحديث عن الشيخ المخضرم وتوقد ذاكرته وصفاء ذهنه وحلاوة اللقاء معه. ثم فجأة سألني ابو سعد: هل تعرف الى جانب فرحي بلقاء مناضل التقى الرعيل الاول من الشيوعيين العراقيين وعمل معهم، وفرحي بهمته وصحته وأحاديثه الشيقة، فانا فرح بشعور داخلي خاص اثارته لدي طريقة مخاطبة الرجل لي، هل انتبهت إليها قلت للأسف لم انتبه للأمر. رد ابو سعد؛ لقد كان يخاطبني بكلمة "ابني". أنا الزاحف نحو الخامسة والسبعين هناك رجل يتحدث معي باعتباري إبنه، هذا لم يحدث لي ربما منذ اكثر من نصف قرن، كم هو مثير ومؤثر، عدا كونه غريباً، ان تجد وأنت في هذا العمر من يخاطبك بكلمة "ابني"..! ابتسمت ووجدتها فرصة للمزاح مع ابو سعد وخاطبته: "قالت يا إبني لا تفرح فالحزب عليك هو المكتوب".. ضحكنا بصوت أثار انتباه المارة في الشارع، وواصلنا السير نحو محطة الباص.

نبيل عراقي آخر يرحل هذا اليوم

فيصل لعيبي

عزيز سباهي المناضل الثوري والباحث الجاد والفنان المرموق، سلاماً. لك الذكر الطيب. كنت من أبرز الخطاطين ولكن تواضعك لم يجعلك تظهر كما ينبغي، إضافة الى موقفك الثوري الذي لا يسمح لمثلك بحياة طبيعية هانئة.. تركت لنا سِفْرَكَ النقدي والتاريخي عن الحزب الشيوعي العراقي، كمرجع يعتد به من مراجع التاريخ النضالي لأحدث حركة إجتماعية وسياسية تقدمية معاصرة في العراق، الى جانب دراساتك وأبحاثك ومقالاتك المختلفة، التي كنت تنشرها في (الثقافة الجديدة) و(الفكر الجديد) و(طريق الشعب) و(النهج) وغيرها .

مقـــــالات

نزاعات دول المنافسة الرأسمالية وتجلياتها الإقليمية

لطفي حاتم

كاتب وباحث عراقي حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون. عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له خمسة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وأفكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية. كما نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

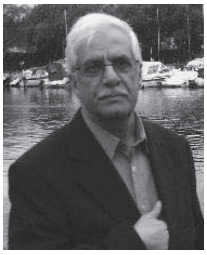

استنادا الى قانون المنافسة الرأسمالية المتحكم في حركة الانتاج الرأسمالي تتسارع النزاعات الدولية بين الدول الكولونيالية القديمة وبين الدول الرأسمالية الناهضة وتتجلى تلك النزاعات في أشكال متعددة منها اشكال اقتصادية وأخرى قانونية وثالثة سياسية وبالرغم من تعدد اشكال المنافسة الرأسمالية بين الدول المتنازعة إلا ان مضامين تلك المنافسة تتحدد في السعي لضمان المصالح الاستراتيجية والجيو –سياسية لهذه الدولة الكولونيالية أو تلك الناهضة، وفي اطار هذا السياق شكلت المنطقة العربية ميادين عسكرية/ اقتصادية/ سياسية لإدارة نزاعات الدول الرأسمالية المتنافسة وتكريس نتائج تلك النزاعات في العلاقات الدولية.

لغرض التقرب من ركائز استراتيجيات الدول المتنافسة وانعكاساتها على النزاعات الإقليمية نتعرض الى مضامين السياسة الدولية مستندين بذلك الى التجربة المعاشة وما تفرزه من معطيات ووقائع ملموسة.

المنافسة الرأسمالية ومضامين النزاعات الكونية

قبل الحديث عن عالمنا الرأسمالي المعاصر يتعين علينا تحديد سماته العامة والمتصفة بالخصائص الاتية:

ـ تحكم السوق الرأسمالي، على تعدد مسمياتها الاقتصادية ـ سوق ليبرالي، سوق اجتماعي سوق اشتراكي ـ في حركة الاقتصاد العالمي وتطوره رغم تباين وتشابك مستوياته

الدولية/ الإقليمية/ الوطنية.
ـ وحدة العالم الاقتصادية المرتكزة على آليات السوق الرأسمالي تشترط المنافسة الرأسمالية وما ينتج عنها من نزاعات سياسية/ اقتصادية/ عسكرية.
ـ النزاعات الاقتصادية والعسكرية الناتجة عن المنافسة الرأسمالية تهدف الى تقاسم ثروات وأسواق الدول الوطنية بين الشركات الاحتكارية المتعدية الجنسية بهدف بناء ممهدات اندماجها في البنى الاقتصادية والسياسية للشركات الدولية الاحتكارية.
ـ المنافسة الرأسمالية واستنادا الى قوانينها الداخلية تشترط بناء قواعد جديدة في العلاقات الدولية تؤدي الى انتقال العالم من القطب الواحد الى عالم متعدد الاقطاب؛ تشكل مراكزه الدولية تلك الدول ذات القدرات الاقتصادية والعسكرية.
ـ نزاعات المنافسة الرأسمالية بين دول الكولونيالية القديمة والدول الرأسمالية الناهضة ترتكز على ايديولوجيات وطنية تعتمدها دول الرأسمالية الناهضة وأيديولوجية اممية ينتهجها الرأسمال الامريكي الهادف الى الهيمنة الدولية.
استنادا الى تلك الايديولوجيتين الوطنية والأممية المعبرتين عن روح المنافسة الرأسمالية نتوقف عند محددات استراتيجية الدول الرأسمالية المتنازعة.
محددات استراتيجية الدول الرأسمالية المتنازعة
أولا ـ الاستراتيجية الامريكية
تشير وقائع السياسة الدولية المعاصرة الى ان التوجهات الناظمة للإستراتيجية الامريكية تتمثل بالعناوين التالية:
(أ) ضمان التفوق الاقتصادي/ العسكري/ التكنولوجي في العالم لغرض ادامة الزعامة الأمريكية في السياسة الدولية، وبهذا المسار تسعى نزعة الرأسمال الاممية الى تشديد تشابكاتها مع الرساميل الدولية ومنها الخليجية ودفعها للمساهمة الناشطة في الصراعات الاقليمية.
(ب) استبدال الشرعية الدولية بشرعية اطلسية وقوانين أمريكية عابرة لحدودها الوطنية.
(ج) تفكيك الدول الاتحادية في محاولة لإعادة بنائها بما يتجاوب والمصالح الاستراتيجية الامريكية بهدف اعاقة تحولها الى دول رأسمالية جديدة.
(د) تخريب الدول الوطنية واستبدال مفهوم السيادة الوطنية بسيادة وهمية تحكمها ضوابط طائفية/ عرقية.
– اشتداد المنافسة الرأسمالية دفع الولايات المتحدة الامريكية الى ايكال تدخلاتها العسكرية المباشرة الى الدول الحليفة بهدف خوض الصراعات الإقليمية وكالة بعد تحديث ترسانتها العسكرية.
التقدير المشار اليه يستمد صلاحيته من حزمة وقائع، منها ان منطقة الشرق الأوسط لم تعد المنطقة الاساسية (في نزاعات الولايات المتحدة مع الدول الرأسمالية الناهضة، ومنها ان تحديات النهضة الآسيوية وتشابك القروض الصينية في الاصول والسندات السيادية الامريكية) (1) اجبرت الولايات المتحدة على تطوير استراتجيتها العسكرية والاهتمام بجنوب وشرق آسيا. ومنها الحد من التوسع الصيني ناهيك عن مواجهتها للدور الروسي ومشرعه الأرو – آسيوي (2).
ثانياً ـ استراتيجية دول الرأسمالية الناهضة
تسعى الدول الرأسمالية الناهضة وبهدف ضمان وحيازة مواقع قوية لها في سوق المنافسة الرأسمالية الى اعتماد استراتيجية متعددة العناصر أهمها:

– تشديد النزعة الوطنية كأيديولوجية ضامنة لوحدة البلاد السياسية.
– اعتماد سياسة خارجية مضمونها احترام مبادئ الشرعية الدولية ورفض التدخل في الشؤون الوطنية.
– تطوير قدراتها العسكرية عبر التعاون العسكري المشترك وتبادل الخبرات العسكرية.
– محاولة بناء مؤسساتها المالية المشتركة لغرض تقليل اعتمادها على المؤسسات المالية الدولية.

ان خريطة المنافسة الاقتصادية والعسكرية العالمية تتحدد بثلاثة تكتلات اقتصادية رئيسية رغم تفاوت مستويات تطورها الاقتصادي والعسكري يمكن تأشيرها بالتكتلات التالية:

أ ـ الحلف الاطلسي المستند الى تكتلين اقتصاديين، أولهما؛ تكتل النافتا (اتفاقية التجارة الحرة لشمال أمريكا North American Free Trade Agre – ment – المحرر) بزعامة الولايات المتحدة. وثانيهم الاتحاد الأوربي، حيث يسعى التكتلان الى اعادة بناء دول اوربا الشرقية عبر إدماجها بالبنيتين الاقتصادية الاوربية والعسكرية الاطلسية بهدف تطوير مواقعهما على صعيد المنافسة الدولية.

ب ـ تكتل (بريكس) الذي يجمع الدول الرأسمالية الناهضة والمستندة على الروح القومية لطبقاتها الحاكمة (البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا – المحرر). وعلى الرغم من ان هذا التكتل الاقتصادي لم يرق الى مستوى التحالف العسكري إلا ان المصالح الاقتصادية المشتركة والتعاون الامني/ العسكرية قد تدفع هذا التكتل الى تنسيق سياسته الدفاعية (3).

ج ـ منظمة شنغهاي للتعاون والتي تضم دولا اساسية منها الصين وروسيا والهند يمكن اعتبارها شكلا اسيويا للتحالف المناهض لروح الهيمنة والتدخل في الشؤون الداخلية، فضلا عن ان شدة الروابط الاقتصادية لبلدانها تسمح بتحول هذه المنظمة الى تكتل عسكري في حال اشتداد المنافسة الرأسمالية (4).

المنافسة الرأسمالية وتجلياتها الاقليمية

إن تجليات المنافسة الرأسمالية في الشرق الاوسط يمكن اعتبارها حالة ميدانية للنزاعات العسكرية وكالة بين الدول المتنافسة عليه دعونا نرصد تلك تجليات عبر دالات محددة:

الدالة الاولى ـ شكلت الاحتجاجات الشعبية ورغم اطرها الوطنية ومطالبها الديمقراطية العامة تصادما بين الايديولوجيتين الوطنية والأممية، اللتين شكلتا غطاء سياسيا لتحركات الاستراتيجيات الدولية المتنازعة. وبهذا السياق حاولت الولايات المتحدة بسبب نزعاتها التدخلية فرض هيمنتها الدولية مرتكزة بذلك على وسيلتين في تحقيق اهدافها الاستراتيجية، الاولى منهما؛ تفكيك الدول الوطنية والتعامل مع تشكيلاتها الاجتماعية على اساس المصالح الفئوية. وثانيتهما تفكيك مبدأ السيادة الوطنية الضامن لبناء الدولة الوطنية واستبداله بضوابط المجتمع الاهلي المرتكز على ضوابط عرقية/ طائفية.

الدالة الثانية ـ تفكيك مبدأ السيادة الوطنية يشترط تشجيع وتغذية روح التمرد ونهج العنف في النزاعات الوطنية، فضلا عن رعاية القوى الراديكالية الإسلامية والمتطرفة (وتسليح منظماتها الجهادية).

الدالة الثالثة ـ استراتيجية الولايات المتحدة

وروحها الأممية تتجاوب مع الضوابط الفكرية والسياسية الناظمة للعقل السياسي الخليجي الحاكم ومساعيه الرامية لتحقيق هدفين، أولهما؛ محاصرة الاتحاد الروسي من خلال اغراق الاسواق العالمية بالنفط الخام وخفض اسعاره وما ينجم عن ذلك من إعاقة لتطور ونمو الاقتصاد الروسي. وثانيهما يتمثل بتصدير الغاز القطري عبر سوريا وتطوير الدور التركي في التجارة الدولية وما يعنيه ذلك من تحجيم دور روسيا في الاقتصاد العالمي.

الدالة الرابعة ـ شكلت النزعة الوطنية لبعض دول الشرق الاوسط غطاء فكريا لصيانة مصالحها والحد من نهوج التخريب الوافدة من الخارج والإرهاب الدولي الناشط في حدودها الوطنية.

أخيرا لا بد من الاشارة الى أن التحالفات الدولية/ الإقليمية ورغم شعارات مكافحة الارهاب إلا انها عكست شدة المنافسة الرأسمالية الدائرة حول السيطرة على الأسواق والثروات الداخلية للدول الوطنية.

الاحتجاجات الشعبية ونتائجها الفعلية

افضت الاحتجاجات الشعبية التي اجتاحت الكثير من الدول العربية الى انهيار الجمهوريات العربية التي انتجتها حركة التحرر الوطني العربية. كما وضعت الكثير من الدول العربية امام خطر سيادة الاحزاب الإسلامية المتطرفة ونهوجها العنفية في الحياة السياسية. وبهذا المسار استغلت الدول الكبرى تلك الاحتجاجات والمنظمات الراديكالية بهدف إعادة بناء الجمهوريات العربية بما يتجاوب ومصالحها الاستراتيجية.

كما أدى انهيار الجمهوريات العربية الى صعود ظاهرتين في السياسة الإقليمية، أولاهما؛ سيادة الدول الخليجية العربية وتدخلها في تقرير مسار النزاعات العربية. وثانيهما تحول العنف المسلح التي ظاهرة ارهابية شكلت اداة داخلية لتفكيك الدولة الوطنية، متجاوبة بذلك مع الاستراتيجية الأممية المعتمدة في السياسة الامريكية.

لغرض اكساب هاتين الظاهرتين ملموسية أكبر، نحاول التعرض لمضامينهما بإيجاز:

أ ـ سيادة الدول الخليجية

ـ ادى تفكك الجمهوريات العربية في العراق، ليبيا، سوريا واليمن، الى تراجع دور القوى الوطنية والديمقراطية في تقرير مسار النزاعات الاقليمية، وذلك بسبب انشغالها بحروب داخلية شكل الارهاب مصدرا اساسيا من مصادر اهدار ثرواتها الوطنية وغياب أمن وسيادة بلادها وما وفره ذلك من قوة فعلية للدول الخليجية العربية، إضافة لاستقرارها السياسي والاقتصادي.

ـ اندماج الرأسمال الخليجي مع الرأسمال الامريكي وتداخل المصالح الاساسية للطغم المالية مع توجهات الاستراتيجية الأمريكية أرغم الدول الخليجية على المشاركة بالنزاعات الاقليمية لحماية مصالحها الاستراتيجية.

ـ المعطيات المشار اليها تتشابك والسمات الشخصية لدى الجيل الثاني من الحكام الخليجيين الذين اعتمدوا التدخلات العسكرية والسياسية في النزاعات الإقليمية، فضلا عن مساندتهم للقوى الراديكالية والمنظمات الجهادية، وما نتج عن ذلك من اشتعال الروح العسكرية لدى الامراء الخليجيين.

ـ تجلت الروح الهجومية لدى الامراء الخليجيين في التدخل العسكري في اليمن،

فضلا عن تشكيل الحلف العسكري الإسلامي لمكافحة الارهاب، وما يحمله ذلك من مخاطر كبيرة على الامن والسلم الدوليين.

ـ يحمل الحلف العسكري الإسلامي لمكافحة الارهاب ورغم رمزيته كثرة من السمات والأهداف ابرزها: (أ) السمة الطائفية حيث حمل الحلف طابعا سنيا لمواجهة الاصطفاف الايراني السوري العراقي.

(ب) يسعى الحلف الى اطالة امد التدخل الروسي في سوريا عبر مد الفصائل المسلحة الارهابية (بما يساعدها على مواصلة القتال فضلا عن رغبة التحالف الاسلامي في مقاتلة روسيا عبر جمهورياتها الإسلامية.

(ج) محاولة التدخل العسكري في سوريا، بحجة مكافحة المنظمات الارهابية ومنها حزب الله المصنف سعوديا كـ «منظمة إرهابية»، الامر الذي يعني اندلاع نزاع مسلح تكون اطرافه الاساسية دول المراكز الإقليمية تركيا وإيران والعربية السعودية.

ب ـ المنظمات الارهابية

ـ أفضى غياب الشرعية الوطنية للدولة الوطنية، وانتشار الفقر والتهميش، ناهيك عن انهيار ركائز الفكر الوطني الديمقراطي، الى تنامي وهيمنة التيارات الاسلامية الراديكالية في الحياة السياسية وشكل فكر «الخلافة الإسلامية» وبنائه السياسي المرتكز على تعدد الإمارات الإسلامية، مرجعية للمنظمات السلفية الارهابية في نشاطها المسلح والهادف الى تفكيك الجيوش العربية وما أنتجه ذلك من تفكيك الجمهوريات العربية المستهدفة.

ـ أمدت الاحتجاجات الشعبية والتدخلات العسكرية الخارجية المنظمات الاسلامية الراديكالية بشرعية سياسية استمدت فعاليتها من التجربة التاريخية الإسلامية لتبرير نشاطها الفكري والدعائي فضلا عن اعتمادها الاساليب العنفية والعسكرية وسيلة لتفكيك الدولة ومؤسسات سلطتها التنفيذية (5).

ـ الاحتلال الامريكي للعراق واستنادا الى استراتيجيته الهادفة الى اعادة بناء الدول على اساس التوازنات الطائفية/ العرقية ساعد على نمو وانتشار المنظمات الجهادية وبهذا المنحى نشير الى ان مؤسسات «دولة العراق والشام الاسلامية» (داعش) العسكرية والمخابراتية والتصنيعية جرى بناؤها من الطواقم القيادية للمؤسسة العسكرية العراقية بعد انهيارها في 9 /4 /2003.

ـ إعادة توظيف كوادر المؤسسة العسكرية العراقية في قيادة الدولة الاسلامية أدت الى اندماج الفكر القومي العربي بالفكر الإسلامي وتحول شعار الوحدة العربية الى شعار الوحدة الاسلامية، الامر الذي اشر انتقال دولة الخلافة في العراق من طابعها القطري الى فضائها الإسلامي.

ـ اندماج الفكر الوحدوي بالفضاء الإسلامي انتج عنفا ارهابيا مستندا الى الإرث السلطوي التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية فضلا عن توظيف العنف المعتمد في النهوج السياسية لدولة الاستبداد العربية.

ـ تحول بعض أطراف الفكر العربي الوحدوي الى الحاضنة الإسلامية، قد يفسر بعض محددات الفكر السياسي لدولة الخلافة الاسلامية منها: عداء «داعش» ذات القيادة العربية لتنظيم القاعدة الإرهابي، ذو الصبغة الافغانية؛ معاداة داعش للولايات المتحدة الأمريكية بسبب غزوها العراق وتدمير مؤسسات دولته الاستبدادية؛ وآخرها كره دولة الخلافة الإسلامية للمملكة السعودية رغم مساعدة الاخيرة لداعش في كفاحها ضد العملية السياسية في العراق.

إن التقدير المشار اليه لا يعني وجود قطيعة بين المنظمات الارهابية: «داعش» و«القاعدة» و«النصرة» وبين استراتيجية الولايات المتحدة الهادفة الى سياسة الاحتواء وليس الاجتثاث كما تبين تجربة التحالف الدولي.

تلخيصا يمكن القول ان انتشار نزعة العنف الارهابية للمنظمات الجهادية الارهابية المرتكزة على ضوابط طائفية والمتجاوبة مع استراتيجية دول الكولونيالية يشكل اهم المخاطر التي تواجه ديمومة الدولة الوطنية وتطور قواها الديمقراطية.

الاستنتاجات

تلخيصا لبنية البحث التحليلية وركائزه الفكرية يمكننا صياغة بعض الاستنتاجات التي أراها ضرورية:

أولا ـ عكست حدة المنافسة الرأسمالية في المنطقة العربية تصادما بين نزعتين كونيتين، الأولى منهما النزعة الاممية للرأسمال الأمريكي الهادفة الى الهيمنة الدولية. وثانيتهما النزعة الوطنية التي تعتمدها الدول الرأسمالية الناهضة لغرض ضمان مصالحها الاستراتيجية.

ثانيا ـ تحول القارة الاسيوية الى قوة اقتصادية متحكمة في السياسة الدولية اجبر الولايات المتحدة الأمريكية على نقل مواجهتها الاستراتيجية الى جنوب وشرق اسيا وتفويض الدول الخليجية الدفاع عن مصالحها الدولية بعد استكمال الحماية العسكرية للدول الإقليمية الحليفة.

ثالثا ـ تطور العقلية الهجومية لدى امراء الخليج الجدد ومساندتهم لنزعة العنف الارهابية يجر المنطقة الى نزاعات إقليمية/ دولية وما ينتجه ذلك من كوارث اقتصادية وسياسية على دول النزاعات الإقليمية.

الهوامش:

(١) الصين تستحوذ على ما قيمته ١,٢٦١ تريليون دولار من الأوراق المالية الأمريكية الحكومية، وبهذا تصبح الصين الدائن الاول في العالم للولايات المتحدة.

(٢) قرار الكونغرس الامريكي بتصدير النفط وهبوط اسعاره، فضلا عن تزايد الدول المالكة لمخزون نفطي كبير قلل من اعتماد الولايات المتحدة على نفط الشرق الاوسط.

(٣) أطلقت دول (بريكس) في قمتها السابعة في تموز لسنة ٢٠١٥، بنك التنمية الجديد البالغ رأسماله ١٠٠ مليار دولار أمريكي والهادف الى تمويل مشاريع البنى التحتية لبلدان المنظمة والدول النامية.

(٤) منظمة شنغهاي للتعاون التي تأسست عام ٢٠٠١ التي تضم الصين وروسيا، كازاخستان، قرغيزيا، وأزبكستان فضلا عن الهند وباكستان، ومن المؤمل ان تصبح ايران عضوا مراقبا بعد انتهاء ملفها النووي.

(٥) يقارن بعض الباحثين الاحتجاجات الشعبية في الجمهوريات العربية بالثورات الملونة في اوربا الشرقية والتي جرت تغذيتها خارجيا بهدف تحويل بعض فصائلها الى فصائل مسلحة تعمل على اسقاط انظمتها السياسية.

اللوحة الاجتماعية في المجتمع العراقي: الجذور.. الواقع الراهن والآفاق

فرحان قاسم

فرحان قاسم من مواليد 1948، بكالوريوس لغة عربية، بكالوريوس لغة إنجليزية، عمل في التدريس، والإشراف الاختصاصي. عضو نقابة الصحفيين العراقيين، عضو الجمعية الوطنية للدفاع عن حقوق الانسان في العراق. نشر مقالات عديدة في العديد من الصحف العراقية.

أولا: مقدمة

في نيسان عام 2003 انهار النظام الدكتاتوري، وحل محله نظام جديد، ولا اريد الخوض في الاسباب والنتائج التي طبعت النظام الجديد، بل ما يهمني في هذه المساهمة هو التغييرات التي طرأت على اللوحة الاقتصادية – الاجتماعية في المجتمع العراقي بعد التغيير.

أصدر الحزب الشيوعي العراقي في اب 2015 وثيقة «رؤى في تحديات واقع الاقتصاد العراقي الراهن «، واظن انها من انضج الدراسات الاقتصادية التي حللت المتغيرات في الازمة الراهنة بناء على معطيات حكومية ودولية، وتوصلت الوثيقة الى استنتاج تزكيه الوقائع التي نعيشها وهي «ان العراق واقتصاده يقف على مفترق طرق، وانه في حال استمرار الاوضاع ومسارات السياسة الاقتصادية وتوجهاتها على ما هي عليها ، فان العطل في الاطار الاقتصادي العام للبلاد سيتعمق، وستكون لذلك تداعيات سلبية ثقيلة على حياة المواطنين وعملية الاعمار والتنمية، وستشتد مظاهر التفاوت والاختلال في البنية الاقتصادية – الاجتماعية «. ولم تكتف الوثيقة بالتحليل والتوصيف وإنما اعطت بدائل واقعية للخروج من الازمة من خلال «الاسراع في اجراء المراجعات والإصلاحات الادارية والمالية» (1).

اذا كانت المعطيات الدولية والحكومية والخطط والاستراتيجيات التي توفرت، ساعدت في انجاز وثيقة «رؤى في تحديات واقع الاقتصاد العراقي الراهن» فإنني اجد الحاجة ماسة لدراسة وتحليل اللوحة الاجتماعية في العراق بعد 2003، اذ يلاحظ الكثير من التخبط في استخدام المفاهيم وقسم منها تسلل الى ادبياتنا ومقالاتنا، رغم تقاطعه مع المفاهيم الماركسية عن الطبقات والفئات الاجتماعية، اضافة الى ان اللوحة الاجتماعية بعد 2003 انتجت فئات لم

تكن معروفة للباحثين، مثل»الحواسم» وغيرها سأتناولها بالتفصيل.

ثانيا: الجذور

ذهب احد الباحثين الى انتقاد الراحل عزيز سباهي في ثلاثيته «عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي» مشيرا الى ان سباهي «توقف عند تاريخ العراق الذي ليس له علاقة مباشرة بتاريخ الحزب ومقدمات نشوئه وهو ليس مهمة كتاب يحمل عنوان عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي» (2). وإذا ما رجعنا الى طريقة الديالكتيك المادية في دراسة الظاهرة بحركتها وعلاقتها مع الظواهر الاخرى وبآفاقها، فإنني اعتقد ان عزيز سباهي كان منسجما مع متطلبات ذلك المنهج في البحث. وذهب الدكتور كاظم حبيب ابعد مما ذهب اليه سباهي، فقد درس الحضارة العربية الاسلامية وتأثيراتها على المجتمع العراقي، ثم تناول بالتفصيل الاحتلالين العثماني والبريطاني (3). وكما هو معروف فان الدكتور علي الوردي ربط بين الازدواجية والتناشز في الشخصية العراقية وبين الحضارة والبداوة، والدكتور عبد الجليل الطاهر الذي وصف الشخصية العراقية بانها متقوقعة وقلقة في آن واحد بسبب الانتماءات الفرعية التي تعكس مظهرا تاريخيا، والدكتور حاتم الكعبي الذي حدد ثلاثة أنواع من التفاعلات الصراعية داخل الشخصية العراقية «التفاعل التنازعي الذاتي، والأسري، والثوري»، وربط بين تلك التنازعات وبين قيم المجتمع التراثية (4).

بسبب البيئة الفيضية الغنية بالموارد الزراعية، وبسبب الموقع الجغرافي للعراق، كان تاريخه سلسلة متعاقبة من الصراعات والحروب الداخلية بين القبائل البدوية والمستقرة وبين القبائل والحكومات وبين الدولة الفارسية والعثمانية وتعرض لغزوات المغول وأقوام أخري، ودخل المشهد الاستعماري منذ الحرب العالمية الأولى، كما اعتبر بعض الباحثين «حادثة هابيل وقابيل» رمزا للصراع الدموي بين القبائل البدوية «الرعاة» وبين القبائل المستقرة «الفلاحين» (5). و رغم تلك البيئة الفيضية الغنية بالموارد الزراعية إلا ان بلاد وادي الرافدين تخلو من المواد الأولية الضرورية لبناء الحضارة كالمعادن والأخشاب الصالحة للبناء والأحجار، وهو عامل موضوعي فرض على السكان اللجوء الى التجارة الخارجية من البلدان المجاورة والبعيدة للحصول على تلك المواد الأولية، لذلك كانت بلاد وادي الرافدين منذ نشوئها تجارية الى جانب كونها زراعية تستلزم منظومة ري متكاملة. وهذا الواقع فرض مستلزمات تترك آثارها على السكان وحياتهم من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ومن تلك المستلزمات الطرق الخاصة بالمعاملات التجارية وطرق المواصلات وأوضاع امنية مرتبطة بنشوء دولة مركزية قوية واحدة. وهنا نشأت نظرية الحكم في بلاد وادي الرافدين، حيث تحكم الالهة البشر، وتنيب عنها ملوكا يسوسون الناس. لذلك نجد ان العراق هو من اوائل الدول ذات الطابع المركزي الريعي في التاريخ، اسسها سرجون الأكدي بعد توحيده دويلات المدن، بسبب العلاقة الجدلية بين الدول الفيضية وبين الحاجة الموضوعية فيها لدولة مركزية ريعية، ارتباطا بملكية الدولة للأرض والماء أولا ولان الحاكم فيها – كما اعتقدوا – كان مفوضا من الاله على ابناء

شعبه، وهذا الواقع انتج عنصر الاستبداد والقمع الذي يصنع الولاء والطاعة العمياء ومنظومة خلقية متهرئة رافقت مجتمعنا قرنا بعد قرن.

لعبت الميثولوجيا دورا كبيرا في المجتمع العراقي، وخلف لنا الادب البابلي ملحمة جلجامش – ملحمة جنوح الانسان للخلود ة أهمية الأسطورة في تكوين الشخصية العراقية في العصور القديمة، وكيف تختلط قوة الالهة الخارقة مع سعي الانسان لبلوغ أهدافه. وبعد ظهور المجتمعات الطبقية لعبت الأديان دورا كبيرا في صيرورة وتطور المجتمعات، وأصبحت جزءا هاما من تراث البشرية لا يمكن التقليل من شانه او تجاوزه، وفي مجتمعنا حيث لعب الدين وما يزال دورا كبيرا في مختلف المجالات، وخصوصا في بناء وعي الشخصية العراقية بمختلف طبقاتها وفئاتها، فتكونت معالم شخصية ولائية سلبية، عاجزة عن الانعتاق من سحب الحاضر الى الماضي، لتكون بعيدة عن معرفة أسباب تعاستها الحقيقية. ولا يختلف هذا الانحراف في الوعي من طبقة الى أخرى او من مستوى تعليمي الى اخر، فقد اتسع افقيا وعموديا.

ومن جهة اخرى أثر الاحتلال العثماني والاحتلال البريطاني بشكل مباشر على عنصرين مهمين في الحياة الاجتماعية في العراق: العنصر الاول هو البناء التحتي اي العلاقات الانتاجية والكيان او الوجود الاجتماعي ككل، والعنصر الثاني البناء الفوقي اي الوعي الاجتماعي بعناصره المختلفة. فالدولة العثمانية انشأت العلاقات شبه الاقطاعية من خلال القوانين التي اصدرتها عام 1868 وما اعقبها من قوانين وإجراءات، اضافة الى انها ولأسباب فرضتها حاجات موضوعية فتحت عهدا جديدا في بناء الجيش والأنظمة الادارية وتطوير انظمة الري والزراعة وإنشاء بعض الورش والمصانع الصغيرة التي تسد حاجات قواتها المسلحة.. اما الاحتلال البريطاني فقد كرس تلك العلاقات شبه الاقطاعية – شبه الرأسمالية «الاستعمارية»، عبر سلسلة من القوانين والإجراءات اضافة الى انه فتح عيون العراقيين على الحضارة الغربية، ولنفس الاسباب والحاجات الموضوعية انشأ الاحتلال البريطاني عددا من المشاريع في قطاعات مختلفة.

وبعد اكتشاف النفط، اصبح العراق هدفا تتصارع حوله البلدان الاستعمارية، وتكمن خلف النفط سلسلة من المؤامرات التي سببت كوارث اقتصادية واجتماعية وسياسية، تركت اثارها على البنية الطبقية في العراق، وعلى المنظومة القيمية للشخصية العراقية.

المشهد الاجتماعي الناتج عن الاحتلالين اظهر الى الوجود الاقطاعيين، وشرائح من الفلاحين الفقراء والمتوسطين والأغنياء، وقطاع حرفي واسع الانتشار في المجالين الزراعي والصناعي والانتلجينسيا والبرجوازية المحلية بشرائحها المختلفة الكومبرادور والصناعية والصغيرة، والطبقة العاملة المرتبطة نشأتها الاولى بالرأسمال الأجنبي والبيروقراطية التي ستلعب ادوارا مهمة في مسارات الدولة العراقية لاحقا.

وأصبح العراق نتيجة للاحتلال بلدا يقع ضمن البلدان التابعة في تقسيم العمل الدولي، بلدا مصدرا لموارده الطبيعية، مستوردا للبضائع المصنعة في بلدان الانتربول وخصوصا الاحتكارات البريطانية.

ثالثا: إشكالية المفاهيم

مفهوم الطبقة:

«ان مفهوم الطبقة لم تبتدعه الماركسية فقد اصبح متداولا منذ ان ظهر القانون الروماني»، وكما قال ماركس نفسه «لا فضل يرجع لي في اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع، ولا في وجود الصراع بينها، فقبلي بزمن طويل وصف المؤرخون البورجوازيون التطور التاريخي للصراع بين الطبقات». ورغم ذلك فان تعريفها يعتبر إشكالية كبرى، اذ ذكر معجم الماركسية النقدي انه «هل يعقل ان يحبر ماركس 2500 صفحة عن صراع الطبقات بدون ان ينبس ببنت شفة حول تعريف الطبقات» (6). ويبدو ان هذا الاستغراب منطقي ولكن تطور هذا المفهوم المتسارع والمتنوع والمتحرك تبعا للتطورات الاقتصادية والاجتماعية دوما، يجعل حذر ماركس منطقيا جدا ولا يدعو للغرابة. والمفكر الوحيد الذي وضع تعريفا شاملا للطبقة، ويكاد يكون عرضا وشرحا اكثر منه تعريفا، هو لينين حيث قال «الطبقات هي جماعات واسعة من الناس، تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام الإنتاج الاجتماعي، محدد تاريخيا بوسائل الإنتاج، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، وبطرق الحصول على الثروات الاجتماعية، وبمقدار حصتها من هذه الثروات» (7). وذكر احد الباحثين ان لينين في تعريفه اغفل الحديث عن الوعي (8). وما جلب انتباهي في هذا التعريف أيضا هو عبارة (جماعات واسعة)، اذ اصبح شائعا في الادب الماركسي منذ بداياته عبارات «اقلية تملك وسائل الإنتاج وأكثرية تبيع قوة العمل» و«كلما تطورت الرأسمالية وخصوصا في مرحلة الامبريالية ازدادت القلة غنى وازدادت الأكثرية فقرا»، ولا ادري اذا كان لينين يعني باتساع الطبقة البرجوازية النسبي او شيئا اخر. فتعريف لينين مترابط اذ ان تجزئته بانتقائية تؤدي الى تشويهه، فالاتساع الكمي هو احد المعايير في التعريف، لان هناك فئات أوسع عددا من الطبقة العاملة والبرجوازية لكنها لا تتمتع بمواصفات الطبقة.

على العكس من بعض الاراء فأنني وجدت تعريف لينين هو المعين الأفضل على الأقل في تحديد الطبقات الرئيسية التي يحتويها الصراع التناحري والطبقات والفئات التي تقف على حافتي ذلك الصراع.

مفهوم «الطبقة الوسطى»

بدءا هذا المفهوم يتقاطع كلية مع التحليل الماركسي للوحة الاجتماعية، لأنه يعتمد مقياس الدخل والإنفاق عند بعض الباحثين ومقياس التعليم عند البعض الاخر وليس مقياس الموقع في العلاقات الإنتاجية. فهو مفهوم ملتبس و«مشحون سياسيا ومثير للجدل تاريخيا وغامض اجتماعيا وغير مفهوم بما يكفي» (9). اذ يوحي بوجود طبقة غنية وأخرى فقيرة وهي تقع بينهما، فهو يضم فئات وشرائح لا يجمعها جامع. ولو طبقنا المعايير التي حددها الباحثون في هذا المفهوم على اللوحة الاجتماعية في العراق بعد وقبل 2003، لوجدناها فضاء مفتوحا يضم البرجوازية المحلية وشريحة الفلاحين الغنية والمتوسطة والتجار والضباط وقسما واسعا من الحرفيين وفئات من العمال وجميع المثقفين (الانتلجينسيا) كما وجدت من يتحدث عن الطبقة السياسية او طبقة السياسيين او طبقة رجال الدين في العراق.

الانتلجينسيا «المثقفون»

هي فئة قديمة ارتبط ظهورها بانفصال العمل الفكري عن العمل العضلي (10)، وبعد ظهور الرأسمالية أصبحت الحاجة ماسة لهم، بسبب نمو الإنتاج والتبادل التجاري وازدياد دور النقود. وقسمهم غرامشي الى مثقف عضوي ومثقف تقليدي. وفي بلدنا فان الباحثين يكاد يجمعون على انهم شريحة واسعة من المجتمع العراقي لعبت دورا رائدا ومميزا في حركة التنوير منذ تأسيس الدولة العراقية، وتعرضوا لسلسلة من عمليات القمع والتهميش خلال تعاقب الدكتاتوريات على الحكم، بلغت قمتها ايام الحصار خلال التسعينيات من القرن الماضي. وبعد الاحتلال الامريكي لبلدنا انقسم المثقفون الى ثلاث فئات؛ الفئة الاولى تلفعت برداء القوى السياسية المهيمنة سواء قوى الاسلام السياسي او بعض القوى «العلمانية»، وتحولت الى سلاح ايديولوجي لتلك القوى، لتأبيد سطوة تلك القوى المهيمنة على السلطة، والفئة الثانية تبنت مشروع اللبرالية الجديدة ودخلت في لعبة الفساد المالي والصفقات والتسلق الى سلطة القرار من خلال مافيات رأس المال المالي، وفئة ثالثة حافظت على دورها التنويري في ظل الاجواء القاتمة التي تخيم على بلدنا.

هذه الفئة (أي الانتلجنسيا) يكون موقعها عادة في البناء الفوقي، لأنها تختص بالعمل الفكري أصلا، مما يجعل تأثيرها سلاحا ذا حدين، فقد انحازت غالبية هذه الفئة منذ بداية تأسيس الدولة العراقية الى قضايا الشعب، ولعبت دورا اساسيا في رفع مستوى وعي المواطنين باتجاه معاداة الاستعمار ودافعة باتجاه الاستقلال والسيادة الحقيقيين، ولكنها تعرضت وما زالت لقمع وتطويق وتهميش مخطط من قبل اغلب الحكومات المتعاقبة، لغرض تحويلها الى اداة بيد تلك الحكومات تستخدمها لحرف الصراع وتزييف الوعي. وهي في النهاية تنضوي تحت مفهوم فئة من فئات البرجوازية الصغيرة الواسعة في لوحتنا الاجتماعية.

مفهوم «الحواسم» سراق المال العام

وهو مفهوم لا يمت بصلة الى المفاهيم الاقتصادية او الاجتماعية، وليس لديه جذور لغوية او اصطلاحية اكاديمية، وأصبح مفهوما اجتماعيا شائعا فرضته احداث ما بعد الاحتلال ويعني «سراق المال العام». وإذا ما اعممنا هذا المفهوم فانه سيشمل قطاعا واسعا من اللوحة الاجتماعية الراهنة وينضوي تحته عدد من السجناء العاديين الذين اطلق سراحهم قبيل الاحتلال، وأعداد من الفقراء والمهمشين، وقسم من عصابات الجريمة الموجودة أصلا في عهد الدكتاتورية، وعصابات مدفوعة لأغراض سياسية من قوى داخلية وخارجية لتدمير ما تبقى من مؤسسات الدولة العراقية، وجميعهم اغتنوا عن طريق سرقة البنوك ومؤسسات الدولة. ويتحمل هذا المفهوم إضافة جميع الفاسدين من موظفي الدولة صغارا وكبارا منذ الاحتلال حتى اللحظة الراهنة، لان اغلبهم انتقلوا من مواقعهم الطبقية السابقة وانضموا بقوة الى راس المال المالي والتجاري والصناعي بنسبة بسيطة، وتوزعوا ضمن شرائح البيروقراطية والطفيلية والكومبرادور، وشكلوا مافيات تحت مظلة الأحزاب المهيمنة تتحكم بمسارات السياسة الاقتصادية في العراق.

مفهوم اشباه البروليتاريا

هم جمهرة واسعة جدا من السكان، هامشية ورثّة في مستوى معيشتها (11) وهم ضحية مشروع الاحتلال الاقتصادي الذي انتج نسبا عالية من البطالة والفقر، قسم منهم عاطل واخر عمال موسميون وباعة مفرد ومتجولون و»عتاكة» وجمهرة الحمالين والكناسين والشحاذين وأعداد من المتسربين والمتسربات من التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي، إضافة الى اعداد من الارامل والأيتام الذين خلفتهم الحروب والاحتراب الطائفي. غالبية هؤلاء من الأطفال والشباب نساء ورجالا، انهم يعانون من الفقر المالي والفكري ويعيشون تحت خط الفقر لسكان العراق، ويندفعون امام أي فرصة يعتبرونها انقاذا لهم من الوضع الشائن الذي هم فيه، ويكونون عرضة للانحراف بمختلف «يافطاته».

مفهوم الطلاب

من المعروف ان علماء الاقتصاد والاجتماع يعتبرون الطلاب احدى فئات البرجوازية الصغيرة في ظل الظروف الاعتيادية للبلدان المستقرة اقتصاديا وأمنيا، ولكنهم في العراق فئة سريعة الحركة والانتقال بسبب الظروف الاستثنائية التي يمر بها البلد، فالتسرب من التعليم ظاهرة تتصاعد كل سنة، والخريجون يواجهون غالبا البطالة. والأمر الذي يستدعي التوقف عنده هو نسبتهم بين سكان العراق ودورهم في اللوحة الاجتماعية الراهنة، فهم بمجموعهم يشكلون ثلث سكان العراق تقريبا. هناك اشكاليتان تواجه هؤلاء من ناحية الدور الذي يلعبونه: الأولى هي النظام التعليمي الذي يعتمد التلقين أساسا في بناء شخصية المتلقي، إضافة الى عوامل الانحطاط الأخرى التي تطبع النظام التعليمي كله، والثانية الاسرة التعليمية التي ارتفع مستواها المعيشي عما كانت عليه في زمن النظام الدكتاتوري، لكنها فقدت الكثير من مهمتها التنويرية بفعل انغماس جزء من أعضائها مع الطائفية والبراغماتية، الامر الذي انعكس على مستوى وعي الطلاب، ودورهم السلبي غالبا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في البلد.

مفهوم الطبقة العاملة

بدأت البروليتاريا في البلدان المستعمرة بالتكون في ظروف الاحتلال الاستعماري. وهي طبقة ترتبط اصلا بالقرية مما يضفي عليها طابعا نصف فلاحي (12). ان ضعف البروليتاريا لا يأتي فقط من اصولها الفلاحية ولا من ضالة عددها فحسب، وإنما هي الى جانب هذا مبعثرة وضعيفة التنظيم والوعي، وهذا ما يجعلها تتأرجح ايديولوجيا، ويؤدي الى وقوع اجزاء منها تحت تأثير الايديولوجية والأحزاب البرجوازية وانخراطها احيانا في تنظيمات رجعية وشوفينية او طائفية.

تتشكل نواة البروليتاريا من العمال الدائمين. ان بروليتاريا الانتاج الكبير تشكل العمود الفقري لجيش العمل المأجور وهي في البلدان المتخلفة قليلة العدد، وتضم عمال المصانع والمناجم والنقل والمواصلات وجزءا من عمال البناء وبعض عمال الزراعة. ويشكل عمال الانتاج الصغير المجموعة التي تلي البروليتاريا الحديثة مباشرة، وهي تشمل عمال المانيفاكتورة والورشات الحرفية والمؤسسات الصغيرة العاملة في مجالات النقل والتجارة والخدمات. والعديد من اصحاب المؤسسات الصغيرة يعملون

تماما كما يعمل عمالهم ولا يختلفون عنهم بشيء. ان نسبة المشتغلين في الانتاج الصغير هي اكبر بكثير في البلدان الاقل تطورا. والمؤسسات الصغيرة تحتل في قطاعي التجارة والخدمات مواقع اكبر من مواقعها في الصناعة.

نمت الطبقة العاملة في العراق مع المشاريع التي انشأها الاحتلال البريطاني، لحاجات موضوعية ارتبطت بإدامة وجوده وتعميق سيطرته على العراق، من خلال علاقات انتاجية شبه اقطاعية – شبه رأسمالية تعبد الطريق امام نشوء قاعدة اجتماعية محلية ساندة له، من اقطاعيين وكومبرادور وبيروقراطيين. ان هذه النشأة منحت الطبقة العاملة واحدة من اهم خصائص وهي انها ربطت كفاحها من اجل مصالحها الطبقية مع نضال الشعب العراقي بأغلبية فئاته الاجتماعية الاخرى ضد الاحتلال الاجنبي. ورغم محدودية وعيهم في بداية نشأتهم، فان العمال شاركوا بقية قطاعات الشعب النضال ضد الاحتلال البريطاني، وكان اول شهيد عشية ثورة العشرين نجارا (13).

وبسبب طبيعة نشأتها تلك، تعرضت الطبقة العاملة الى سلسلة متواصلة من الاجراءات القمعية والتهميش ووصلت تلك الاجراءات بالقانون رقم (50) لسنة 1987 الذي حول العمال الى موظفين في الدولة. كما سعت الحكومات المتعاقبة الى انشاء نقابات صفراء بدلا من النقابات الحقيقية الممثلة لمصالح العمال.

يكثر الحديث بين اوساط من الماركسيين واليسار وأوساط اخرى معادية للماركسية عن الطبقة العاملة في العراق ودورها في الفترة الراهنة، والسبب وراء اللغط الحاصل يعود الى عاملين أساسيين: الاول هو عدم توافر قاعدة معلومات دقيقة عن المتغيرات في اللوحة الاجتماعية بشكل عام والطبقة العاملة بشكل خاص، والعامل الثاني هو المواقف الايديولوجية المتشنجة مسبقا تجاه الكلاسيكيات الماركسية تصدر عن محسوبين على اليسار او عن قوى دينية وشوفينية وليبرالية جديدة تسعى على الدوام الى الحط من المفاهيم الماركسية، و»عجزها» عن تحليل ظواهر البلدان المتخلفة. وتتعدد منظورات تلك الطروحات بين من ينفي وجود طبقة عاملة بالمطلق في بلدنا او ينفي وجود بروليتاريا بمعناها الاصطلاحي او من يقصر وجود العمال على القطاعات الخدمية. ان انهيار القطاعات الانتاجية الزراعة والصناعة بعد 2003 خصوصا، وفر لتلك الطروحات الارضية لتجد من يسمعها ويقتنع بها.

ان واقع الطبقة العاملة الراهن يشير الى وجود البروليتاريا في عدد من القطاعات الانتاجية الاستخراجية والتحويلية في القطاع العام والخاص مثل شركات النفط وغيرها والصناعات التحويلية المتواجدة في عدد من المحافظات. وكذلك نجد قطاعا واسعا من العمال سواء في قطاع الخدمات العام والخاص او القطاعات الحرفية والمعامل الصغيرة. اضافة الى ما يطلق عليها البروليتاريا الزراعية، وهم العمال الزراعيون الذين يعملون بأجر.

مفهوم الفلاحين

يشكل الفلاحون في البلدان المتخلفة نسبة مهمة من السكان، ولعب انتشار العلاقات السلعية – النقدية وتطور العلاقات الرأسمالية دورا في حدوث تمايز طبقي بين الفلاحين، وأصبح هناك فائض سكان نسبي ادى الى انضمام جزء من الفلاحين

الى العمل المأجور، وقسم اخر ابتعد عن الاشكال التقليدية للإنتاج، وتزايد عدد الفلاحين الذين لا يملكون ارضا او اقتصرت ملكيتهم على رقع صغيرة او يبيعون قوة عملهم التي اصبحت المصدر الاساسي لعيشهم. وهذا التمايز في الريف العراقي أفرز ثلاث شرائح توزعت على الفلاحين الاغنياء والفلاحين المتوسطين والفلاحين الفقراء.

بعد 2003 عانى الفلاحون من شحة الماء وتدهور خصوبة الارض وعودة المشيخات والمشايخ والإقطاع وتقاليده البالية وأساليب توزيع المحصول الزراعي الى الواقع العراقي في الزراعة (14). كما تراجعت اعداد نفوس سكان الريف لصالح سكان المدينة الفقراء والمعوزين والعاطلين ولصالح القوات العسكرية. وتواجه اي باحث في دراسة وضع الريف العراقي والتغيرات التي حصلت عليه – وهي كثيرة جدا – شحة المعلومات الاحصائية التي تساعد على التوصل الى استنتاجات سليمة.

ان فتح الحدود العراقية امام المنتجات الزراعية لدول الجوار وغيرها بدون ضوابط والتجميد العملي لقانون حماية المنتج الوطني ادى الى عزوف الكثير من الفلاحين عن الزراعة لعدم قدرتهم على المنافسة في السوق مع المنتجات المستوردة واللجوء الى مصادر عيش خارج القرية، وما اتساع العشوائيات حول المدن العراقية، وانتشار العمال المياومين القادمين من الريف للعمل في القطاعات الخدمية، اضافة الى تطوع ابناء الفلاحين في القوات المسلحة، وبيع اراضيهم لمجاميع مافيات العقارات في الاراضي الزراعية إلا مظهر من مظاهر تفاقم الفقر في الريف العراقي.

مفهوم البرجوازية الكومبرادورية

هي الفئة العليا من البرجوازية في البلدان المتخلفة (15)، وتشمل التجار الوسطاء واصحاب المصارف والمرابين وجزءا من البرجوازية الصناعية، وهي مرتبطة بشكل وثيق بالرأسمالية الدولية، وهناك قسم اخر جلبهم المحتلون الامريكان معهم، عراقيون وعرب، ومنحوهم مقاولات لمشاريع كثيرة، وخلقوا منهم قاعدة اجتماعية لتوسيع صلاتهم بشرائح مختلفة انضمت الى حلقاتهم، وأصبحوا قوة اقتصادية تفرض سيطرتها عبر عمولات وإغراءات أخرى على صناع القرار العراقي.

مفهوم البرجوازية البيروقراطية

وهي الفئة الغنية من الموظفين، وهي طفيلية بطبيعتها، وتنمو بسرعة كبيرة ويزداد تأثيرها في كل مكان، وإن رأس المال البيروقراطي ليس مرتبطا بشكل مباشر بشروط الانتاج المادي، وتتألف مصادره من الرواتب وبقية الامتيازات للشخصيات الحكومية والسياسية التي تشكل النخبة الحاكمة. ومن خلال الفساد يجمع هؤلاء ثروات طائلة، وكلما كان البلد اكثر تخلفا كانت هذه الفئة أقوى، لأن نشاطها يتسم بالطابع غير الاقتصادي، وهو يقتصر على الرشوة والعمولات والكسب عبر المضاربات، وان الوظيفة الحكومية في بعض البلدان المتخلفة كانت مصدرا من مصادر التراكم الابتدائي عبر انواع النهب. واحدى الميزات المهمة في اللوحة الاجتماعية هي التداخل بين هذه الشرائح والفئات حيث تجد الوزير يصبح جزءا من الكومبرادور والطفيليين وقد يرتقي الوزارة من كان يحتل موقعا مؤثرا بين الطفيليين والكومبرادور، إضافة الى ان هؤلاء استطاعوا عبر

العلاقات المافيوية والرشى من الوصول الى البرلمان من خلال أسماء أخرى لا تنضوي تحت توصيفاتهم الطبقية. كما استطاعت البيروقراطية والطفيلية ان تجر الكثير من شيوخ العشائر والشخصيات المؤثرة الى صفوفها، عبر منحهم مقاولات ومشاريع تدر عليهم اكبر الأرباح، وغالبا ما شاب تلك المشاريع الفساد، واستثمروا تلك العلاقات مع المشايخ لتحقيق مكاسب انتخابية لكتل سياسية ينتمون إليها.

الحرفيون

يشكل الحرفيون وصغار التجار الفئة الاكبر عددا في مدن البلدان المتخلفة لغلبة الانتاج السلعي الصغير والأشكال الدنيا من الانتاج الرأسمالي مع ما يلازمها من علاقات سوقية قديمة. ولعب هذا القطاع دورا كبيرا خلال الثمانينات وفترة الحصار بعد التسعين من القرن الماضي، وازدادت نسبة مساهمته في الناتج المحلي، لأنه ساهم في سد احتياجات السوق المحلية نتيجة محدودية الاستيراد خلال فترة الحصار. ولكنه هو الآخر تعرض لانهيار كبير بعد عام 2003، بسبب البضائع الخارجية التي اغرقت الاسواق وبأسعار لا يستطيع هذا القطاع منافستها، فانهار القطاع الحرفي في انتاج الاحذية والجلود والملابس والغزول وبقية قطاعاته الاخرى. ولجأ الكثير من العاملين فيه اما للعمل المأجور او الهجرة الى الخارج.

رابعا: الخاتمة

بعد ما يقارب الثلاثة عشر عاما التي اعقبت الاطاحة بنظام الدكتاتورية البغيض، اصبحت اللوحة الاجتماعية والسياسية رغم تعقيدها واضحة المعالم وخلاصة ما توصلت اليه من العرض السابق ان اللوحة الاجتماعية للواقع العراقي الراهن تقسم الى:

1 – البرجوازية الكبيرة: وتضم تحالفا اتسعت اطرافه لتشمل الفئات البيروقراطية والكومبرادورية والطفيلية بمسمياتها المختلفة وهي من الناحية السياسية تتمثل بالكتل السياسية المهيمنة على السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، والتي اعتمدت المحاصصة بأنواعها شكلا للنظام السياسي، والفساد المالي والإداري اداة للاستحواذ على المال العام. وتضم هذه الطبقة ايضا فئة صغيرة من البرجوازية المحلية الصناعية التي دفعتها مصالحها المتضررة ووعيها الوطني ايضا ان تكون خارج ذلك التحالف.

2 – البرجوازية الصغيرة: وتضم طيفا واسعا من الفئات الاجتماعية، قديمة وجديدة التشكيل بمسمياتها المختلفة، وتتمثل بالقطاع الحرفي والإنتاج الصغير في المجالين الزراعي والصناعي، والمثقفين من شغيلة الفكر في كافة المجالات، سواء العاملين في قطاع الدولة او القطاع الخاص، عدا الذين وظفوا قدراتهم وطاقاتهم الفكرية لخدمة التحالف المسيطر، والتجار الصغار من اصحاب المحلات او الوسطاء في العمليات التجارية الصغيرة، والطلاب.

3 – شغيلة اليد: وتضم الطبقة العاملة بفئاتها المختلفة، والفلاحين الفقراء، والمهمشين بمختلف مسمياتهم وتصنيفاتهم.

ومن خلال التقسيم السابق يمكن الحديث عن التحالف المسيطر الذي يضم البيروقراطيين والكومبرادور والطفيليين وفئات اخرى وظفت قدراتها لخدمة هذا

التحالف من مثقفين ومشايخ ورجال دين من طوائف مختلفة، يحظى مشروعها بدعم من قوى دولية واقليمية تحولت يوما بعد يوم لتصبح عاملا داخليا مؤثرا ومقررا في احيان كثيرة. ان هذا التحالف الاجتماعي والمعبر عنه عبر احزاب سياسية داخلية وقوى دولية يتوحد من جهة الاهداف الاقتصادية الكبرى لمشروعه ويختلف ويتصارع عبر مظهر الطائفية والمحاصصة للحصول على المكاسب السياسية والاقتصادية المؤثرة في مشهد مشروع الدولة العراقية الموعودة الذي لم يكتمل بعد.

اما القوى الاجتماعية الاخرى والأحزاب التي تمثلها، في الحقلين الثاني والثالث المكونة من البرجوازية الصغيرة وشغيلة اليد اضافة الى منظمات المجتمع المدني والبرجوازية الصناعية المحلية المتضررة من المشروع الاقتصادي بعد الاحتلال، فيفترض انها تشكل التحالف الواسع المقابل الذي من مصلحته بناء دولة مدنية ديمقراطية معاصرة. لكن تجربة السنوات الاثنتي عشرة الماضية اثبتت ان تحقيق مثل هذا التحالف الواسع، يواجه عقبات كثيرة وجدية ابرزها تدني الوعي ونمو النزعات الطائفية والشوفينية الضيقة الى قطاعات شعبية واسعة، التي ابعدت تلك القوى عن الصراع الحقيقي، الامر الذي يجعل مهمة اقامة التحالف الواسع ما زالت هي المهمة الأرأس التي تواجه شعبنا من اجل بناء الدولة المدنية الديمقراطية.

مصادر الدراسة

(١) الشيوعي العراقي، "رؤى في تحديات واقع الاقتصاد العراقي الراهن". متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://www.iraqicp.com/index.php/party/from-p/30360-2015-07-06-08-12-33

(٢) جاسم الحلوائي، "محطات مهمة في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" (بغداد: دار الرواد المزدهرة، ٢٠٠٩).

(٣) د.كاظم حبيب، "لمحات من عراق القرن العشرين"، ١١ مجلدا (أربيل: دار أراس للطباعة والنشر، ٢٠١٣).

(٤) د . معن خليل عمر، "رواد علم الاجتماع في العراق" (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠).

(٥) طه باقر، فاضل عبد الواحد علي، عامر سليمان، "تاريخ العراق القديم" (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٨٠).

(٦) جورج لابيكا، "معجم الماركسية النقدي" (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٣)

(٧) محاضرة في الفلسفة، منشورات لجنة العمل الفكري المركزية.

(٨) تاج السر عثمان، "المفهوم الماركسي للطبقة". متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=149366

(٩) بحث عن الربيع العربي اعدته اللجنة الاقتصادية لغرب اسيا في الامم المتحدة.

(١٠) د. كمال مظهر أحمد، "صفحات من تاريخ العراق المعاصر – دراسات تحليلية" (بغداد: منشورات مكتبة البدليسي، ١٩٨٧).

(١١) د.كاظم حبيب، "آراء حول الطبقة الوسطى بالعراق وقضايا اقتصادية أخرى". متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://altahreernews.com/inp/view.asp?ID=21171

(١٢) مجموعة من العلماء السوفييت، "التركيب الطبقي في البلدان النامية" (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٢).

(١٣) د.كاظم حبيب، "لمحات من عراق القرن العشرين"...، مصدر سابق.

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) مجموعة من العلماء السوفييت، "التركيب الطبقي في البلدان النامية.."، مصدر سابق.

التنمية البشرية والتعليم في العراق

نجيب محي الدين
نقيب المعلمين الأسبق في العراق

أولت هيأة الأمم المتحدة، من خلال منظماتها المختصة منذ إنشائها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، اهتمامها بشؤون البلدان النامية والفقيرة بغية رفع مستوى حياة شعوبها وتحرير أو تخفيف معاناتها من الفقر والجهل. وبذلت جهودا كبيرة وأنفقت أموالا كثيرة على مدى عدة عقود من الزمن من أجل ذلك، بإنشاء مشاريع صناعية وزراعية وخدمية وغيرها أملاً بتحقيق نمو اقتصادي يؤدي الى رفع مستوى حياة الشعوب، إلا أن مرور الزمن أثبت عدم جدوى تلك المحاولات التي بذلت، فلم تحقق ما كان يرتجى من نتائج. وشهدت فترة نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، بروز قناعات لدى منظمات الأمم المتحدة والعاملين والمهتمين بهذه الشؤون نحو إنشاء مشاريع تطبيقية عملية ناجحة تحقق تنمية بشرية ملموسة حقاً، وتوجه الاهتمام نحو صياغة مفهوم جديد للتنمية البشرية لتحديد أبعادها من حيث تعيين أهدافها ووسائلها ودلالاتها العلمية والعملية لتتوجه الجهود وتتأسس المشاريع على وفق ذلك، وليتسنى بالتالي الحكم على مدى نجاحها. ويذكر الدكتور مهدي الحافظ بهذا الصدد في كتابه: (التنمية البشرية – أفكار ومعالجات جديدة الصادر عام 2012)، «فلأول مرة في الأدب التنموي العالمي تعرف التنمية البشرية على نحو محدد وجديد بأنها توسيع خيارات الناس»، ويمضي الدكتور الحافظ فيقول "والمقصود بالخيارات هو الفرص opportunities المبتغاة في ميادين أساسية للحياة الإنسانية وأهمها:

1. الحصول على دخل أكبر.
2. زيادة التعليم.
3. توقعات الحياة (العناية الصحية).
4. بيئة نظيفة.
5. الحرية السياسية وحماية حقوق الإنسان"

ويعني ذلك كما أرى ان التنمية البشرية تعمل من اجل توفير العوامل اللازمة في الميادين الأساسية للحياة بما يضمن توفير مستوى مناسب لحياة إنسانية كريمة لشعوب البلدان النامية والفقيرة.

بروز مفهوم آخر للتنمية

وبناءً على ما تقدم فان مفهوم التنمية لم يعد مفهوما اقتصاديا بحتا كما كان سابقا، بل صار يعتبر مجموعة عوامل متداخلة ومتفاعلة ضمن مفاهيم الاقتصاد والسياسة والتربية وعلم الاجتماع والبيئة، ولكن

يظل الجانب الاقتصادي لدى الأخصائيين الاقتصاديين هو العامل الأبرز في مفهوم التنمية البشرية وتحقيق أهدافها.
وفي رأيي المتواضع فأن التعليم بما يعنيه من توسع في مساحة انتشاره في البلاد ورفع مستوى جودته وتنويع فروع المعرفة والمهارات لدى مخرجاته في جميع مستوياتها التعليمية، هو العامل الأبرز في تحقيق الفرص الأساسية المبتغاة أو الأهداف المنشودة في الميادين الأساسية للحياة الإنسانية، فالتعليم إذ يتميز بكونه هدفا من أهداف التنمية البشرية الأساسية وانه أساس العلم والتكنولوجيا، إلا انه يعتبر بنفس الوقت عاملا مهما في تحقيق الأهداف الأخرى لها، فالتوسع فيه وارتفاع مستوى جودته وتنويع المعرفة والمهارات في مخرجاته تشكل عوامل فعالة تسهم في مواجهة البطالة والحصول على دخل أكبر، وكذلك في نجاح أهداف المشروعات الصحية والوقائية منها والعلاجية وضمان البيئة النظيفة والوعي بأهمية ضمان ممارسة الحريات السياسية وحماية حقوق الإنسان.
لقد أخذ البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة على عاتقه إصدار تقارير سنوية على وفق المفاهيم الجديدة للتنمية البشرية وقد بدأ بذلك في عام 1990 وأستمر على ذلك بانتظام كما أخذت بعض البلدان بإصدار تقارير وطنية سنوية أيضا وبذلك صار يتيسر للباحثين في هذا الشأن الاطلاع على حالة التنمية البشرية في كثير من بلدان العالم.
ومما يجدر ذكره هو عما صار يتردد في البحوث التنموية ومنذ عدة سنوات وعلى نطاق واسع في العالم بضرورة الأخذ باعتماد "التنمية البشرية المستدامة" وقد أوضحت جميع تقارير التنمية البشرية الصادرة عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة بأن مفهوم هذه التنمية يتحدد بالمبادئ والأهداف التالية وهي:
1. تأمين حاجات الأجيال الراهنة من دون الإضرار بإمكانات الأجيال القادمة على تأمين حاجياتها.
2. المحافظة على التوازن البيئي وعلى نظافة البيئة وصيانتها والسعي لترشيد استخدام الموارد الطبيعية وتطويرها.
3. السعي لتحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية تهم الناس وأهمها القضاء على الفقر والبطالة وتوفير فرص عمل متكافئة للمواطنين وتحسين الدخل القومي وكذلك القضاء على الجهل والمرض.
4. تأكيد قيم الحرية وحقوق الانسان والمرأة والديمقراطية وتأسيس الحكم بإدارة ديمقراطية وعلى سلطة القانون والمؤسسات المنتخبة والدستورية.

التعليم في العراق من منظور التنمية البشرية

لقد حقق التعليم المتميز بكافة جوانبه نتائج مذهلة في البلدان التي اعتمدته عاملا رئيسيا في النجاح لحل مشاكلها الداخلية ولتطورها ورفع مستوى حياة شعوبها، كاليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا وسنغافورة، ما حمل المؤسسات التعليمية في كثير من البلدان حتى المتقدمة منها كالولايات المتحدة الامريكية أن تراقب باهتمام ما حققه التعليم في تلك البلدان لتأخذ منه ما تحقق بفضله هناك. كما أخذ الاقتصاديون الداعون للتنمية البشرية والمسؤولون عن سياسة التعليم في كثير من بلدان العالم يطالبون باعتماد فلسفة تعليمية أساسها

الحاجة الى استثمار الإنسان وعقله أولا قبل استثمار المادة، الإنسان هو الذي على أساسه تبنى المجتمعات وتتطور ولكي تتطور علينا باستثمار العقل أولا، عندها سيأتي التقدم والتطور والإبداع والانجاز اما المادة فستكون تحصيل حاصل لحركة العقل الإنساني.

لقد قامت وزارة التخطيط العراقية بانجاز مطبوعات قيمة تتضمن نتائج مهمة لدراسات ومسوحات ميدانية للجوانب الاجتماعية والاقتصادية في الحياة العراقية في ما يتعلق او يختص بشؤون التنمية البشرية المرجوة في العراق، ويشكل التعليم جانبا رئيسا فيها، وقد تيسر لي الاطلاع على اثنين منها بالعناوين التالية:

1. (خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق لعام 2007) وهي دراسة بثلاثة أجزاء وصدرت في عام 2011 بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) وبعض المنظمات الدولية الأخرى.

2. (العراق – 7000 سنة من الحضارة) وهو التقرير الوطني لحالة التنمية البشرية لعام 2008 وقد اعتمدت عليها كثيرا في إعدادي لهذا الموضوع واقتطفت منها ما رأيته مهما ومناسبا مما جاء فيها عن حالة التعليم في العراق ومدى ما يحظى به من الاهتمام ومدى قدرته على المساهمة في أداء دوره في تحقيق أهداف التنمية البشرية المنشودة في البلاد، مضيفا اليها ما لدي من بعض الملاحظات او التعليقات التي رأيتها لازمة ومناسبة.

لقد حددت وزارة التخطيط رؤيتها لأهمية التعليم كما جاء في المطبوع الأول المشار اليه وهو «خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق» بالقول «جاء الهدف الخاص بالتعليم في الترتيب الثاني بعد هدف القضاء على الفقر في تسلسل الأهداف الإنمائية، نظرا لما يعنيه التعليم من منظور التنمية المستدامة، وخلق رأس المال الثقافي والاجتماعي الذي يعد أهم أنواع الاستثمار في حياة المجتمعات الإنسانية. وعند استعراض حالة التعليم من خلال العقود الثلاثة الماضية في التقرير الوطني لحال التنمية البشرية لسنة 2008 الذي جاء ضمن المطبوع بعنوان، العراق 7000 سنة من الحضارة فقد جاء فيه «كان العراق يتوافر على نظام تربوي يعتبر واحدا من أفضل الأنظمة في الشرق الأوسط حتى عام 1980، ومنذ ذلك الحين تراجع النظام التربوي حتى بات من بين المجموعة الأدنى في الشرق الأوسط. ومن ملاحظة الإحصائيات الرسمية يظهر تراجع مؤشر الالتحاق بالتعليم الابتدائي وارتفاع معدلات الأمية ومعدلات التسرب والتفاوت بين المحافظات، بسبب تدني تخصيص الموارد المالية طوال ثلاثة عقود شهدت حروبا وعقوبات دولية، وأضيف الى ذلك الآثار المدمرة التي خلفتها سياسة الحكم السابق التي فرضت سياسة «تبعيث التعليم» التي تهدف الى ضمان الولاء للحزب الحاكم وقائده، واعتمدت لتحقيق ذلك مسخ مناهج التاريخ والتربية الوطنية وإبعاد العناصر التعليمية الكفوءة التي ظلت محافظة على استقلاليتها ومهنيتها وهو ما أدى الى هبوط مستوى التعليم في كافة المراحل الدراسية. ويعود التقرير ليذكر «وعلى الرغم من الموازنات المالية للسنوات ما بعد 2003 أخذت تتجه نحو تحسن تخصيصات القطاع الاجتماعي ومنها التعليم إلا انها لم تكن لتلبي احتياجاته بالنظر لحجم المشكلات والاختلالات الموروثة والآثار

المباشرة وغير المباشرة لها التي خلفتها سياسة الحكم المباد الذي انتهى في ذلك العام بالإضافة الى ما أخذت تعانيه البلاد من اضطراب الحالة الأمنية ومن الآثار السلبية لظاهرة استشراء الفساد الإداري والمالي التي أخذ نموها في التسارع منذ عام 2003».

وجاء في هذا التقرير ايضا «ومن منظور تطلعات الناس كان العام 2003 إيذانا بتحول توجهات السياسة العامة بإعطاء السياسات الاجتماعية أولوية في برامج الحكومة، إلا ان متابعة أرقام الموازنة العامة لوزارة التربية بعد ذلك التاريخ لا تكشف عن اعتماد سياسة تصحيحية مناسبة لإعادة تأهيل القطاع التربوي، فقد انعكس التراجع في نسبة تخصيصات موازنة التعليم على العملية التربوية بعجز مستديم ليس في استيعاب النمو المتسارع في العوامل الضاغطة على التربية (كنمو السكان مثلا) وتوسيع فرص تمكين الناس من التعليم فحسب، بل في تراجع ما موجود من بنى مؤسسية وارتفاع نسبة غير الصالح منها أيضا»، هذا بالإضافة الى ما سببه الفساد الإداري والمالي من عدم الاستفادة استفادة تامة حتى من المبالغ المخصصة لها.

النقص في الأبنية المدرسية وآثارها السلبية

تعتبر البناية المدرسية المناسبة البيئة الملائمة اللازمة لأداء العملية التعليمية والتربوية، إلا ان ما أظهره التقرير الصادر عن وزارة التخطيط في عام 2011 بعنوان خارطة الحرمان، عن التعليم في العراق لعام 2008 نقلا عن المديرية العامة للتخطيط التربوي في وزارة التربية «ان العجز في الأبنية المدرسية في العام الدراسي 2007 – 2008 هو 5316 بناية مدرسية وعدد الأبنية الآيلة للسقوط 1878 بناية والتي بحاجة الى ترميم شامل 3079 بناية». كما يشير تقرير لمنظمة اليونيسيف الى وجود 796 بناية طينية مدرسية في عام 2006. وتتجلى خطورة النقص في الأبنية المدرسية ما يتسبب من هبوط في مستوى التحصيل التعليمي لضيق القدرة الاستيعابية وضعف القدرة على توفير الفرص الكافية للتعليم والاستمرار فيه وانه واحد من الأسباب الرئيسية التي دفعت أفواجا من الطلاب خارج النظام التربوي. وترتبط ظاهرة عدم مواصلة التعليم خلال مختلف المراحل الدراسية بسبب آخر، هو تدهور أوضاع التنمية البشرية، ذلك ان معظم المتسربين من الدراسة هم من العائلات الفقيرة وهذا ما يترك آثارا ضارة تلحق بالتنمية البشرية والعلاقات الاجتماعية والأوضاع السلوكية للمتسربين وعلى قدر تتبعي لمشكلة العجز في الأبنية المدرسية فإنها ما زالت قائمة متمثلة بازدياد عدد المدارس المزدوجة في البناية الواحدة واكتظاظ الصفوف بأعداد التلاميذ وقلة عدد المدارس التي تم إنشاؤها بما لا يتناسب والأعداد المطلوبة، وما تم الإعلام عن إنجاز أبنية مدرسية كان قليلا جدا لا يتناسب والأعداد اللازمة منها.

عرض تحليلي للواقع التعليمي والسياسات والبرامج

جاء في تقارير وزارة التخطيط المشار اليها، يلاحظ عند مراجعة الفصول الخاصة بوزارة التربية في الموازنات

المتعاقبة منذ عام 2003 إهمال معالجة النقص في المستلزمات التعليمية، إذ خلت من أية إشارة محددة تخص العام 2008. وعند ملاحظة التركيب الهيكلي للموازنات الجارية للسنوات الثلاث 2004 – 2006 يلاحظ تحيزها لصالح فصل نفقات الموظفين الأجور– والرواتب، والذي يشكل أكثر من 93% منها، مما يجعل الحصة المتبقية للفصول الأخرى (أبنية ومختبرات ووسائل إيضاح ومكتبات ووسائل فنية وغيرها من المستلزمات التعليمية) غير ذات أثر ايجابي في إحداث تغييرات إيجابية على هيكل النظام التربوي. ومع ذلك وعلى الرغم مما تعرض له التعليم في العراق خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي من تدهور طال جميع مرافق العملية التعليمية وما تعرضت له هذه المرافق بعد ذلك من نهب وتدمير خلال الأيام الأولى التي أعقبت انهيار الحكم الاستبدادي السابق وتسلط الاحتلال الأمريكي لحكم البلاد، فقد حصل بعض التطور في مجالات التعليم المختلفة بعد عام 2003.

فعلى صعيد التعليم الابتدائي تحقق التطور في مجالات التعليم بنسبة ارتفعت من 86% الى 90% بين العامين الدراسيين 2001 – 2002 و2007 – 2008 من مجموع الأطفال المؤهلين للالتحاق بالدراسة الابتدائية، ومع ذلك فان مقدار هذه الزيادة التي تقدر بنسبة 3% يؤشر عدم تحقيق إلزامية التعليم الابتدائي كاملة، وهذا يعني تخلف 10% من الأطفال عن الالتحاق بالمدارس، وبالتالي ازدياد أعداد المواطنين الأميين في المجتمع.

أما بالنسبة لمرحلة التعليم الثانوي فقد ازدادت أعداد الطلاب الملتحقين لهذه المرحلة، إلا ان النسبة للالتحاق الصافي للمرحلة العمرية للدراسة الثانوية انخفضت الى 44% بعد ان كان 57% للمرحلة العمرية ذاتها، وان الارتفاع الحاصل في أعداد الملتحقين يعود الى زيادة عدد السكان والى عدد المتخرجين من الدراسة الابتدائية.

أما على مستوى التعليم العالي فقد تم إرسال أعداد كبيرة من الطلاب في بعثات للدراسات العليا في مختلف الاختصاصات في جامعات أجنبية في عديد من البلدان، كما حصل ارتفاع في عدد الجامعات والكليات الحكومية والأهلية وكذلك المعاهد العالية، وازدادت تبعا لذلك أعداد المنتسبين لمرحلة التعليم العالي، إلا ان ذلك لم يرافقه إنشاء أبنية جديدة او إضافية للأبنية الموجودة او صيانة متميزة لنوعية الأبنية الجامعية القائمة فتسبب عن ذلك اكتظاظ في الصفوف والقاعات الدراسية والمختبرات والمكتبات وغيرها من المرافق التعليمية وبالتالي هبوط في مستوى جودة التحصيل العلمي. كما ظلت أساليب التعليم على حالتها دون تطور او تغيير أساسي بما يواكب تطور العلوم وأساليب وطرق التعليم الحديثة التي صارت متبعة في معظم جامعات العالم.

لقد شهد التعليم في العراق بجميع مراحله، كما بيّنا، نموا عدديا ملحوظا، إلا ان هذا النمو كان على حساب النوعية والجودة وخاصة في مرحلة التعليم العالي والدراسات العليا والبحث العلمي، فلم تبرز الجامعات العراقية الى المستويات المقبولة عالميا بل لم تتميز حتى على مستويات كثير من الجامعات العربية. وقد كشفت أدلة التعليم – كما جاء في التقرير الوطني لمال التنمية البشرية لعام 2008 – «عن ضعف استجابة النظام التربوي للتحديات

وعدم قدرته على تجاوز مشكلاته وتحقيق غاياته الرئيسية وفشله في تمكين الناس من فرص الوصول الى المعرفة». وجاء في نفس التقرير لتعليل ذلك: «لقد تضافرت مجموعة من المشكلات على تحجيم قدرات النظام التربوي على تمكين الناس بعضها موروثة وبعضها يتعلق بتردي الأوضاع الأمنية». اما ما جاء في تقرير وزارة التخطيط الصادر بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP بعنوان خارطة الحرمان عن مستويات المعيشة لعام 2007، الذي جرت الاشارة اليه سابقا، فيعزو ذلك الى ان «أسباب القصور في مجال التعليم بمجالاته المختلفة الى ان كلا من التمويل الحكومي والمستوى التنفيذي لم يصل الى الحد اللازم من الناحية المالية والتنفيذية والمؤسسية لتصحيح الاختلالات القائمة والمتراكمة منذ عقود». وأضيفُ الى كل ما تقدم سببا أراه هاما لتردي الحالة التعليمية وقصورها عن أداء دورها، هو السياسة الطائفية التي فرضت نفسها أساسا لإدارة الحكم في البلاد وما أفرزته من نظام المحاصصة الطائفية والحزبية الذي غيّب مبدأ المواطنة المتساوية كما غيب عناصر الكفاءة والنزاهة والقدرة على الانجاز فكان وراء اضطراب الحالة الأمنية والضعف في الانجاز وإهدار الأموال العامة وسرقة الكثير منها.. بل وكان وراء معظم الكوارث والمآسي التي عانت منها البلاد ومؤسساتها ومنها المؤسسات التعليمية منذ عام 2003.

وفي ضوء ما تقدم من بيانات وإيضاحات يمكن ان تبين ان حالة التعليم بوضعها الحالي غير مؤهلة لتقوم بدورها المنشود في تحقيق مشروعات لتنمية بشرية مستدامة وانه لا بد من المباشرة بإجراءات إصلاحية تنقلها الى حالة صحية قادرة على أداء دورها.. ولا يمكن تحقيق ذلك ما دامت سياسة المحاصصة الطائفية والحزبية قائمة تفرض نفسها بعيدا عن المعايير العلمية والموضوعية والمصلحة الوطنية.

التوصيات:

لقد قدمت وزارة التخطيط توصيات لإصلاح حالة التعليم الراهنة، في ضوء دراساتها ومسوحاتها الميدانية لجوانبها المختلفة ذات العلاقة بحالة التعليم كالصحة والسكن ومستوى المعيشة التي تشكل كلها أساس عملية التنمية البشرية المستدامة وأهدافها، وعلى وفق رؤيتها بـ «ان مستقبل العراق إنسانا ومجتمعا يعتمد الى حد كبير على نظام تعليمي متطور يرقى الى عالم أصبحت المعرفة فيه رأس مال يتجاوز في خطورته وأهميته رأس المال المادي». وجاء في مقدمة التوصيات: إن برامج النهوض في ميدان التربية والتعليم ومن اجل تحقيق الأهداف التنموية المنشودة فعلى الحكومة وبالتعاون مع شركاء التنمية والجهات الأخرى ان تضع البرامج والسياسات الواقعية لتعزيز إدارة وتقويم الخدمات التعليمية، ثم أدرجت تفاصيل توصياتها والتي جاء فيها:

1. إصلاح المناهج ووسائل التعليم لتطوير المهارات واكتساب المعرفة وممارسة التفكير النقدي والابتعاد عن أسلوب التلقين والحفظ والتكرار المتبعة حاليا.
2. تأمين العدد الكافي من المعلمين والمدرسين والتدريسيين في التعليم العالي المؤهلين والراغبين في ممارسة التعليم بشكل ينسجم مع التطورات العلمية والمعرفية، وأضيف الى ذلك بضرورة توفير بعض الامتيازات المعنوية والمادية لهم بما

يجعل مهنة التعليم مهنة جاذبة للانتساب إليها برغبة جادة.

3. تعزيز دور البحث العلمي.

4. مواجهة النقص في البنى التحتية وتطوير تقنيات العملية التربوية.

5. تشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في قطاع التعليم والتربية وبإشراف الجهات المختصة.

هذا الى جانب توصيات أخرى، وهي على العموم لا تذهب بعيدا عن قرارات وتوصيات مؤتمرات وندوات عديدة عقدت لغرض إصلاح التعليم في العراق بمستوياته المختلفة في مختلف العهود، إلا ان ما يمكن التحفظ عليه هو ما جاء بتوصيات وزارة التخطيط هو دعوتها تشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في قطاع التعليم والتربية وبإشراف الجهات المختصة، أرى انه يجب التوجه للعمل على توفير فرص التعليم لكافة المواطنين من قبل الدولة وكذلك على ضمان تنوع فروع المعرفة فيه وفي جودته ومستواه وعلى وفق مناهج موحدة لجميع المواطنين العراقيين تسهم في تعزيز انتمائهم الوطني ووحدتهم. وقد سار العراق على هذه السياسة التعليمية وكان ناجحا فيها حيث كان خريجو الكليات والدراسة الإعدادية لا يجدون صعوبة في القبول بالجامعات الأجنبية وتحقيق النجاح في التخرج منها. ولم تكن السلطات تمنع المدارس الأهلية ولكن ثقة المواطنين بمستويات المدارس الحكومية كانت تدفع بهم للتوجه الى هذه المدارس.

لقد توسع التعليم الأهلي كثيرا خلال السنوات الأخيرة بسبب ضعف القدرة الاستيعابية للمعاهد الحكومية على اختلاف درجاتها ولتدهور مستواها التعليمي ومن المعلوم ان القطاع الخاص يهدف الى الربح المادي. ولهذا فأن الحصيلة التعليمية من المؤسسات التعليمية كثيرا ما كانت في مختلف أنحاء العالم، ليست بقدر الآمال المرتجاة منها فغالبا ما تتهاوى القيم العلمية والقواعد المنظمة لسير العملية التعليمية والعلمية أمام المصالح الشخصية لتحقيق اكبر قدر ممكن من الأرباح رغم الإشراف الرسمي المفروض ان يمارس عليها.

اشكالية السكن في العراق بين الموروث والواقع والآفاق

إبراهيم المشهداني
باحث اقتصادي

لا يمكن حصر السكن كإشكالية في فترة محددة من التاريخ، او في طبقة اجتماعية بذاتها او فئة او شريحة معينة من المجتمع، او إعادة أسبابها الى مصادر التمويل او السياسات التخطيطية او الاقتصادية التي تتبعها الحكومات تبعا لعقائدها السياسية أو الدينية، وإنما في جوهرها تعود الى مختلف هذه المسميات التي تتداخل مع بعضها بعلاقات عضوية تتفاعل في الاسباب والنتائج. كما لا يمكن عزلها عن العوامل الداخلية والخارجية من حيث الانماط والانعكاسات الديمغرافية والدينية والبيئية والنفسية والمناخية والجغرافية. ان اشكالية تتأثر بكل هذه العوامل المركبة والمعقدة لا يمكن النظر اليها بطريقة تبسيطية وإنما يتعين على الباحث ان يأخذ بالاعتبار كل هذه العوامل في وحدتها وان يغور في اعماقها من اجل الوصول الى استنتاجات ذات معنى وفائدة للجميع حكاما ومحكومين.

السياق التاريخي لتطور العمران

كان الانسان البدائي يلوذ بالكهوف والحفر لتفادي العوامل المناخية من حر وبرد و مخاطر الحيوانات المتوحشة في اوقات نومه وراحته. وهذه الحاجات فرضت عليه التحرك بإرادة قوية للتفاعل الجدلي ضمن الاطار البيئي الذي يعيش فيه في استخدام المادة الخام وتحولاتها من اجل ايجاد المأوى الذي يسكن فيه بصورة مؤقتة او دائمة. فعبر مراحل طويلة من الزمن انتقل من الكهوف الى وحدات سكنية بناها بنفسه سواء كانت خياما مصنوعة من خيوط القطن أو الصوف، او في أكواخ مصنوعة من القصب او البردي أو من جذوع وأغصان الاشجار (كما هو الحال في الصحراء أو الأهوار في جنوب العراق في الوقت الحاضر).

وعند انتقال الانسان من مرحلة جمع قوته بنفسه زادت مستلزمات حياته فاضطر الى بناء الحظائر للحفاظ على دوابه أو مخازن لخزن الفائض الزراعي من اجل تأمين غذائه وبعد ان أنشأ اسرته عمد الى توسيع بيته وبعد زيادة محاصيله الزراعية اضطر في اول الامر الى خزنها في المعابد، وعند تعدد الأسر توسعت المعابد وظهرت القرية وتعمقت العلاقات الاجتماعية تبعا لعلاقات الانتاج، ومع ظهور تقسيم العمل والتخصص ظهرت القرية فظهور المدينة الحضرية. ومع هذه

التحولات بدأت الثورة المعمارية الاولى حيث تجسدت ملامحها التطورية بإقامة القصور والمعابد والمؤسسات المدنية والدينية. ان تراكم الثروة ادى الى ظهور الشكل الاعلى للتطور العمراني فأقيمت المدافن العملاقة وشيدت الاهرامات وأقيمت المزارات في بلاد وادي النيل والمقابر الملكية في بلاد وادي الرافدين وبلاد السند والهند والصين، وانسحبت هذه التطورات الى توسع المدن وتباعدها مما قاد الى تنوع مواد البناء من حجر المرمر والطابوق المزجج والمحلى بصور او نحت بارز، وزينت المعابد والقصور بالدعامات والأعمدة ذات التيجان.

وقد ظهرت الصروح المعمارية مع تطور الحضارة الانسانية وتراكم الثروة حتى سجلت طفرات سريعة في فنون العمارة وأنماطها تبعا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والبيئية وتطور المعارف وتعمق الثقافات.

التراث العمراني التقليدي والمحدث

ان التراث العمراني التقليدي كمصطلح او العمارة الشعبية (popular) يمثل احد المكونات الرئيسية في النشاط الإبداعي للجماعات ذات الخصوصية الثقافية المتميزة وخاصة في البيئات التقليدية. وقد مثل هذا النشاط الجزء الغالب والمكون الاكبر لمعظم النتاج المعماري للجماعات ذات العمق التاريخي، كما كان اصدق تعبيرا وأعمق التصاقا بالخصوصيات والتمايزات الثقافية / الحضارية والأطر الفكرية لهذه المجتمعات. ان تاريخ العمران والعمارة عالميا، ارتكز أساسا على ما أنتج بواسطة المؤسسات المعمارية الرسمية او المعماريين المحترفين قديما والأكاديميين في عصر ما بعد تحول العمارة الى مهنة وظهور المهندس المعماري المصمم.

الفكر الحداثي في العمارة

إن تمكن الفكر الحداثي وسيطرته على معظم بلدان العالم بما فيها المجتمعات التقليدية قد احدث قطيعة مع الماضي وإهمالا متعمدا ورفضا للنشاط الابداعي التقليدي معماريا وفنيا وأدبيا معتمدا بشكل كامل على السيطرة العقلية / العلمية في النشاط التصميمي المعماري. ثم ظهرت مرحلة ما بعد الحداثة (Postmodernism) التي شهدت نظريات ومدارس مختلفة في مجال الهندسة والعمران والتصميم بتطور العلوم الهندسية ودخول التكنولوجيا المتطورة وشيوع استخدامها بفعل تأثيرات العولمة وانعكاساتها.

إشكالية السكن والإسكان في العراق

لم تعد مشكلة السكن في العراق مفردة متداولة في السجالات اليومية التي تدور في اروقة الحكومة ومؤسساتها المتخصصة او في المجالس العائلية او المؤتمرات الوطنية المخصصة لدراسة المشكلة او الجامعات او برامج الاحزاب السياسية او منظمات المجتمع المدني او شعارا مركزيا للحراك الشعبي العام وغيرها من المنتديات العلمية والاقتصادية والدراسات والبحوث المتخصصة. بل وفي ردة فعل لكل ذلك فقد اصبحت قضية دستورية تتحمل الحكومات العراقية كلها مسؤولية تنفيذها ووضع القوانين والتشريعات والخطط اللازمة لتنفيذها على مستوى القطاع الحكومي العام او القطاع الخاص والتعاوني. فقد نصت

المادة 30 / ثانيا من الدستور العراقي لعام 2005 على ما يلي: (تكفل الدولة الضمان الاجتماعي والصحي للعراقيين في حال الشيخوخة او المرض او العجز عن العمل او التشرد او اليتم او البطالة وتعمل على وقايتهم من الجهل والخوف والفاقة وتوفر لهم السكن والمناهج الخاصة لتأهيلهم والعناية بهم وينظم ذلك بقانون). وعلى حين صدر قانون تأمين السكن رقم 7 لسنة 2008 في اقليم كردستان وأقيمت على اساسه مشاريع عديدة للسكن اسهمت بشكل ملموس في حل هذه المشكلة في الاقليم عن طريق الاستثمار فلم يصدر القانون على المستوى الاتحادي ما عدا قانون صندوق الاسكان الذي تنحصر مهمته في اقراض المواطنين لإغراض السكن والسبب في ذلك عجز الحكومة والبرلمان عن اصدار هذا التشريع الهام بسبب الصراعات على المصالح التي شابت العلاقة بين الحكومة والبرلمان حول تحديد الاولويات حيث الاهتمام للكتل المهيمنة كان منصبا على تحقيق اهدافها السياسية حتى تحولت على مدى دورتين للبرلمان الى دوامة كادت تعصف بالعملية السياسية برمتها على قاعدة «انا وليأتي من بعدي الطوفان». وبالرغم من توفر امكانيات مالية كبيرة كانت كافية لإحداث نقلة نوعية تاريخية في كافة المجالات بما فيها قطاع الاسكان فقد دخلت الى ميزانية العراق للفترة بين 2008 – منتصف 2014 ما يزيد على 500 مليار دولار من واردات النفط فقط ولكن بعملية فساد لم يشهد لها تاريخ العراق من قبل فقد تم الاستحواذ على هذه الثروة التي ذهبت بدون وجه حق الى خزائن قيادات الكتل الطائفية المتحكمة بالسياسة العامة والراكبين موجتها من الموالين والانتهازيين، وهذه احدى التحديات الكبرى التي سيجري الحديث عنها لاحقا. ولهذا كانت مشكلة السكن والإسكان مشكلة محورية للمواطن العراقي حددت شكل علاقته بأسرته وعلاقته بمحيطه وعلاقته بوطنه وأثرت على طريقة تفكيره ومستوى ثقافته وحددت موقفه من الدولة باعتبارها الراعية للمواطن وهي الوحيدة التي تمتلك مفاتيح الحل.

التراث التاريخي للعمارة في العراق

عندما نأخذ في الاعتبار العوامل الثقافية والاجتماعية والفلسفية والفيزياوية والاقتصادية في تأثيرها على شكل ومضمون العمارة فلابد من اسقاط هذه العوامل على التراث التاريخي للعمارة في العراق قبل حلول عصر الحداثة وما بعده الذي انعكس بإشكال مختلفة على العمارة العراقية ليكون موضوع السكن في العراق مترابطا من جوانبه المختلفة سعيا لإعطاء صورة جلية للعمارة في العراق. فالعراق يسخر بثروة معمارية عريقة تكونت عبر العصور التي مرت على ارض وادي الرافدين منذ فجر التاريخ فقد ظهر العمران في الفترة الحجرية الحديثة حيث بدأت الزراعة مرورا بالعصر النحاسي حيث ظهرت فيها حضارة العبيد التي خطت خطوات بطيئة في العمارة استدلالا بآثار قرية (المكَيّر) في مدينة اور خاصة في العمارة الخاصة بالمعابد. وظلت قوالب اللبن كانطلاقة لصناعة اللبن من الطين وهي المادة الاساسية طوال عصر ما قبل التاريخ ومن ثم ادخال عنصر الزخرفة في عماراتهم اللبنية، وفي عصر السومريين تم استخدام الطابوق بنطاق واسع وتقدم العمران في مدينة بابل في عهد حمورابي.
ومن جهة اخرى يلاحظ التماثل بين المشيّدات السومرية والبابلية مع وريثتها الاسلامية

العباسية مع ما طرأ من تغير في وسائل وأنظمة التقانة، وبذلك كان العراق والشام ومصر معلمين موهوبين للإغريق والرومان وكذلك الفرس.
وبما ان التسقيف هو غاية العمارة ومقصدها فقد سقف العراقيون بمعين عناصر القوس والقبة والطاق فكان العراقيون رواد اختراع اول مادة بناء وهي الطوب والأجر بالاستفادة من بيئة السهل الرسوبي.
بيد أن العراق، حاله حال الدول الأخرى في العالم المتخلف أو النامي بدا يتأثر بالحداثة العمرانية في الغرب التي رافقت الثورة الصناعية والتطور التقني مما حدا به أن يساير هذه المتغيرات فكان عليه أن يستجيب لمتطلبات البناء الحديث فظهرت الحاجة الى ادخال مواد وأدوات جديدة وذلك باستخدام الاسمنت والحديد والألمنيوم وأنواع جديدة من الزجاج ومن لدائن صناعية وإشكال جديدة من الطابوق الجيري والأسمنتي والثرمستون والجدران جاهزة الصب. وازداد استخدام المكائن والآلات الحديثة، واستخدمت اساليب حديثة في البناء وفق نظم التخطيط العمراني الحديث بما تناسب تطور اساليب النقل، فظهرت عومل جديدة تؤثر في عمليات البناء الحديث ومنها كلف البناء والقدرة الاقتصادية للأفراد والمنظومات العمرانية الحكومية والخاصة وما تبع ذلك من اللجوء الى استخدام الكتل الكونكريتية انعكست سلبيا على الاستخدام الاضطراري لأبنية غير صالحة للسكن من قبل الشرائح الاجتماعية المتوسطة والفقيرة، ساخنة صيفا وباردة شتاء بسبب افتقار جدرانها الى العزل الحراري، كالسابق حيث تكون جدران المنازل من الطين او اللبن المصنوع من الطين، مما أدى إلى نشوء بيئة سكنية لا تطاق لاسيما عندما تقترن بانقطاعات مستمرة للتيار الكهربائي.

التحديات التي تواجه عملية السكن والإسكان في العراق

ان عمليات السكن والإسكان ينهض بها الافراد كما تعتبر من مهمات الدولة المسؤولة عن توفير السكن او متطلباته لرعاياها كواجب دستوري لا يمكن التنصل من ادائه مهما كانت الذرائع والأسباب. وابرز هذه التحديات الفجوة الكبيرة بين المتوفر من الابنية والطلب عليها وهي فجوة كبيرة تستلزم تضافر كافة الجهود المتيسرة لردمها القدرة الشرائية للمواطنين وارتفاع الاسعار في سوق العقارات وارتفاع الايجارات بالإضافة الى ارتفاع اسعار مواد البناء والهجرة الداخلية من الريف الى المدينة وآثارها على ظاهرة البناء العشوائي في المدن وفشل المشاريع الاسكانية السابقة والحالية قيد الانشاء. وسأحاول التوقف عند كل تحد من هذه التحديات.

أولا: الفجوة الكبيرة بين المتوفر من الابنية والطلب عليها:

مشكلة السكن في العراق منذ العهد الملكي حيث ان معدل الزيادة في السكان منذ احصاء عام 1947 كان 3.6% ولهذا قامت الحكومة في ذلك العهد باستدعاء مؤسسة دوسكي عام 1956 لوضع الدراسات والمخططات وفي عام 1975 قامت الحكومة بالتعاقد مع مؤسسة بول سيرفس البولندية لوضع مخطط الاسكان العام. وفي عام 1986 قدمت مجموعة من الباحثين العراقيين دراسة عن السياسة السكنية تم

اعتمادها في استراتيجية التنمية المكانية للفترة من 1988 ولغاية سنة 2000، وأجمعت الدراسة على وجدود عجز سكني قدرته على التوالي (423 ألف وحدة سكنية ، 1.38 مليون وحدة سكنية، 4.2 مليون وحدة سكنية). وتتباين التقديرات الحالية للوحدات السكنية والعجز الاسكاني باختلاف الدراسات والمسوحات الاحصائية الاقتصادية والاجتماعية، فعلى حين قدرت دراسة سوق السكن في العراق في عام 2006 الحاجة الى 1.27 مليون وحدة سكنية في المناطق الحضرية خلال السنوات 2006 – 2016، قدر مسح الحصر والترقيم الذي اجرته وزارة التخطيط عام 2009 بان عدد الوحدات السكنية المطلوبة هو 2.14 مليون وحدة سكنية. وفي حين قدرت خطة التنمية الاقتصادية للأعوام 2010 – 2014 عدد الوحدات السكنية بـ 2.8 مليون وحدة سكنية، أما سياسة الاسكان الوطنية لسنة 2010 فقد قدرت العجز في الوحدات السكنية بحدود مليوني وحدة سكنية في المناطق الحضرية بحلول 2016.

والجدول أدناه (رقم 1) يبين عدد الوحدات السكنية وعدد الاسر ومجموع السكان فيها حسب البيئة لسنة 1997 (الأرقام مأخوذة من التعداد العام للسكان لعام 1997).

جدول رقم (1)

المؤشرات	حضر	ريف	المجموع
مجموع الوحدات السكنية	١٥٤١٨٦٩٧	٦٢١٧٩٧	٢١٤٠٤٩٤
مجموع الاسر	١٧٩٨١٥٣	٦٩٦١٥٤	٢٤٩٤٣٠٧
متوسط حجم الاسرة	١٢٨٥٠٥٨٩	٦٢٣١٩٧٧	١٩٠٨٢٥٦٦

ويشير المسح الاقتصادي والاجتماعي لعام 2008 الى ان 81.3% من السكان في عموم البلاد يسكنون في وحدات سكنية مستقلة وان 11% منهم يسكنون في وحدات سكنية فيها أسرتان وان 7% يسكنون في وحدات سكنية تقطنها ثلاث اسر او اكثر، وطبعا تختلف هذه النسب بين الريف والمدينة. وفي عام 2012 حصل تغير في هذه النسب فقد ارتفعت نسبة الاسر التي تسكن دارا مستقلة الى 87.2% و8.6% من الوحدات السكنية تسكنها أسرتان، فيما 2.8% من الوحدات السكنية تسكنها ثلاث اسر و1.4% تسكنها أربع اسر فأكثر. إن الزيادة في النسب لا تشير الى تحسن في اوضاع الأسر بل الى استقلال الأسر في وحدات سكنية اخرى في الريف.

ثانيا: الهجرة الداخلية

بدأت ظاهرة الهجرة من الريف الى المدينة خلال فترة الخمسينات وذلك بسبب تفاقم قمع الاقطاع ضد الفلاحين من ابتزاز ما ينتجونه بفعل كدهم على مدار السنة

وعدم كفاية ما يردهم من الانتاج للأغراض الضرورية وتفاقم العوز والفاقة وانتشار الامراض مما اضطرهم للبحث عن فرص عمل داخل المدينة لمواجهة شظف العيش وسكنوا في حي الشاكرية في كرادة مريم ومنطقة المنكوبين والوشاش في الكرخ ومنطقة المجزرة (الميزرة) في جانب الرصافة، ومارسوا مختلف الإعمال بين عمال في امانة العاصمة الى ان خصصت لهم اراض في مدينة الثورة من قبل حكومة ثورة 14 تموز فانتقلوا اليها وأسسوا لهم مساكن بعضها من القصب وبعضها من الطين والبعض الاخر من الطابوق ولكن بخرائط بناء بدائية تتناسب مع عاداتهم المتوارثة.

وبعد التغيير في عام 2003 ودخول قوات الاحتلال الى مدينة بغداد تعطلت كافة القوانين والإجراءات السابقة التي كانت تحد من الهجرة والسكن في مدينة بغداد، ودخلت الى العاصمة آلاف العوائل بعضها من استطاع التجاوز على العقارات الشاغرة سواء العائدة الى الدولة او العائدة الى مواطنين تركوها بسبب الظروف الامنية الخطيرة الناشئة بعد الاحتلال والبعض الآخر عائد الى عقارات تابعة الى نقابات او جمعيات او تابعة الى الحزب الحاكم، وآلاف العوائل سكنت في اطراف بغداد في اكواخ او بيوت من الصفيح تفتقر الى ابسط الخدمات البلدية والماء والكهرباء والخدمات الصحية فظهرت احياء عشوائية تشكل قوة ضاغطة على الدولة. وتشير الإحصاءات الرسمية لوزارة التخطيط الى ان عدد المساكن العشوائية على مستوى محافظات البلاد عدا اقليم كردستان بلغ 346.881 مسكن اي بنسبة 7.3% من إجمالي عدد المساكن في العراق التي تقدر بحوالي 4.752 مليون مسكن سجلت محافظة بغداد أعلى نسبة قدرها 33.4% من مجموع المساكن العشوائية تليها مدينة البصرة بنسبة قدرها 13.4% تليها المثنى بنسبة قدرها 4.0%. فيما يبلغ عدد سكان العشوائيات مليونين وأربعمائة إلف نسمة يشكلون 6.9% من مجموع السكان في حين سجلت بغداد النسبة الاعلى والتي بلغت 31.1% تليها البصرة بنسبة 14.1%.

ان الهجرة من الريف الى المدينة والهجرة بسبب الاعمال الارهابية والزيادة المضطردة للسكان والتي تقدر بمعدل وسطي يصل الى 3%، كلها تشكل عوامل ضاغطة على الدولة التي تئن الآن تحت وطأة ازمة اقتصادية مالية لا تستطيع معها تحقيق الارقام التي سبق تقديرها من قبل الجهات الرسمية. ففي دراسة لوزارة السكان في عام 2009 قدرت حاجة البلاد في عام 2015 الى 3.529 مليون وحدة سكنية وبمعدل 504 الف وحدة سكنية سنويا والى 6.806 وحدة سكنية في عام 2030 وبمعدل 425 الف وحدة سكنية سنويا على ان ينفذ القطاع الخاص 85% من الوحدات السكنية والمتبقي تقوم الدولة بتنفيذه وبمعدل 240 وحدة سكنية. ولكن احصاءات وزارة التخطيط تشير إلى أن المنجز من التواضع بمكان بحيث ان المنجز والمخطط يشكل ارقاما متواضعة جدا فقد بلغ عدد دور السكن الجديدة للفترة من 2004 ولغاية 2011، (75513) دارا وان مجموع العمارات السكنية الجديدة بلغ لنفس الفترة 87 عمارة (المصدر: المجموعة الإحصائية لوزارة التخطيط لعدة سنوات) مما يدلل على الازمة من العمق بحيث لا تستطيع الدولة ايجاد حل لهذه الازمة خصوصا وإنها ترافقت مع اعمق ازمة مالية اقتصادية تمر بها البلاد.

ثالثا:مشكلة التمويل

يشكل التمويل التحدي الاكبر لعملية التنمية الاسكانية فمستوى دخول المواطنين واطئة وغير كافية لحل مشكلة السكن للإفراد والأسر وان اسعار الفائدة مرتفعة جدا بالمقارنة مع دخول الافراد كما ان اجراءات منح القروض معقدة جدا كأنما المصارف تبحث عن الامان وليس عن توظيف ايداعاتها المتضخمة والتي بدت وكأنها مصارف تؤدي وظيفة النقود كمخزن للقيمة، بالإضافة الى غياب السياسة الائتمانية التفضيلية. فعلى سبيل المثال فان اسعار الفائدة من المصارف التجارية الحكومية (عدا المصرف العقاري ومصرف الإسكان حيث أسعار الفائدة فيهما 2%) والأهلية بلغت 8% وهو معدل مرتفع جدا، لا يتناسب مع دخل الفرد إذا علمنا ان مدة الاقراض في بعض المصارف تصل الى سنتين فقط مما لا يتناسب مع العمر الفني للمساكن. وإذا علمنا أن القروض الممنوحة اقل بكثير من التكاليف التي يتطلبها البناء، زد على ذلك ان السكن وضمان الخدمات الاساسية فيه يتطلب من الإفراد إنفاق حوالي 24% من إجمالي الإنفاق الاستهلاكي.

مما تقدم فان تفعيل دور المصارف يتطلب بناء سياسات تمويلية لزيادة فرص التمويل من خلال تطوير القطاع التمويلي المصرفي وإنشاء نظام تمويل متطور لتمكين الإفراد من شراء الوحدات السكنية مباشرة أو القيام بعملية البناء بأنفسهم بما يتناسب مع نظم التطوير العمراني والنافذة. ولابد للدولة قبل ذلك القيام بدراسات تهدف إلى التعرف على إبعاد القصور في التمويل التي يعاني منها قطاع الإسكان وتقدير العجز الذي يحصل في عدد الوحدات السكنية وعدد القروض العقارية التي يمنحها المصرف العقاري وصندوق الإسكان وتحسين أسلوب الإقراض بعيدا عن الأساليب التقليدية عبر خطة إسكانية كجزء من الإستراتيجية الاقتصادية بمعناها الأشمل.

إن مصادر التمويل في سوق السكن في العراق تتكون من الجمعيات التعاونية والمصرف العقاري وصندوق الأعمار والإسكان بالإضافة إلى المصارف التجارية ومعظمها يفتقر إلى استراتيجية تمويلية بعيدة المدى حيث بلغ معدل الائتمان إلى إجمالي الناتج المحلي 10% قياسا بالمعدل الإقليمي الذي يبلغ 55%. فقد تم استحداث الجمعيات التعاونية الإسكانية على أساس المهنة وكانت فترة الستينات والسبعينات من القرن المنصرم الأكثر انتعاشا لهذه الجمعيات حيث نجحت والى حد كبير في توفير الأراضي السكنية للعاملين في أجهزة الدولة وكان الظهير لهذه الجمعيات هو بنك التسليف التعاوني ومهمته إقراض وتسليف الجمعيات المذكورة ، وقد وصل عددها إلى 172 جمعية في بغداد ومن ثم إنشاء المصرف التعاوني الإسكاني ليحل محل بنك التسليف التعاوني.

أما المصرف العقاري فقد انيطت به عدة وظائف أساسية منها تمويل بناء السكن ففي فترة الستينات من القرن الماضي كان الحد الأعلى للقروض بين 1000 دينار و 2000 دينار وكانت هذه المبالغ كافية لإنشاء وحدة سكنية مناسبة لتكاليف البناء السائدة في سوق السكن في ذلك الوقت ولكنها ازدادت في فترة السبعينات حيث ارتفع القرض الى 5000 دينار وأصبح في الثمانينات 6000 دينار وذلك بالنظر الى زيادة تكاليف البناء من حيث المواد والعمل بسبب زيادة الطلب عليها نتيجة لزيادة الموارد النفطية مما احدث انتعاشا في الحياة الاقتصادية. ولحد عام 2008 ساهم المصرف ببناء ما يزيد عن

8600 وحدة سكنية ومجموع القروض كانت 172 مليار دينار. ولأجل تطوير قطاع تمويل الإسكان وقطاع العقارات فقد تم إنشاء صندوق الإسكان وتم تفعيل آلية الإقراض من قبل الصندوق. فقد كانت الزيادة في القرض قد وصلت الى 18 – 25 مليون دينار في مراكز المحافظات إما في مراكز الاقضية والنواحي فقد وصل القرض الى 7 – 8 مليون دينار وهذه الزيادة ناشئة بالأساس لانخفاض قيمة الدينار إزاء الدولار الأمريكي وهذه المستويات من القروض غير كافية لإنشاء الوحدات السكنية إذا ما قيست بمستوى تكاليف البناء من حيث البناء والعمل. بيد إن هذه القروض تمنح بشروط تفضلية فيها قدر من الايجابية تتمثل بتقليص خدمة المقترض من 7 الى 5 سنوات ومعدل الفائدة من 6% الى 2% واعتماد إضافة البناء بمساحة 65 م2 بنفس آلية التشييد للوحدة السكنية وبعد صدور قانون صندوق الإسكان العراقي والغرض منه إقراض المواطنين والشركات العمرانية بقروض دون فوائد وإعفاء القروض الممنوحة للصندوق من الضرائب والرسوم، إلا إن دور هذا الصندوق لا يزال دون مستوى الطموح بسبب الأزمة المالية وكان منتظرا من هذا الصندوق إن يسهم في حل إشكالية السكن في العراق والتخفيف من وطأتها على المواطن العراقي.

جدول رقم 2

الناتج المحلي الإجمالي في العراق ومساهمة قطاع التشييد للفترة 2006 – 2011.

السنة	الناتج المحلي الإجمالي ١	ناتج قطاع التشييد ٢	نسبة ١/٢
٢٠٠٦	٤٧٨٥١،٤	١٥٧٨،٥	٣.٣
٢٠٠٧	٤٨٥١٠،٦	١٦٠٧،٩	٣.٣
٢٠٠٨	٥١٧١٦،٦	١٦٧٧،٥	٣.٢
٢٠٠٩	٥٤٧٢٠،٨	١٧٨٥،٧	٣،٣
٢٠١٠	٥٨٤٩٥،٩	٢٧٩٩،٥	١.٩٩
٢٠١١	٦٤٠٨١،٧	٣٥٦٥،٣	٥.٦

المصدر: المجموعة الإحصائية 2012 – 2013 الحسابات القومية، ص 3

من الجدول أعلاه يتضح بجلاء إن نسبة مساهمة قطاع التشييد إلى الناتج المحلي الإجمالي متدنية جدا ومتذبذبة ومن الممكن الاستنتاج. إن سبب هذا الانخفاض يرجع إلى عدة أسباب ومن أبرزها قلة الأراضي التي تتوفر فيها الخدمات البلدية والكهرباء والماء وقلة الأراضي داخل المدن او انعدامها بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف البناء قياسا بمستوى مداخيل المواطنين وغياب السياسات الإسكانية الواضحة.

الاستنتاجات والمعالجات

تضح مما تقدم إن الإشكالية الأساسية في أزمة السكن ترتبط بالسياسة الإسكانية التي تتبعها الدولة والتي تنطلق أساسا من رؤية الدولة في النظر إلى كافة القطاعات وتحديد الأولويات وأي القطاعات يمكن التركيز عليه. وهذه السياسة تستند الى عدة محاور، الأول يتمثل بشكل النظام القائم والمحور الثاني يتعلق بالقوانين والتشريعات الصادرة والتي ينبغي تشريعها لحل الأزمات القائمة من حيث الملكية والتمويل والتنظيم والتوزيع والحيازة يضاف إليها إيجاد المؤسسات المتخصصة في مجال السكن كجمعيات الإسكان والمصارف المتخصصة ومؤسسات البناء والمؤسسات الخدمية المرتبطة بالسكن يضاف لها شكل السياسة المالية ودورها في تفعيل قطاع الإسكان وتنظيم سوقه عبر الدعم والإعانات والضرائب. ويمكن توضيح هذه المحاور بالنقاط التالية:

• في ظل شكل النظام السياسي القائم لا يمكن توقع حل أزمة السكن بمضمونه الاجتماعي بسبب طبيعة الصراع بين الكتل المتنفذة، الدائر حول السلطة والقرار والاستحواذ على الثروة. ولا يمكن تصور رسم سياسة إسكان كجزء من إستراتيجية تنموية مستدامة في ظل هذا الصراع ما لم يجر إصلاح حقيقي لهذا النظام وتخليصه من قواعد المحاصصة الطائفية الاثنية والتحول الى دولة مدنية يكون الدور الفاعل للقانون والعدالة الاجتماعية والاعتماد على مؤسسات يديرها متخصصون أكفاء وجهاز تنفيذي منحاز للشعب وليس إلى حزب او كتلة بعينها.

• تحقيق توازن سكني بين مختلف المحافظات وفق خطط تأخذ في الاعتبار معالجة الفجوات في مستوى السكن بين المحافظات بما يفضي الى استقرار ديموغرافي يحقق هجرة معاكسة من اجل تخفيف الضغط على بغداد العاصمة وغيرها من المدن كالبصرة، التي تدفق إليها السكان من الأرياف او المحافظات الأخرى بهدف توفير الخدمات.

• إتباع سياسة إسكانية تجمع بين مشاريع إسكانية تمولها الدولة للفئات واطئة الدخل والتركيز على بناء المجمعات السكنية بالنمط العمودي وتفعيل دور القطاع الخاص في انجاز هذه السياسة الإسكانية بالاعتماد على التمويل الحكومي والمصارف الأهلية ذات الطبيعة الاستثمارية وإعادة النظر في بناء الجهاز المصرفي بعيدا عن المضاربات والاقتصار على التمويل التجاري بل الانتقال الى قطاع الاستثمار .

• إيجاد حلول واقعية تأخذ الجدية في التنفيذ خصوصا في مجال قطاعات الإنشاء الذي يجب إن يكون له دور في الإنتاج المحلي الإجمالي. وهذا يتطلب إعداد دراسات هندسية مستفيضة ومسح شامل وتحديد الأماكن المناسب للبناء وتوفير الخدمات الضرورية اللازمة لتلك المشاريع من ماء ومجار وكهرباء وخدمات لوجستية

وتوفير الكادر الهندسي المحلي والأجنبي القادر على تحديد المواصفات التكنولوجية اللازمة في التصميم بالإضافة الى توفير مواد البناء عالية الجودة كالاسمنت والحديد من اجل إدامة هذه المباني ومقاومتها للظروف البيئية والطبيعية .

• العمل على تفعيل مشاريع صناعة المواد الأساسية للبناء كالأسمنت والطابوق والحديد وغيرها وتحقيق الاكتفاء الذاتي من هذه المواد بما يؤدي الى الكف عن الاستيراد الخارجي المهرب للعملة الصعبة واعتماد نظام إدارة الجودة الايزو وتأهيل مصنع الحديد والصلب وإدخال التكنولوجيا في مصانع الطابوق بما يتلاءم مع الظروف البيئية المناسبة والالتزام بالاتفاقات الدولية وآخرها مؤتمر باريس وتفعيل قطاع الاستثمار في هذا الجانب وتنفيذ قانون الاستثمار رقم 13 لسنة 2006 المعدل.

• وحيث إن أزمة السكن أصبحت أكثر تعقيدا بسبب الخراب الواسع الذي طال المدن التي دخلها الإرهاب والإعمال العسكرية التي خاضها الجيش العراقي والقوى المساندة له لغرض إخراج الإرهاب منها واستعادتها مما تسببت بتدمير الجزء الأكبر منها، بعضها طال التخريب 80% من مبانيها، لذلك لابد من وضع خطط استثنائية لإعادة أعمارها في ظل أزمة مالية خانقة مما يستدعي البحث عن مصادر تمويل أخرى ودعوة المجتمع الدولي للمساهمة في هذه العملية وتنظيم مؤتمرات خاصة بها على غرار مؤتمرات عمان ومدريد ودبي للدول المانحة بعد احتلال العراق في عام 2003 .

• معالجة مشكلة العشوائيات التي تفاقمت بعد 2003 نتيجة للهجرة السكانية من المحافظات وغياب القوانين والإجراءات المقيدة لهذه الهجرة بسبب الانفلات الأمني وسيطرة الكثير من هذه العوائل على الأبنية الحكومية والخاصة بالإضافة الى السكن في إطراف مدينة بغداد وغيرها من المحافظات مما أدى الى خلق أزمة سكن وأزمة خدمات مما يتطلب وضع خطط مستقبلية تتفاعل مع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية وقيام السلطة التشريعية بإصدار القوانين والقرارات التي تعالج المشكلة من جذورها بوضع البرامج الضرورية لدمجها في المجتمعات المدينية والاستفادة من ميزانيات الإدارات المحلية في إقامة المجمعات السكنية متعددة الطوابق الجاهزة التركيب باستعمال الحديد السابق الجهد والهياكل الخرسانية المسلحة السابقة الصنع وذلك لسرعة التنفيذ واستيعاب اكبر عدد ممكن من العوائل التي لا تملك سكنا ويتطلب ذلك الاستفادة من المساحات المتوفرة لإنشاء دوائر خدمية ومراكز صحية ودوائر بلدية ومراكز شرطة ومدارس وملاعب رياضية وحدائق ومر ائب (كراجات) سيارات.

• التخطيط لإنشاء مجمعات سكنية (قرى عصرية) في الريف باستخدام مواد البناء محلية تتلاءم مع البيئة المحلية كونها تشمل العديد من المميزات المهمة ومنها قلة التكاليف مع استمرار التراث الحضاري المعزز للثقافة الحضرية وقدرة هذه النماذج على مقاومتها للظروف المناخية بصورة أفضل بالإضافة الى عدم حاجتها الى تقنيات عالية او معدات باهظة الثمن.

• معالجة مشكلة التمويل التي تمثل اكبر التحديات التي تواجه مشكلة السكن عن طريق إيجاد مخارج واقعية لتوفير السيولة النقدية للإقراض وهذه العملية تتم من خلال قروض طويلة الأجل يمنحها المصرف العقاري تمتد لمدة 30 عاما

وقروض الرهن العقاري وتشمل القروض متوسطة الأجل وقصيرة الأجل بالإضافة الى الإعفاءات الضريبية لشراء المساكن او استئجارها او تشييدها او ترميمها ومثل هذه السياسات تنعكس على تحرير القطاع المصرفي من قيود التمويل اي اعتماد مصارف الرهن العقاري على أسواق المال الدولية وعدم الاقتصار على المدخرات الوطنية على طريق تحويل السكن من سلطة اجتماعية الى سلطة استرتيجية. وإضافة لما تقدم يتعين تفعيل دور صندوق الإسكان الذي سيكون لقانون الصندوق اكبر الأثر في معالجة أزمة السكن وخاصة للطبقة الوسطى.

مصادر البحث:

1. كامل علاوي كاظم، محمود حسين المرسومي، حسن لطيف الزبيدي، الإسكان والأمن الإنساني في العراق، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والاجتماعية، السنة الحادية عشرة، المجلد العاشر (2015)، ص 90 – 100.
2. أزمة السكن في العراق، متاح على الانترنيت.
3. د سلمان جاسم المعموري، أميرة جليل احمد، العمارة والمجتمع، جامعة بابل، كلية الهندسة– قسم الهندسة المعمارية.
4. د. محمد غالي راهي، دور الائتمان المصرفي في تمويل السكن في العراق، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والاجتماعية، السنة الحادية عشرة، المجلد العاشر (2015)، ص 179 – 201.
5. المهندس فائق جمعة المنديل (اعداد)، سياسات التخطيط العمراني ودورها في التنمية المستدامة والشاملة للمجتمعات العربية. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://www.mushahed.net/vb/showthread.php?t=13178&langid=1
6. مجلة التخطيط والتنمية، مجلة علمية متخصصة محكمة يصدرها معهد التخطيط الحضري والإقليمي الدراسات العليا التابع لجامعة بغداد، العدد الثاني والعشرون السنة الخامسة عشرة 2010.
7. وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء، إطلاق نتائج المسح الشامل للعشوائيات. متاح على الانترنيت على الرابط التالي: http://www.cosit.gov.iq/ar/random–household

ماذا يعني استقلال القضاء؟

المحامي هاتف الاعرجي
باحث قانوني

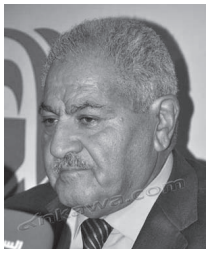

اذا كان استقلال القضاء يعتبر نتيجة طبيعية لمبدأ الفصل بين السلطات، ولوجوب اعتبار القضاء سلطة، فانه يعتبر ايضاً شرطاً ضرورياً لسلامة تطبيق القانون، وكفالة الحرية الفردية. وهذا الاستقلال امر تفرضه طبيعة القضاء ويمليه العمل القضائي ذاته.

ويعني استقلال القضاء تحرره من اي رقابة من جانب سلطات الدولة الاخرى وعدم خضوعه لغير سلطات القانون. فالقضاء وان كان احدى سلطات الدولة، فانه ملزم بتطبيق القانون القائم، لا ان يرسم طريقا للعدالة غير ما يتضمنه هذا القانون من قواعد معلنة. واستقلال القضاء امر حرصت عليه الدساتير ومنها دستور العراق الحديث اذ ورد النص عليه، على ان السلطة القضائية مستقلة وتتولاها المحاكم باختلاف انواعها ودرجاتها، وتصدر احكامها وفقا للقانون. وان القضاء مستقل عن السلطة التشريعية والتنفيذية. وأكدت المؤتمرات الدولية ومنها مؤتمر مونتريال 1983 ذلك، اذ اعتمد المندوبون الاعلان العالمي لاستقلال العدل والذي اكد على ان تكون السلطة القضائية مستقلة عن السلطتين التنفيذية والتشريعية، وتكون للسلطة القضائية الولاية مباشرة، او عن طريق اعادة النظر على جميع القضايا ذات الطابع القضائي. ولا يكون للسلطة التنفيذية اي رقابة على الوظائف القضائية او وقف العمل في المحاكم او تعليقه.

وفي المؤتمر الثاني لاتحاد الحقوقيين العرب المنعقد في عمان في نيسان 1985 اصدر المؤتمر الاعلان العربي لاستقلال القضاء والذي اكد على أن: « القضاة مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم غير القانون ولا يجوز لأي سلطة التدخل في شؤون العدالة او تعطيل تنفيذ احكام القضاة».

ورغم ذلك فان النص على استقلال القضاء كسلطة لا يكفي بذاته، لتأكيد هذا الاستقلال ما لم تتوفر ضمانات جدية تكفل للقضاة الاستقلال الحقيقي وتعتبر عناصر لازمة لاستقلال القضاء. فالقاضي الذي يكون امر تعيينه او عزله او نقله او تأديبه بيد سلطات غير قضائية هو قاضٍ ليس بمستقل.

اختيار القضاة

اذا كان الهدف من تحديد الاسلوب الامثل في اختيار القضاة هو الحرص على كفالة استقلال القاضي وحياده في تطبيق القانون ومن ثم ضمان استقلال القضاة كسلطة فان التشريعات المقارنة في تحديدها لطريقة اختيار القضاة ليست على نمط واحد. فقد يكون اختيار القاضي بالانتخاب وقد تقوم السلطة التشريعية باختياره او تتولى السلطة التنفيذية تعيينه.

اختيار القضاة بطريق الانتخاب المباشر:

اتجهت بعض الدول الى اختيار القضاة عن طريق الانتخاب المباشر، اعتقادا منها بانها افضل طريقة لضمان استقلال القضاء، واكثر تعبيرا عن ارادة الامة، مصدر السلطات في اختيار قضاتها.
وقد اخذت بهذه الطريقة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يتم اختيار القضاة في معظم الولايات عن طريق الانتخاب وكذلك سويسرا بالنسبة لقضاة المقاطعات والاتحاد السوفيتي السابق لنسبة لقضاة المحاكم الشعبية.
وهذه الطريقة لا تخلو من عيوب كثيرة، اهمها اقحام القضاة في ميدان السياسة. فالقاضي المرشح يظل متأثراً بالفكر السياسي للحزب الذي رشحه، مما ينفي عنه الحياد المطلوب في القضاء، اضافة الى ان انتخابه قد لا يرجع الى كفاءته بقدر ما يرجع الى لونه السياسي . وقد كان هذا الاسلوب محل رضا اللجنة الرابعة للمؤتمر الدولي لرجال القانون المنعقد في نيودلهي عام 1959 لما ينطوي عليه من اخطار تهدد استقلال القضاء ما لم تتحدد قائمة المرشحين بعيدا عن الصراع السياسي.

الانتخاب من قبل السلطة التشريعية

يمكن العثور على تطبيقات لهذه الطريقة في اربع ولايات امريكية كما طبقت فترة في سوريا بالنسبة لأعضاء المحكمة العليا المنشأة بدستور 1950 و 1953، حيث كان اختيار قضاتها بواسطة السلطة التشريعية من بين قائمة تتضمن ضعف العدد، يبعث بها رئيس الجمهورية الى السلطة التشريعية. وكان يأخذ بهذه الطريقة ايضا الاتحاد السوفيتي السابق بالنسبة لقضاة المحكمة العليا وقضاة المحاكم الخاصة، حيث تنص المادة (105) من الدستور السوفيتي على ان تنتخب المحكمة العليا للاتحاد السوفيتي من قبل السوفيت الاعلى لمدة خمس سنوات، ويدخل فيها رؤساء المحاكم العليا للجمهوريات المتحدة بحكم وظيفتهم. ويؤخذ على هذه الطريقة، انها تجعل القضاة في قبضة السلطة التشريعية الامر الذي يهدد استقلالهم.

التعيين من قبل السلطة التنفيذية

ويرى البعض ان هذه الطريقة لا تتنافى مع استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية لأن التشريع يحدد الشروط التي يتعين على الاخيرة ان تراعيها في تعيين القاضي، وتقرر حصانة للقضاة ضد العزل. وتأخذ بهذه الطريقة بلجيكا حيث يسمي الملك قضاة محكمة التمييز بناء على قائمة يعدها مجلس الشيوخ وقضاة محاكم الاستئناف ورؤساء المحاكم الابتدائية ونوابهم من قائمة يعدها المجلس البلدي ويعين مباشرة باقي القضاة. وتتولى السلطة التنفيذية في انكلترا تعيين القضاة وتختلف أداة التعيين باختلاف مستوى المحاكم. فهي الملكة او رئيس الوزراء او وزير العدل حسب الاحوال وتأخذ بهذه الطريقة كذلك الولايات المتحدة الامريكية في النظام الاتحادي وفي جميع الولايات بالنسبة للقضاة الذي يخلفون القضاة المتوفين او الذين يكملون مدة انتخابهم. ويعد هذا الاسلوب قاعدة عامة في عشر ولايات أمريكية، وهو المبدأ العام في تعيين القضاة في النظام القانوني العراقي سابقاً. ويعيب هذا الاسلوب انه يفتح الباب امام تدخل السلطة التنفيذية في شؤون القضاء طالما ان تعيين هؤلاء يتم على يديها.

التعيين من قبل السلطة التنفيذية بالتعاون مع القضاء

لجأت معظم التشريعات الى انشاء مجلس او هيئة تشكل من قضاة او اغلبية قضائية، تتولى ادارة شؤون القضاة من تعيين او نقل وترقية وانتداب وعزل، وغير ذلك من الامور الخاصة بالسلطة القضائية. ونطاق سلطات هذه الهيئة يختلف من دولة الى اخرى. وقد اخذت بهذه الطريقة سوريا في المادة (71) من قانون السلطة القضائية. وفي فرنسا يتم تعيين القضاة والمستشارين بقرار من رئيس الجمهورية بعد اخذ رأي مجلس القضاء الأعلى، أو باقتراح من هذا المجلس بالنسبة لمستشاري محكمة النقض. وكانت هذه الطريقة موضع اهتمام وعناية مؤتمر دلهي عام 1959، اذ جاء في توصياته: «ان تعيين القضاة من السلطة التنفيذية او التشريعية او القضائية منفردة، ينطوي على اخطار». ويلاحظ في البلاد التي تكون فيها شخصية القضاة ودرجة استقلالهم محل رضا على العموم انه يوجد بحكم القانون او العرف نوع من التعاون او التشاور الذي يقوم فعلا بالتعيينات.

وجاء في توصيات المؤتمر العربي الثامن للدفاع الاجتماعي الذي عقد في الرباط عام 1977: (ان يكون اختيار القضاة الجنائيين المتهنين بناء على رأي السلطة القضائية ممثلة في مجلس القضاء المشكل من كبار رجال القضاء).

وجاء في توصيات المؤتمر ايضاً ما يلي: احاطة الاجراءات الماسة بحريات الافراد بالضمانات القانونية وجعلها تحت رقابة السلطة القضائية وإعطاء حق التظلم من الحبس الاحتياطي للمتهم. ولا رقابة امام السلطة القضائية.

ولضمان استقلال القضاء نرى ما يلي:

1 – عدم امكانية عزل القضاة على غير رغبة منهم، وفي غير الاحوال الاستثنائية التي تنص عليها التشريعات المقارنة وهي انهاء الخدمة بالطريق الانضباطي، وفي حالة العجز عن القيام بالعمل.

2 – ان يتم تعيين القضاة وان تدار شؤونهم من قبل مجلس اعلى للقضاء ينتخب اعضاؤه من بين كبار رجال القضاء.

3 – حظر مباشرة أي اجراء يمس بالحرية الشخصية في مواجهة القاضي، في غير الجريمة المشهودة، وبعد اذن من مجلس القضاء الاعلى.

4 – وجوب ان تكون محاكمة القاضي امام هيئة جزاء مختصة في محكمة التمييز، او حسب ما ينسبه مجلس القضاء الاعلى.

المصادر

(1) «الحقوقي العربي»، العدد 5 – 6 – 7 – لسنة 1985، ص 89.
(2) د. احمد فتحي سرور، «الشرعية والاجراءات الجنائية» (القاهرة: دار النهضة العربية، 1977)، ص 69.
(3) د. فاروق الكيلاني، «استقلال القضاء» (القاهرة: دار النهضة العربية، 1977)، ص 126.
(4) د. احمد فتحي سرور، المرجع السابق، ص 170.
(5) القاضي نصرت مندلا حيدر، « استقلال السلطة القضائية»، مجلة المحامين السورية، العدد 7 السنة 42 – 1977، ص125.
(6) انظر المادة 106 من الدستور السوفيتي لسنة 1977 فيما يتعلق بانتخاب المحاكم العليا للجمهوريات المتحدة والمادة 107 منه، بالنسبة لانتخاب محاكم الاقاليم والمقاطعات ومحاكم المقاطعات ذات الحكم الذاتي– ومحاكم الدوائر في المقاطعات ذات الحكم الذاتي.
(7) د. فاروق الكيلاني، مرجع سابق، ص 129.
(8) د. فاروق الكيلاني، مرجع سابق، ص 130.
(9) القاضي نصرت مندلا حيدر– مرجع سابق، ص115.
(10) اولوية الحق – نظرية جديدة في الحقوق– مجلة الحق العدد 36 ، عام 1970، ص30.
(11) المادة 47 من قانون التنظيم القضائي رقم 160 لسنة 1979.

الديمقراطية والطبقة العاملة

إعداد وتلخيص: فيصل لعيبي صاحي
فنان تشكيلي

هذه المادة، هي، محاولة لتتبع نشوء الديمقراطية بالمفهوم الحديث لها، وعلاقة الطبقة العاملة بها، وليس سبر تاريخها، الذي يعتبره العديد من المؤرخين والكتّاب السياسيين والباحثين الإجتماعيين، ممتداً الى ماقبل المدن اليونانية. فالمقال يعني بالمفهوم المعاصر للديمقراطية وتتبع خطواتها التي جعلتها قائمة وواضحة المعالم في عصرنا الحالي.

يرى العديد من الكتّاب ان الرأسمالية كنظام اقتصادي والبرجوازية كطبقة، هي صاحبة الفضل في نشوء الديمقراطية، لكن فحصاً دقيقاً وموضوعية محايدة ستظهر لنا حقائق أخرى ونتائج مختلفة لصيرورتها، صحيح أن الديمقراطية قد نشأت في عصر الرأسمالية ولكن هذا لا يعني ان الرأسمالية هي من خلقها.

في عام 1951 أصدرت اليونسكو تقريراً يؤكد على : « أنه لأول مرة في تاريخ العالم لايروج لمفاهيم معادية للديمقراطية، ويؤكد معظم ممارسو السياسة والمنظرون لها، على أن مبدأ الديمقراطية موجود في المؤسسات التي يدافعون عنها والنظريات التي يدعون لها»*. ومع ان الحقوق المدنية لم تكتمل في الولايات المتحدة، إلا في ستينيات القرن الماضي، لكن الأمريكان ومنذ نشوء دولتهم يكررون القول وبلجاجة مفرطة، كونهم اول دولة ديمقراطية في العالم وكونهم أول شعب ديمقراطي في تاريخ البشرية، وقد ذكر المؤرخ غوردون وود: « غالباً ما يفكر الأمريكان بالديمقراطية، كما يفكرون بالكوكا كولا، "بإعتبارها إنتاج امريكي بحت وهم من نشرها في المعمورة. وهذا طبعاً جزء من (الإيديولوجيا الأمريكية). ويستند العديد من الكتّاب على كتاب المحامي الفرنسي ألكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville (الديمقراطية في امريكا) مع ان توكفيل هذا قد" حذّر من الخلط بين ما هو ديمقراطي وما هو امريكي بحت. وهو يرى أن الديمقراطية، ليست مجرد إجراء الانتخابات فقط او التصويت على المرشحين، حيث أنها تقوم على المساواة في الشروط أيضاً، ولأن امريكا لم تعرف البروليتاريا الحقيقية ولا المزارعين المستأجرين مبكراً، يمكن في رأيه اعتبار امريكا ديمقراطية ولكنه يحددها "في المناطق التي لم تعرف الرق".

هناك تراث متراكم حول هذه الإشكالية ومنذ زمن الفدراليين الأمريكان الأوائل امثال ماديسون وهاملتون وهو متواصل حتى

يومنا هذا مع أمثال صاموئيل هنتنغتون، صاحب كتاب (صراع الحضارات) الذي يعتبر من أبطال (الموجة الثالثة) الداعين لمقرطة العالم. لكن السؤال هو: لماذا نرى صعود الديمقراطية السياسية، يرافقه هجوم على الديمقراطية الاجتماعية وتفكيك القطاع العام التابع للدولة وشبكات التأمين الاجتماعي ودعم الأسعار والخصخصة المستشرية في عموم المؤسسات والأماكن التي تملكها الدولة؟

كان جوزيف شومبيير قد وصف الديمقراطية السياسية بـ «سوق حرّة للأصوات»، فهي ليست الدولة التي يحكم فيها الشعب ولا يوجد فيها مساواة في الشروط، بل هي «الدولة التي تتنافس فيها النخب على الأصوات في سوق الإنتخابات». وهذا ما يجعلها مناسبة لقوانين السوق الرأسمالية ويوهم البعض في نسبتها لها.

ما الذي تعنيه الديمقراطية إذن ؟

هل هي اسم لنمط من النظم السياسية ؟

الحقيقة أن الديمقراطية، هي، الحركة الإجتماعية الواسعة، التي ناضلت ولا تزال من اجل المؤسسات الديمقراطية للدولة والمجتمع المدني، ولكنها تواجه مصاعب لاتعد ولا تحصى في كل خطوة تخطوها الى الأمام، وكان لإسم الديمقراطية من عشرينات وحتى خمسينات القرن التاسع عشر معنى مختلفاً تماماً لما نقصده الآن بالديمقراطية، فقد كانت وصفاً للتعساء والمحرومين، كما يذكر محرر (مجلة ويستمنستر – The Westminster R-view) الكاتب توماس بيرونيه عام 1842، وهذا ما كان يقصده توكفيل أيضاً فهو يتساءل: «هل من المعقول ان الديمقراطية التي دمّرت النظام الإقطاعي وقهرت الملوك، سوف تحترم المواطن والرأسمالي؟». وقد ناقش جون ستيوارت مل John Stuart Mill كتاب توكفيل المذكور سابقاً مقارناً الوضع البريطاني، بالقول: «ان الطبقة الوسطى في هذا البلد (إنكلترا) معرضة لخطر إقتلاعها بقوة الديمقراطية من أسفل بالقدر الضئيل المماثل لخطر الحؤول دون صعودها من قبل الأرستقراطية من الأعلى». وكان قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية قد حدد اول تاريخ لاستخدام لفظ الديمقراطية، بالمعني الذي ذكرته أعلاه في عام 1828 وهناك تطابق في المفهوم الذي يعني الإحتقار والتعاسة في ألمانيا وفرنسا كذلك. فقد كتبت وقتها جريدة التايمس اللندنية عن كومونة باريس للتنديد بها قائلةً: «الإنفعالات الخطيرة التي تثيرها» الديمقراطية «هذه المؤامرة على الحضارة في مدينة تدعي عاصمتها».

كان القرن الثامن عشر نادراً ما يستخدم لفظ «الديمقراطية» بالمعنى الإيجابي، حيث ندد بها مفكرون وكتّاب ومؤرخون عديدون، ومن ضمنهم «الدستوريون الأمريكيون»، وكان هناك قلة من الرجال المستعدين لتحمل لقب ديمقراطي، فهي لفظة، تعني الاحتقار والضعة وحتى الخسة في كثير من الأحيان في الأدب السياسي آنذاك، و مع ذلك، لم تك الديمقراطية شعاراً للبحارة ولا للخدم أو الفلاحين الذين جُردوا من أراضيهم ولا لأصحاب الجرائم والسجناء أو الذين أصبحوا صيداً سهلاً لتجار الرقيق، في فترة التراكم البدائي للرأسمالية فيما وراء الأطلسي.

لقد بدأ لفظ «الديمقراطية» يأخذ معناه الإيجابي مع اليعاقبة أثناء الثورة الفرنسية عام 1789 وبهذا استعاد معناه الحقيقي – حكم الشعب لنفسه – وسرت عدوى هذا الفهم نحو الولايات المتحدة

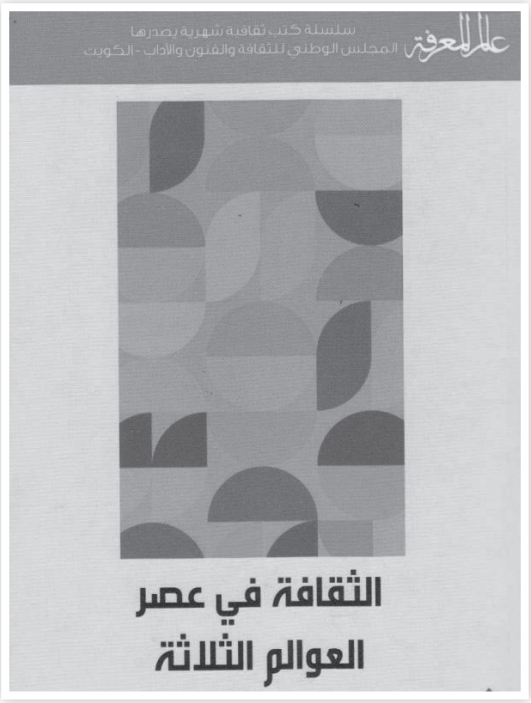

الأمريكية وبريطانيا العظمى بعد ذلك، لكن حروب نابليون وما جرّته من ويلات على أوروبا، جعل مفهومها الإيجابي يتراجع قليلاً عن معناه مجدداً.

كانت ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر موعداً لولادة الحركات الاجتماعية الحديثة، مثل الحركة العمّالية وحركة إلغاء الرق، والمطالبة بالحريات العامة وحقوق المرأة ومعاداة الاستعمار، فالحركة الاشتراكية ومن بعدها الشيوعية، فصعد نجم مفهوم الديمقراطية مجدداً واخذ الجميع يتباهى بحمله مرة اخرى. إن ثورتي 1848 في فرنسا وألمانيا تمثلان ذروة استخدام المفهوم الثوري للديمقراطية. وكان (الميثاقيون البريطانيون) وهم اكبر حركة عمالية في اوروبا والعالم آنذاك، قد اعتبروا الديمقراطية كـ (حركة شعبية)، فدخلت في صحافتهم وكتاباتهم ومنشوراتهم المختلفة. وفي هذه الفترة بالذات ظهر (البيان الشيوعي) الذي كتباه كارل ماركس وفردريك أنجلز وقد تبنيا الديمقراطية كما فعل الميثاقيون الإنكليز وقتها، وفي فترة الثورة الألمانية وضع ماركس وأنجلز صفة ثانوية لصحيفتهم

الرينانية الجديدة هي: «لسان حال الديمقراطية»، وكانت إتصالاتهم مع قادة الديمقراطية الثوريين في اوروبا قد سمحت لهما بالتحدث باسم جميع الديمقراطيين في القارة وحتى أمريكا. فتأسست (جمعية الأخوة الديمقراطية)، وأصبحت لفظة «الديمقراطية» مرادفة للحركة الاجتماعية العمّالية الحديثة، وشهدت تلك الأيام المظاهرات والمسيرات الكبرى والحشود والإضرابات وتوزيع المناشير والكتب والصحف الثورية، مع الدعوة للفكرة الثورية الجديدة التي ولّدتها الحركة العمّالية بالذات.

بعد هزيمة الثورتين في كلٍ من فرنسا وألمانيا، تراجع المفهوم مرة اخرى عن معناه الإيجابي، وظهر الفصل بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الإجتماعية وصدر قانون العبد الآبق – العاق – في امريكا (Fugitive Slave Law).

وصار هناك تمايز بين (الديمقراطية البرجوازية) و (الديمقراطية الشعبية)، وقد كتب مايك والش في نيويورك تايمس وقتها، قائلاً : «ما من رجل بقادر ان يكون ديمقراطياً سياسياً حقيقياً دون ان يكون ديمقراطياً إجتماعياً حقيقياً». وفي عام 1851 صرّحَ رئيس الوزراء البريطاني اللورد جون راسل قائلاً: «إن ديمقراطية البلاد (إنجلترا) لها من الحق العادل في التمتع بحقوقها، ما للأمراء والنبلاء» وهو يقصد الطبقة الوسطى (البرجوازية الصناعية والتجارية) طبعاً، فسخر منه ماركس، وقد كان لاجئاً في بريطانيا قائلاً: « بإعتبارها – ديمقراطية – تحب الملك وتخدم اللوردات وتحافظ على الأسقف». والجدير بالذكر ان جميع الذين دافعوا عن الديمقراطية آنذاك لم يعرفوا الدولة البرلمانية الديمقراطية الحقيقية، التي تقوم على حق الإقتراع العام لكافة أبناء الشعب، لأنها ببساطة لم تكن قائمة. فكان ظهور شكلها الجنيني مرتبطاً بمنتصف القرن التاسع عشر، او النصف الثاني منه بالتحديد.

ما هي العلاقة بين الديمقراطية والدولة البرلمانية؟

الدولة الديمقراطية البرلمانية، هي دولة حديثة العهد، تعتمد على مدى اتساع حق الاقتراع العام وسلمية تبادل السلطة ديمقراطياً بواسطة الانتخابات وتعترف بوجود المعارضة وحقها في التعبير عن رأيها.

إن القول بأن البرجوازية هي من خلقت الديمقراطية، يتنافى مع الحقائق التاريخية التي ذُكِرَتْ، لكنها قد ساعدت على مولد الطبقة البروليتاريا، لأنها كانت ولا تزال في حاجة لهذه الطبقة من اجل الإنتاج المنظم والكبير والعابر للحدود معاً. فإن أردنا الدقة، فلا الطبقة الوسطى ولا البرجوازية في أوروبا، بل الطبقة العاملة، هي من كانت القوة الدافعة للحركة الديمقراطية في العالم اجمع، وهذا ينطبق أيضاً على حركة الطبقة العاملة العراقية وحزبها الثوري، الحزب الشيوعي العراقي، الذي كان الرائد لمثل هذه المفاهيم والمنظم والقائد للحركة النقابية والمهنية والمنظمات الجماهيرية الديمقراطية ، ونظرة منصفة لتاريخ هذا الحزب والطبقة العاملة العراقية، ستعطينا سِفْراً مجيداً في سبيل تحقيق الديمقراطية في العراق منذ إضرابات عمال الداكير في البصرة عام 1918، زمن الإحتلال البريطاني للعراق، أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى ومن ثم

تأسيس الحركة النقابية العمّالية وحزبها الثوري.

هذا الربط بين الديمقراطية والطبقة العاملة، يفسر لنا الكثير من الجوانب التاريخية والنظرية للديمقراطية ،لأن هذه الطبقة كانت ولا تزال في حاجة لمزيد من الديمقراطية لنيل حقوقها، وهي صاحبة المصلحة في توسيعها، وشواهد التاريخ تظهر درجة إتساع وتاثير الفكر الديمقراطي بقدر درجة قوة الحركة العمّالية في هذا البلد او ذاك. وكانت نجاحات الأممية الثانية نابعة من قوة الحركة العمّالية الإشتراكية وليس من تساهل الرأسمالية وسماحتها أو ديمقراطيتها. وهذا ما يفسر فشل الطبقة العمّالية في العالم الثالث عموماً من فرض الديمقراطية، بسبب ضعف بنيتها وقوة النظم المستبدة التي تعتمد على العنف والقوى القديمة والمحافظة والرأسمال العالمي المعوّق الرئيسي لتطور تلك البلدان نحو الديمقراطية والبرلمانية الحقيقيتين.

ان تاريخ البرجوازية يشير الى مواقفها المعادية لتطلعات شعوبها. وقد تساءل وهو محق الكاتب بيري أندرسون قائلاً : «ما لنا لم نشهد انتقالا برلمانياً نحو الاشتراكية، بينما شهدنا انتقالا برلمانياً نحو الفاشية والنازية ؟».

إن الأمثلة على دور الحركة العمّالية ونمو الديمقراطية أكثر من ان تحصى. لننظر الى دور نقابة (تضامن) في بولونيا ودورها في تحطيم دكتاتورية الحزب الواحد ودعوتها الى مقرطة البلد وحرية التعبير والتغيير السلمي للسلطة السياسية، ودور النقابات العمالية السوداء في جنوب افريقيا وفي البرازيل وعمال كوريا الجنوبية في التسعينات من القرن الماضي وكذلك فإن موجات الإحتجاجات والمظاهرات والإضرابات العمّالية، التي عمت اوروبا وامريكا، في زمن تاتشر وريغان، لاتزال طرية في الذاكرة، ولاتزال تهديدات الطبقة العمالية تقظ مضجع الرأسماليين حتى الآن. كل هذا يؤكد دور الطبقة العاملة في فرض الديمقراطية من اجل الدفاع عن حقوقها وحماية مكاسبها التي انتزعتها انتزاعاً من السلطات الرأسمالية والرجعية، في مختلف بقاع العالم.

ففي الوقت الذي يرى صاموئيل هنتنغتون، ان امريكا هي الدولة الوحيدة التي عرفت الديمقراطية ويعطي لها تاريخاً يعود الى عام 1828، بسبب حق الاقتراع العام للرجل الأبيض فقط وقتها، نجد ثيربون يرى ان الولايات المتحدة هي آخر دولة ديمقراطية في العالم الرأسمالي ويضع عام 1977 كتاريخ لتطبيقها للديمقراطية بسبب حق الاقتراع العام ونيل الحقوق المدنية للملونين فيها. كما اننا نعرف دور الرأسماليين في تصديهم ومنع حصول العمال على حقوقهم المشروعة، وكيف يستخدمون كاسري الإضرابات ويخربون نضالات العمّال بمختلف الطرق. وقد كان حتى حق تشكيل الجمعيات والنوادي الخاصة بالمهنيين في الشركات والمؤسسات الكبرى في الولايات المتحدة، ممنوعاً منعاً باتاً، ويتعرض من يقوم بذلك للطرد والفصل النهائي من العمل، بينما لا يعاقب القانون الأمريكي، الرأسماليين الذين يقومون بطرد العمال من شركاتهم بدون سبب حقيقي او لسبب واه أو يخرقون قوانين العمل هناك.

لقد كانت الديمقراطية في امريكا من نتائج مؤتمرات الطبقة العاملة وتنظيمها الذاتي، في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، ومن خلال مؤتمرات العمال الصناعيين (سي آي أو)، وكذلك حركة

الأمريكيين السود ودعاة الحقوق المدنية ومعارضي الحرب في فيتنام ، في الخمسينات والستينات من القرن الماضي.

يمكن اخذ تجربة ولاية (كيرالا) الهندية كمثال على ما أقول، فقد استطاع الحزب الشيوعي الهندي هناك من خلال الطبقة العاملة من تنظيم الاقتصاد فيها بدقة عالية جعلتها في مقدمة الولايات الهندية بل نموذجاً يتخطى القارة الهندية الى ما حولها وربما معظم دول آسيا، من حيث النجاح الذي احرزته في هذا الجانب، إذ اجبرت حكومة الولاية على إتباع خطة توزيع تنموية إستراتيجية، تقوم على إعادة تنظيم سوق العمل ودفع الأجور للقطاعين الريفي وغير الرسمي كما قامت بتوسيع وإصلاح الزراعة على نطاق عموم الهند بنجاح وهي تتفوق على الولايات الهندية من حيث مستوى دخل الفرد ومعيشته، وذلك لأن الطبقة العاملة كانت قوية هناك، مع وجود الحزب الشيوعي الهندي النشط.

لقد ساهمت نضالات الطبقة العاملة في كل مكان في المزيد من الديمقراطية، لم يشهدها العالم سابقاً وقاومت كل محاولات الرأسماليين التي تريد إلحاق الهزيمة بالإنجازات والنجاحات العمّالية العالمية.

إن حق الاقتراع العام والضمانات الاجتماعية وحقوق المتقاعدين والعجزة وذوي الدخل المحدود والبطالة والصحة والعطل والإجازات وحقوق المرأة والطفولة والقوميات والأثنيات المختلفة وحتى حق الطلاق والإنجاب والحمل والإجهاض وغيرها الكثير، كلها لم تكن لولا نضال هذه الطبقة العاملة المجيدة والتي أصبحت ولا تزال شبحاً يطارد الرأسمالية الى جانب القوى الحيّة الأخرى داخل المجتمعات المختلفة.

---

* جميع الاستشهادات التي بين مزدوجين والمعلومات الموجودة في هذه المادة، هي من كتاب: ميكائيل دينغ، الثقافة في عصر العوالم الثلاثة، ترجمة أسامة الغزولي، سلسلة عالم المعرفة (401) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، حزيران/2013).

قراءة في أسباب العجز العربي ومقومات الإصلاح

تأليف مجموعة من الباحثين
عرض: د.محمد سيف الإسلام بوفلاقـــة
جامعة عنابة/ الجزائر

لطالما انشغل الكثير من الباحثين، والدارسين بأسباب العجز العربي، وبحثوا في دراساتهم عن مقومات الإصلاح، فتطرقوا إلى جملة من القضايا التي تتصل بالاقتصاد، والتنمية، والحرية، والديمقراطية.

وفي كتاب: «قراءة في أسباب العجز العربي ومقومات الإصلاح» الصادر حديثاً عن الدار الأهلية للنشر والتوزيع بالأردن عام 2012، نجد مجموعة من الأبحاث العميقة التي كتبها نخبة من المفكرين المتميزين، من بينهم رونالد كوز؛ الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد، والتي تسعى إلى الإحاطة بأسباب العجز العربي، وتبحث بجدية عن مقومات الإصلاح.

يصف الدكتور نوح الهرموزي هذا الكتاب القيم في تقديمه له، بأنه كتاب «يحاور أكثر من ظاهرة من الظواهر، والعلل التي تعتري العالم العربي، حواراً حقيقياً يتأسس على تكاملية المقاربات المتراوحة بين عوالم الاقتصاد، والعلوم السياسية، والسوسيولوجيا. كما يتميز بقراءات مبيأة وليدة المنطقة المدروسة؛ باعتبار معظم الباحثين الذين ساهموا بأبحاثهم خرجوا من رحم الثقافة العربية، ومن الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ما يجعل أهل مكة أدرى بشعابها كما ورد في الأثر. بيد أن شرط الانتماء المجالي هذا لم يُسقطهم في فخ الذاتية ليصير عائقاً معرفياً. بقدر ما كان حافزاً لهم للانتباه، وتوخي الحذر، والاحتراز الإبستمولوجي، فشرط الانتماء لديهم شرط مؤسس، وليس بشرط للفهم، والتفسير» (ص:8).

الاقتصاد والتنمية

في مستهل الكتاب قدم الدكتور أحمد مفيد؛ الأستاذ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس، قراءة في شروط النهضة العربية،افتتحها بالإشارة إلى أنه على الرغم من توفر العالم العربي على موقع جيو استراتيجي مهم، وعلى الرغم من وفرة وكثرة الموارد الطبيعية التي يتوفر عليها، إلا أنه أصبح لا يتسع إلى أهله، ولا يستطيع مسايرة جيرانه، ولا يستفيد من تجارب غيره، فكل مناطق العالم تتحرك،وتتطور، وإن بأشكال متفاوتة، إلا العالم العربي الذي يعرف وضعية شبه جمود.

يرى د.أحمد مفيد أن أول شرط هو تنمية الإنسان، فينبغي أن ينطلق أولاً من الإنسان، الذي يتوجب ضمان حقوقه، والرفع من قدراته ومؤهلاته وكفاءاته من خلال إصلاح برامج، ومناهج التعليم، والنهوض بالبحث العلمي، وتشجيع مراكز الدراسات والأبحاث، وتعزيز الحق في الثقافة.

وإضافة إلى ضرورة النهوض بالإنسان العربي، فإن من شروط النهضة اللازمة تحقيق إصلاحات اقتصادية حقيقية، ومحاربة مظاهر التعصب الديني، والقيام بثورات ثقافية على شاكلة ما عرفته أوروبا خلال عصر النهضة، ومع فلاسفة الأنوار، ورواد نظريات العقد الاجتماعي.

رصد الدكتور تيمور كوران؛ الأستاذ في علوم الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا«أسباب تخلف الشرق الأوسط اقتصادياً»، وتحدث عن الآليات التاريخية للركود المؤسساتي، وقدم الدكتور نوح الهرموزي؛ الأستاذ بجامعة ابن طفيل في القنيطرة «قراءة لنظريات المساواة والعدالة الاجتماعية»، وخلص في قراءته إلى أن السياسات التوزيعية التي تزعم تحقيق العدالة الاجتماعية تؤثر بطريقة سلبية، ومباشرة على التنمية الاقتصادية، وتعطي للسياسيين، ولجهاز الدولة صلاحيات واسعة للتدخل في الحياة الاقتصادية،والتلاعب بالأموال العامة،كما أنها تشجع على التملص الضريبي،والتواكل،وتحد من المحفزات التي تعتبر الحجر الأساس لتطور الأمم.

وتحت عنوان: «البقاء للأصغر الدور الجديد للدول الصغيرة في النظام العالمي»، قدم الباحث اليمني محمد سيف حيدر جملة من الأطروحات عن الدولة الصغيرة بين المقاربة التقليدية، وتغير مفهوم القوة، وخصص الدكتور رونالد كوز؛ أستاذ الاقتصاد في جامعة شيكاغو، والحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد دراسته للحديث عن«الاقتصاد المؤسساتي الجديد»، حيث قدم أطروحات جديدة تناول فيها مشكلات تتعلق باقتصاد التيار السائد الذي أصبح يميل بصورة متزايدة مع مرور الزمن نحو التجريد،وهو في الواقع لا يقيم وزناً كبيراً لما يحدث في عالم الواقع.

وفي المقال الأخير من هذا القسم تحدث الدكتور محمد الدعمي؛ وهو أستاذ محاضر في جامعة أريزونا عن«متلازمات الفقر»، حيث قدم مجموعة من الأفكار الهامة، ومن بين ما أكد عليه هو أن حكومات الدول الغنية تبدو غير جادة في انتشال الدول الفقيرة من بين فكي الفقر، ويُرجع سبب هذا الأمر إلى أن أقلية الأغنياء الذين يمتلكون السطوة، والقوة الاقتصادية، والعسكرية، لن يسمحوا بظهور منافسين جدد من الدول الفقيرة التي تتجاوز كبواتها.

الحرية والديمقراطية

في المحور الثاني من الكتاب، نجد الدراسة الأولى للدكتور نبيل علي صالح؛ وهو مهندس وكاتب سوري، وقد ناقش في دراسته موضوع: «الحرية والديمقراطية كآلية للحكم المؤسساتي في الدولة العربية الحديثة»، حيث قام بطرح جملة من الأسئلة من بينها: هل حققت القيادات العربية التغيير الموعود الذي تبنته ورعته في كثيرٍ من خطاباتها وبرامجها النظرية؟ وأصلاً هل تمتلك القاعدة الفكرية والعملية النوعية التي تؤهلها للاستفادة المتوازنة من الموارد الطبيعية والبشرية المتعددة والكبيرة التي لا تزال موجودة في بلدانها؟ ثم لماذا يتم دائماً، في داخل مجتمعنا الديني والسياسي العربي والإسلامي عموماً، التركيز على أهمية الأشخاص والرموز، وإغفال دور الشعوب والكتل البشرية الحيوية؟ ألا تعطينا التجارب التاريخية التي عاشتها أمتنا مع حكامها، وأنظمتها الماضية، دلائل قاطعة على استحالة الرهان على حكم الفرد، ونهج الشخص، والاعتماد

الكلي على مواهبه الذاتية (الخارقة)، واعتباره خشبة الإنقاذ، وصاحب المشروع الخلاصي؟

ويذهب الباحث نبيل علي صالح إلى أن هناك ضرورة عملية لتحكيم حركة الحوار العقلاني في مجتمعاتنا العربية المتوترة، وتأصيل قيم التسامح، والاعتراف بالآخر، وتحمل بعضنا البعض بالصورة التي تحقق العدالة للجميع، دون إقصاء، أو إلغاء لطرف على حساب آخر.

عالج الدكتور محمد عز الدين الصندوق؛ وهو أستاذ زائر في جامعة سري بالمملكة المتحدة، في دراسته إشكالية:«الحرية وتأثيرها في التطور العلمي في الحضارة العربية-الإسلامية»، وقد نبه في مستهل دراسته إلى أن النشاط العلمي هو واحد من الأنشطة الفكرية العالية،والمعقدة،والتي لا تظهر إلا في المجتمعات المتطورة،والتي يمكن أن تقدم، أو توفر للنشاط العلمي والفكري مستلزماته،وما يتميز به هذا النشاط هو أنه في حاجة إلى بناء اجتماعي يوفر الحرية الفكرية للباحث، والمستلزمات المادية لعمله،ولذلك فبروز هذا النشاط في أي مجتمع يدل على توفر ما يلي من مؤشرات:

1 – الحرية الفكرية في التساؤل، والتحليل، والطرح.

2 – حرية الحصول على المعلومة من مصادر مختلفة.

3 – احترام الرأي الآخر وحرية النقاش.

4 – القبول الاجتماعي لهذا النشاط واحترامه.

5 – وجود مؤسسات متخصصة تهتم بهذا النشاط.

6 – توفر الإمكانيات المالية، والمادية للعمل العلمي.

7 – المردود المالي الجيد للمهنة العلمية.

وقد قدم الدكتور محمد عز الدين الصندوق مجموعة من الأفكار عن الحرية، ومن بين أبرز النقاط التي لفتت انتباهه في دراسته:

1 – إن الحرية الفكرية تعد عاملاً أساسياً في بناء النهضة العلمية لأي مجتمع.

2 – في الحضارة العربية-الإسلامية، يتبين أن النهضة العلمية سبقت القيود الفكرية الإسلامية، قيود فرضها الفكر الديني، وليس التعاليم الدينية، وهذه القيود أخذت دورها الاجتماعي في الكبح الفكري، وفي هذه الحضارة الحرية العلمية سبقت محاكم التفتيش بالظهور.

3 – لقد ظهرت مرحلة النكوص العلمي الأولى في حدود عام: 850م تقريباً (عهد المتوكل العباسي)،وتجلت المرحلة الثانية في القرن الحادي عشر.

4 – إن الحضارة العربية سبقت الحضارة الغربية بسبعة قرون تقريباً، ولكنها تراجعت بعد 150سنة، تقريباً من بدايتها، ليبدأ هبوطها بعد ثلاثة قرون من ولادتها.

5 – نتيجة الارتباط السياسي تم تشجيع المجتمع (بصورة مباشرة أو غير مباشرة) على دعم السلطة السياسية بالدراسات الدينية والفقهية، وهذا ما قاد–كما يرى الباحث – إلى الابتعاد عن النشاط العلمي اجتماعياً.

6 – في الحضارة الغربية ما وقع هو العكس، حيث سبقت القيود النهضة العلمية، ولكن بتحجيم القيود أخذ العلم مساره الطبيعي.

7 – بداية الهبوط الحضاري العلمي كانت في حدود عام:1000م، وما زالت مستمرة بالمقارنة بالإنجازات العلمية للحضارة الغربية.

8 – التطور الحضاري يكون شاملاً، وليس انتقائياً، فهو يشمل جميع جوانب الحياة إيجابية كانت،أو سلبية،لأن مسألة السلبية والإيجابية قضية نسبية،والنسبية شرط من شروط الحرية التي هي أساس البناء الحضاري، وهذا ما ظهر في العصر الذهبي للحضارة العربية، ونجده الآن في الغرب.

تطرق الباحث معاذ الأشهبي؛ وهو باحث يمني،إلى موضوع: «خطاب الديمقراطية العربية: تناقضاته وأساطيره»، بينما كرس الباحث محمد محفوظ؛وهو كاتب سعودي، ومدير عام مركز آفاق للدراسات والأبحاث، مقاله للتركيز على قضايا: «الإصلاح السياسي وقضايا المواطنة»، ومن أبرز النقاط التي أكد عليها أن العدالة في مجالات الحياة المختلفة، هي سبيل إنجاز مفهوم المواطنة في الواقع الاجتماعي، وذلك لأن المواطنة لا تعني التجاوز المادي والجغرافي، وإنما هي بناء نفسي، وروحي، وثقافي يتجاوز كل عوامل التناحر، والتباغض، والشكوك المتبادلة. وهذا التطلع لا يتسنى له التحقق إلا بالعدالة السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، فلا يمكن أن تتحقق المواطنة دون عدالة، ومساواة.

كما أشار الباحث محمد محفوظ إلى أن الوحدة الوطنية في ظل الظروف،والتحديات الكبرى التي تواجه الواقع السياسي العربي هي واحدة من الضرورات التاريخية التي ينبغي أن نوليها الأهمية القصوى،ومن الخطإ التعامل مع هذا المفهوم بعيداً عن ضرورة الإصلاح، وإعادة صياغة هذه الوحدة بما ينسجم مع قيم العدالة، والحرية، والتسامح. فالوحدة الوطنية التي لا تحترم حقوق الإنسان،وخصوصيات التنوع الثقافي المتوفر في المجتمع، لا تستند على قاعدة صلبة ومتينة.

ويقرر الدكتور محمد محفوظ في ختام دراسته أن الاستقرار السياسي والمجتمعي في المجالين العربي، والإسلامي بحاجة إلى توفر العناصر التالية:

1 – المواطنة التي تمارس دورها في الشأن العام بدون خوف، أو تردد.

2 – مؤسسات المجتمع المدني، التي تأخذ على عاتقها استيعاب طاقات المجتمع، وتبلور كفاءاته، وقدراته، وتساهم في معالجة المشكلات التي يمر بها المجتمع.

3 – الدولة المدنية التي تجسد إرادة المواطنين جميعاً، ولا تميز بينهم.

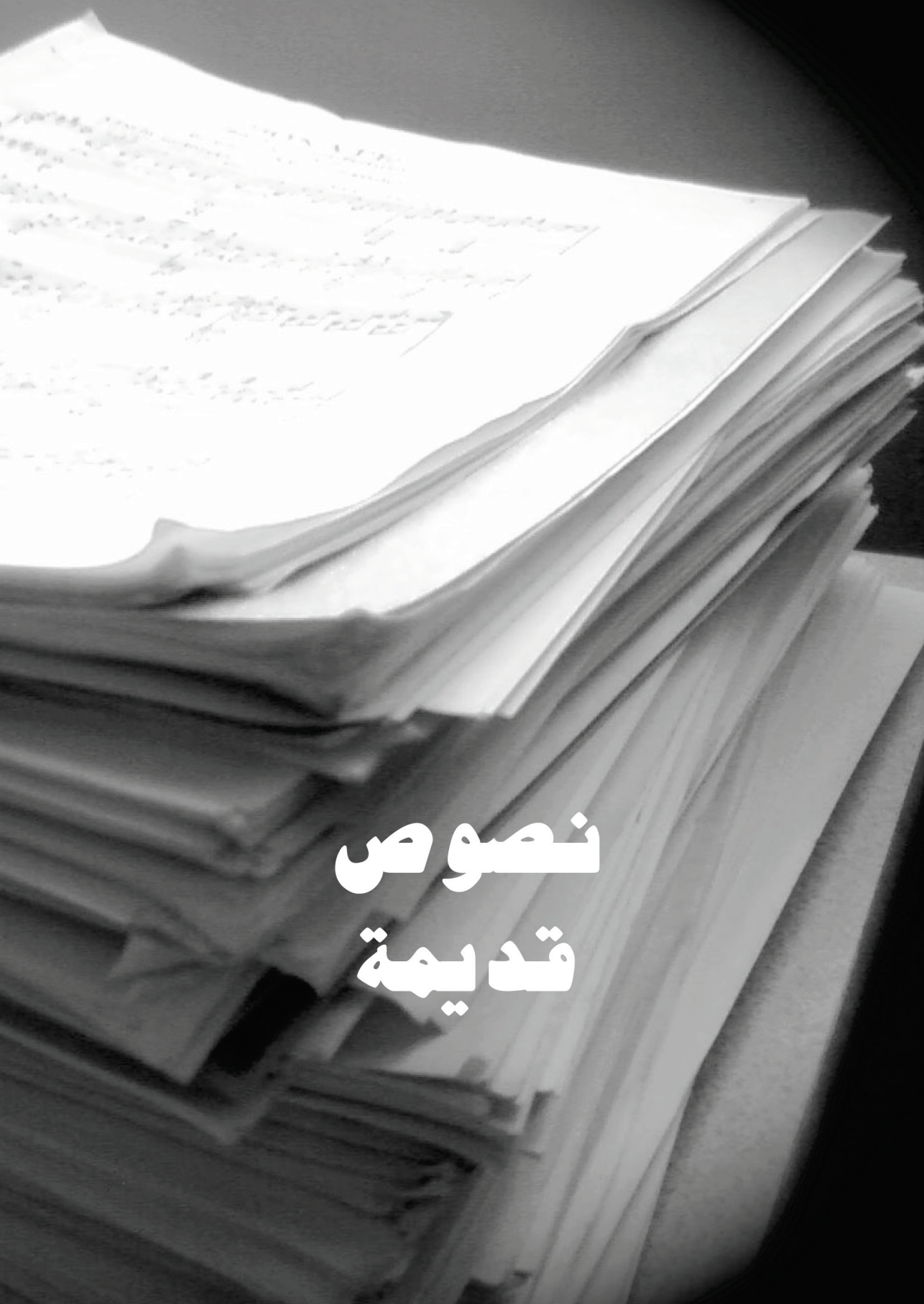

نصوص قديمة

منذ مدة تزيد على الاربعين عاما كتب الراحل الدكتور صفاء الحافظ موضوعا بعنوان: "آراء في اصلاح الاجهزة القضائية في العراق"، وقد نشر الموضوع في (مجلة القضاء) التي تصدرها نقابة المحامين في العدد المزدوج الأول والثاني/1972 – السنة السابعة والعشرون. ورغم مرور مدة طويلة نسبيا على نشر الموضوع ولكون ظروف العراق آنذاك ليست بذات ظروف اليوم، ولكون الراحل شخصية قانونية لامعة، ومتمكنا من ادواته الحرفية والمعرفية وعقليته المتنورة التي تستطيع سبر اغوار المستقبل، فقد وجدنا الكثير من الآراء المطروحة حينئذ ما زالت محتفظة ببريقها الى يومنا هذا، وتصلح لان تكون مادة لتطوير القضاء في ايامنا الراهنة. ووجدنا من المناسب ان تسجل الملاحظات السريعة الآتية:

اولا – قبل الدخول في موضوع القضاء، فللراحل وجهة نظره في التصدي للقوانين الفاسدة التي انتجتها اليد الممسكة بزمام السلطة والمشرعنة اصلا لحماية تلك السلطة، وكيف يكون العمل لمواجهة ذلك من اجل الوصول الى تشريعات منحازة لصالح المواطنين توضع تحت يد السلطة القضائية بغية اصدار الاحكام العادلة وإنصاف المظلومين. فالراحل ليس مع الدعوات التي تطالب بخرق القوانين الفاسدة او تعطيل قواعدها القانونية، لأن ذلك من وجهة نظره يجعل السلطة متمسكة بمبدأ المشروعية، وتسهل عليها اتهام الساعين للخرق بانتهاك القوانين التي تنظم عمل الدولة ومرافقها العامة، ولانتهاك القوانين احكاما منها الجانب العقابي، فهو اذن ليس مع السعي لاختراق تلك القوانين.

وهذا التوجه من قبله لا يعني الاستكانة او التسليم للتشريعات الفاسدة والرضوخ لها، بل يدعو وبطريقة حضارية ومن منطلق (مبدأ المشروعية) ذاته – وليس الشرعية الثورية – الى مراقبة ممارسة الحكم في حدود القواعد القانونية المعلنة، ومراقبة الافعال في ضوء الاحكام القانونية القائمة، والعمل الجاد على الغاء تلك التشريعات كلا او جزءا، او باستبدالها بتشريعات اخرى اكثر ملاءمة لمصالح الناس، ومن دون اللجوء الى خرقها او تعطيل اية قاعدة قانونية لكون العمل الاخير يؤدي الى انقطاع العلاقة بين القاعدة القانونية والنشاط العام ويمس مبدأ المشروعية في الصميم، ويفتح الباب واسعا للسلطات الحاكمة للعبث بمبدأ المشروعية ذاته مما ينتج عنه ضررا حالا ومباشرا وغير مباشر بمصالح المواطنين.

ثانيا – ان الراحل شخّص بدقة الخلل والعيوب التي يعاني منها القضاء ومنها ضعفه، إذ ان ضعف القضاء يجعله عرضة للانتهاك من قبل الآخرين وينال من استقلاله ومن ثم يهز ثقة المواطن به، مما يدفعه لطرق ابواب اخرى لانصافه بدلا من القضاء، وبهذه النتيجة يحيلنا القضاء الضعيف في مرحلة ما قبل الدولة.

فإذا اردنا ان يكون القضاء اداة مضمونة وسهلة يتمكن المواطن من خلاله الوصول الى العدالة فيجب والحالة هذه – كأحد الشروط – ان يكون لدينا قضاة اكفاء يتمتعون بالاستقلال وان يكون لديهم التراكم المعرفي لشتى انواع المعارف فضلا عن الوعي القانوني المطلوب، وذلك من خلال اعداد القاضي اعدادا مهنيا قبل جلوسه على كرسي القضاء وعلى وفق الآليات المعروفة للتأهيل.

ان الاجهزة القضائية يجب ان تكون مؤهلة لحسم الدعاوى ومن دون مواعيد بطيئة ومتراخية، اذ يقال ان اطالة امد النزاع في المحاكم تعني حقا ضائعا. وقد شخص الراحل هذا الخلل في القضاء والاجهزة القضائية واقترح الحلول الناجعة لذلك. وبهذا التشخيص يكون الراحل قد سبق الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) الذي توصل الى النتيجة ذاتها عام 2000، فعند حلول عام 2000 دعا الرئيس الفرنسي، مجموعة من القضاة الى قصر الاليزيه لحفلة شاي وفي اثناء ذلك قال لضيوفه (نحن ندخل قرنا جديدا، اتمنى فيه للمواطن الفرنسي الذي يولج باب القضاء، ان يتمكن من الحصول على حقوقه باقصر وقت وباقل التكاليف).

ثالثا – انتقد الراحل د.صفاء الحافظ الطريقة المتبعة في المحاكم في حفظ المستندات ومحاضر الضبط بواسطة الاضابير وبالطريقة الورقية الموروثة من العهد العثماني، اذ ان الاستمرار فيها يعرض حقوق اطراف الدعوى الى الضياع في حالة فقدان احد المستندات المثبتة للحقوق، او فقدان احد المحاضر المثبت فيه اقرار الخصم. وبوعي مبكر طلب تحديث هذا الجانب في عمل المحاكم وكما هو معمول به في الدول المتقدمة، وذلك باستعمال الاجهزة الالكترونية فضلا عن لزوم ان يكون لكل قاض جهاز الكتروني يزوده بالمعلومات مع قاعدة تشريعات تتضمن كل التشريعات الصادرة خلال عمر الدولة العراقية. والملفت للنظر ان الاسلوب الورقي المشار اليه اعلاه ما زال هو الغالب في عمل المحاكم الى يومنا هذا، مع التغيير البسيط الذي لا ينسجم وثورة المعلومات.

رابعا – بيّن البحث عدم وجود قضاء اداري يصلح ان يكون نظيرا للقضاء الاداري في فرنسا ومصر، وان التطبيقات الموجودة لدي مجلس انضباط موظفي الدولة لا ترقى الى المستوى المطلوب للقضاء الاداري. وقد اقترح د.الحافظ حلولا لهذا الموضوع مع اقتراح تأسيس مجلس الدولة اسوة ببقية الدول. وما يثير الانتباه بقاء الحال كما هو عليه الى يومنا هذا رغم صرامة النص الدستوري الوارد في المادة 101 من الدستور؛ اذ ان محكمة القضاء الاداري والهيئة التمييزية في مجلس شورى الدولة لم تحز الشروط المطلوبة للقضاء الاداري لارتباطها بالسلطة التنفيذية (وزارة العدل).

وبذلك تكون فاقدة لسلطة اصدار الاحكام بشكل مستقل.

هذه ملاحظات سريعة عما جاء بهذا الموضوع المهم. ولسنا راغبين في تسطير المزيد من الملاحظات، وذلك لكي نفسح للقارئ الكريم والمختص على وجه الخصوص متعة قراءته وتسجيل ملاحظاته في موضوع ملح، شكل احد متطلبات الحراك الجماهيري في ايامنا هذه.

هادي عزيز علي
قاض وباحث قانوني

آراء في اصلاح الاجهزة القضائية في العراق

الدكتور صفاء الحافظ

لقد اعارت الحركة التقدمية في العراق، خلال تطورها المستقل، اهتماما كافيا لمعالجة العديد من القضايا العامة في بلادنا. ومن البديهي ان ينصب جل اهتمامها على بلورة برامج واضحة في المجالين السياسي والاقتصادي، ولكنها مع ذلك حاولت صياغة برامج أولية في حقول التربية والتعليم والثقافة... الخ الا ان من المؤسف لم يحظ جهاز القضاء باهتمام الكتاب التقدميين المعنيين رغم كونه من المرافق الحساسة ذات الصلة المباشرة بحريات وحقوق المواطنين، سيما وانه تم تدمير النظام الاقطاعي وامتداد سلطة القضاء الى بعض المناطق الريفية التي كانت تخضع سابقا الى العرف العشائري – الاقطاعي.

ان القضاء وهو اداة المشرع، ملزم بتطبيق القانون. والقانون، كما هو معروف، يعكس ارادة الطبقات التي تمسك بزمام السلطة. فالقاعدة القانونية إذن تصوغ العلاقات القانونية الاجتماعية طبقا لمصالح معينة، فهي كلمة الحاكمين بما تعكسه من اوضاع اقتصادية، وما تمليه من قيم، وما تنشئه من مؤسسات سياسية واقتصادية واجتماعية، ومؤسسة القضاء هي احدى التي ينشئها القانون ويلزمها باحترام احكامه. لكن الجوهر الطبقي للقاعدة القانونية لا يمنع الجماهير الشعبية (سيما في فترات توازن القوى) من الكفاح من اجل احترام مبدأ المشروعية وتقييد سلطة الادارة ومنعها من العبث بحقوق المواطنين دون احترام لقيود قانونية موضوعية. والشعب عندما يتمسك بالمشروعية، لا يكف في الوقت نفسه، عن النضال من اجدل تغيير القوانين الفاسدة، ذات المحتوى الطبقي الرجعي، واستبدالها بقوانين تقدمية جديدة. ان الدفاع عن (مبدأ المشروعية) يعد، بحد ذاته، منطلقا نحو خطوات تشريعية تقدمية، ويشكل في الوقت نفسه حدا ادنى من الضمان الضروري.

ان مبدأ المشروعية يعني مراقبة ممارسة الحكم في حدود القواعد القانونية المعلنة، وطبقا لها، ومراقبة الافعال في ضوء الاحكام القانونية القائمة، وضمان ان هذه الاحكام تتحول فعلا الى واقع مادي.

ولا شك ان تطبيق القوانين الفاسدة، التي تحمي مصالح الاقلية المستغِلة، امر ضار. وقد يرى البعض ان خرق هذه القوانين يكون احيانا في صالح الاكثرية، لكن التجارب اثبتت ان القاعدة الفاسدة يجب ان تلغى لا ان تخرق، وان تعطيل اية قاعدة، بغير الالغاء او الاستبدال، يفضي الى محاذير مؤكدة، لان ذلك يؤدي الى انقطاع العلاقة بين العمل والقول، أو بين النظرية والتطبيق، أو بين القاعدة القانونية والنشاط العام. وهذا يمس مبدأ المشروعية في الصميم ويفتح المجال

واسعا للطبقات الحاكمة لتستفيد من خرق القواعد القانونية، في مجالات معينة، للعبث بالمشروعية باستمرار.

ان الفصل بين القاعدة والفعل قد يؤدي في ظرف معين الى مكاسب للشعب، ولكنه اسلوب لا يكفل الاستمرار، ويفتح السبيل امام محاذير كثيرة. وتجربتنا منذ ثورة 14 تموز 1958 تؤيد ما نقول.

ان محاولة الغاء القوانين الرجعية لا يتم الا عبر معارك سياسية تتطلب كفاحا تشنه الجماهير، ولكن هذا الكفاح نفسه هو ضمان انتصار الإلغاء، وهو الذي يحمي القانون الجديد الذي يصبح مستقرا في ضمير الجماعة.

1. القضاء، كما معلوم يشمل الجهاز المكلف بمراقبة المشروعية. فالقضاء والمشروعية من مكتسبات الكفاح الثوري عبر قرون عديدة، وانه نتيجة العمل الجماهيري الذي تبلور في اوربا خلال القرن التاسع عشر بما يسمى (حقوق الانسان). ولكن الصراع الاجتماعي اظهر في ما بعد ان هذه المكتسبات لم تحقق أمل الانسانية المنشودة في التحرر الكامل، وان الامر يتطلب اعادة بناء الحياة الاقتصادية نفسها، باعتبارها الأساس، بما يحقق المساواة الفعلية ويقضي على تسلط الطبقات المالكة على الشعب ويسقط دولتها. وقد دل ذلك لا على فساد المكتسبات السابقة، بل على عدم كفايتها. لذا فالامر يستدعي لا التفريط بالقضاء والمشروعية وحقوق الانسان وانما يتطلب تأكيدها على نحو واقعي، وبناءها على اسس مادية اكثر ثباتا وكفالة لحقوق الانسان.

وبهذا المعنى ينبغي النظر الى القضاء، كأي ظاهرة أخرى، نظرة متعددة الجوانب تشمل الظروف التاريخية المحددة والاطار الاقتصادي والسياسي للنظام القائم، وعلاقات القوى والطبقات المتصارعة في المجتمع. والملاحظ ان الكفاح الثوري يحاول ان يستفيد من امكانيات الشرعية القائمة، وان يستنفذ كل خيرها لمصلحته، ويسعى الى توسيعها بزيادة نفوذه على السلطة التشريعية في البلاد. ولكن ذلك يصل الى حدود يظهر بعدها استحالة اتساع النظام القائم لاكثر منها وعندئذ يتولد الانفجار والتحول الثوري نحو نظام جديد.

والملاحظ ايضا ان الصراع الاجتماعي يعبر عن نفسه في كافة مجالات النشاط وميادينه، وداخل كافة المؤسسات سيما ما يتصل بالرأي العام، بحكم طبيعة بنائه ووظيفته وجهاز القضاء، باعتباره رقيبا على الشرعية، وباعتباره تنظيما علنيا منفتحا على الرأي العام، يصبح من اهم ميادين الصراع المشروع، من اجل الحقوق المعترف بها. ومن اجل تحديد سلطات الحاكمة. وهذه هي احدى وظائفه الاجتماعية الهامة التي ينبغي الحرص على سلامة ممارستها على احسن وجه ممكن.

ان القوى الثورية تقوم باستنفاذ اساليب الصراع المشروع خلال المؤسسات القائمة، والقضاء احد ميادين الكفاح، حتى تصبح القطيعة حاسمة مع القوى الرجعية، عندما يتحول القضاء الى ترسانة لهذه القوى؛ يدافع عن نظامها المهدد بالسقوط باعتباره يمثل احد اركان سلطانها.

لقد استفادت الحركة الوطنية في العراق من الامكانات الشرعية المتوفرة إبان الحكم الملكي، واستخدمت القضاء في مناسبات عديدة منبرا لفضح الاجراءات التعسفية واللامشروعية الرجعية، وعبأت القوى الشعبية خلف شعاراتها الصائبة حتى تم اسقاط النظام الاستعماري شبه الاقطاعي. وخلال تلك الحقبة دافع عدد لا بأس به من الحكام عن مبدأ المشروعية واصدر قرارات

قضائية كان لها صداها الحسن، ليس فقط في الوسط القضائي بل في الوسط الشعبي بصورة خاصة. صحيح ان الجهاز القضائي آنذاك كان وليد النظام القائم، وان بعض الحكام خنعوا للسلطة التنفيذية الى حد الاسفاف إلا ان القضاء العراقي سجل بعض المآثر، التي اضيفت الى رصيد الحركة الوطنية والتقدمية.

2 – قلنا ان الحركة التقدمية تنظر الى القضاء – رغم كونه اداة قسر بيد الطبقة الحاكمة، نظرة واقعية. وترى فيه الاداة الضرورية لضمان احترام مبدأ المشروعية. لكن الاجهزة القضائية – من ناحية التكتيك القانوني – قد تختلف عن متطلبات مرحلة معينة وتصبح عبئا على جميع المواطنين، وعبئا ثقيلا على الطبقات الفقيرة بصورة خاصة. ففي عصر التكنولوجيا والذرة وغزو الفضاء وبعد ان اصبحت الحياة سريعة، يقف القضاء بتنظيماته واساليبه العتيقة الموروثة في بعضها من العهد العثماني، عاجزة عن مسايرة التقدم. فاذا كان الصاروخ يلف الارض كلها خلال 80 دقيقة، والحاسبة الالكترونية تنجز عمل وزارة كاملة كوزارة المالية خلال ساعة عوضا من شهر فكيف يستسيغ الناس بقاء دعوى لا يبت فيها القضاء الجنائي باقل من عام والقضاء المدني خلال اعوام؟

الحياة سريعة والقضاء بطيء بل بطيء جدا، دون مبرر مقبول سوى التمسك باجهزة واساليب وعادات كانت مقبولة في نظام اقطاعي – او رأسمالي متخلف –. ان عزوف المتنازعين عن مراجعة المحاكم له ما يبرره، فهم غالبا ما يلجأون الى المصالحة او ترك حقوقهم مهدورة دون مراجعة القضاء، مخافة التورط في اجراءات متعبة وباهظة. ولعل من الصحيح القول ان البطيء في اجراءات التقاضي يقف الى الجانب الاقوى، والايسر من المتخاصمين، لان بامكان الغني والميسور ان يجد دونما ارهاق من يتوكل عنه دون ان تنقطع سبل العيش والحياة أمامه، بينما تكون سرعة البت في النزاع من مصلحة الفقير المكدود، لينصرف الى تدبير لقمته ومتطلبات عيشه.

3 – ظاهرتان تبرزان في الانظمة السياسية المتخلفة:

أ – ضعف ثقة الجمهور بالقضاء.

ب – خرق الادارة لبعض المبادئ القانونية الاساسية.

ج – وتبرز ظاهرة ثالثة مؤسفة وخطيرة وهي ان الحصول على الاستقلال السياسي قد يقترن بزيادة تدخل السلطة التنفيذية في شؤون القضاء والتجاوز على صلاحياته. لقد أثّرت هذه الظاهرة على رجال العدالة ولا سيما الحكام منهم، ودفعت بعضهم الى الانكماش ومحاولة التملص من المسؤولية.

ان الاصلاح المنشود يجب ان يشمل الاجهزة القضائية بأنواعها، ويشمل ايضا الاساليب او الاجراءات القضائية (ناهيك عن اصلاح التشريع ذاته لأنه اساس التقدم ومنطقه). فالمواطن بحاجة الى العدالة، والعدالة بحاجة الى ادوات ضامنة.

ان الحاجة الى العدالة ينظر اليها من جانبين: من جانب الافراد، ومن جانب السلطة، فالعدالة بالنسبة للسلطة العامة هي التوفيق بين احترام حقوق المواطنين وبين تطبيق القواعد القانونية التي اقرها المشرّع والدولة. والدولة تودع هذه المهمة الى احد اجهزتها (المحاكم) ولكنها عندما تودع هذه المهمة الى المحاكم لا تقف مكتوفة اليدين، بل تقوم بممارسة الرقابة العليا على اجهزة القضاء للتأكد من قيامه بواجباته على احسن وجه.

وهنا يُطرح السؤال الآتي: ما هي حدود هذه الرقابة؟ ان محتوى الجواب يتوقف على طبيعة النظام السياسي القائم – ديمقراطي

ام استبدادي – والواقع يبرز مفاهيم عديدة بهذا الصدد:
أ – المفهوم الاول يقول ان القضاء اداة بيد رئيس الدولة (ذلكم هو مفهوم ديغول للقضاء).
ب – المفهوم الثاني يقول انه مرفق عام، ولكنه مرفق ذو صفة خاصة (والفقهاء يختلفون في تفصيل ذلك والنظرية الاشتراكية أميل الى هذا المفهوم).
ج – والمفهوم الثالث يقول ان القضاء سلطة ثالثة موازية للسلطتين التشريعية والتنفيذية. (وهذا مبدأ مونتسكيو الشائع في الديمقراطيات الرأسمالية الليبرالية).
د – مفهوم رابع – بل سلوك معين – يقول باستقلال القضاء، ولكنه في الواقع يقيم اجهزة اخرى تمارس (القضاء) خارج نطاق القضاء العادي والاستثنائي، بل خارج الدولة نفسها.
قلنا ان العدالة ضرورية للدولة وضرورية للفرد: ضرورية الدولة للحفاظ على وجودها والحفاظ على مبادئها الأساسية وضرورية للفرد، للحفاظ على حقوقه ضد تجاوزات الآخرين وتجاوزات الادارة ذاتها.
والقضاء بالنسبة للفرد يجب ان يكون اداة مضمونة وسهلة:
(1) اداة مضمونة – بمعنى ان تهيئ الدولة للمواطنين حكاما وقضاة اكفاء ومستقلين قادرين على الوقوف امام العديد من الضغوط: ضغوط السلطة السياسية، ضغوط القوى الاجتماعية، ضغوط التقاليد البالية .... الخ. ويلعب التكوين النفسي والاجتماعي والايديولوجي للحاكم دورا هاما في هذا المجال كما سنرى بعد قليل.
(2) اداة سهلة – فالمواطن يخشى رفع الشكوى او تسجيل الدعوى. واذا ما اردنا ان يكون تدخل القضاء في الخصومات من الظواهر الاعتيادية الميسرة للمواطن – الذي لا يجد امامه سوى القضاء حلا لمشكلته فيجب ان يكون القضاء من الظواهر اليومية مثل ظاهرة القانون ذاتها. ان الواقع المر يدل على ان المواطن غالبا ما يرى امامه جبلا شاهقا عليه اجتيازه قبل الوصول الى (العدالة).
وعلى ضوء هذه المقدمة العامة سنقوم بعرض بعض الملاحظات والآراء حول القضاء والأجهزة القضائية في العراق. وسوف نقسم البحث الى قسمين: الاول – التنظيم القضائي، ثانيا – اشخاص القضاة. وسنحاول تبسيط البحث ليكون في متناول جميع المثقفين دون الدخول في التفاصيل القانونية التكنيكية التي لها مجالها الخاص.

اولا – التنظيم القضائي

ان التنظيم القضائي الراهن في العراق، الذي يمتد بجذوره الى عهد الاحتلال البريطاني، لم يعد يلائم تطورات المجتمع القضائي وضرورة بناء دولة تقدمية. ولا شك ان المقدرة على اعادة تنظيم القضاء واجراء تغييرات في بنيته واجراءاته ستساعد كثيرا على ضمان العدالة وتيسر مراجعة المواطنين للمحاكم ولأجهزة القضاء الاخرى.
لقد تمت خلال السنوات التي اعقبت ثورة 1958 بعض الاصلاحات التشريعية من جوانب معينة من القضاء، إلا انها اصلاحات لم تخرج عن اطار الفلسفة الفردية القديمة. لقد اكتفت الدولة بإجراء تعديلات (تكتيكية) في بعض مواد القوانين القديمة دون المساس بجوهر التنظيم القضائي وأساليب اعداد الحكام والقضاة والمحامين والموظفين.
من المعلوم ان قانون اصول المحاكمات المدنية وقانون اصول المرافعات الجزائية، في جوهرهما مستمدان من القانونين الفرنسيين اللذين يرجعان في اصولهما الى سنة 1808.

هذان القانونان يتعرضان حاليا الى نقد شديد حتى في فرنسا ذاتها.
ان الاصلاحات التي اجريت على هذين القانونين في العراق هي اصلاحات جزئية وتفصيلية، بينما تستلزم ضرورات العصر الحديث اعادة النظر فيهما جذريا، بما يتفق والحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة وظهور امكانات تكنيكية حديثة. ان اساليب التحقيق البدائية والبطيئة في مجال الجريمة تعرقل ليس فقط الكشف عن المجرم الحقيقي بل تؤدي الى تأخير البت في الدعوى بحيث يفوت الأثر الاجتماعي للعقاب. وفي حقل الدعاوى المدنية تطول الاجراءات وتتضخم الاضبارات وينفق الوقت وتتبدد الاموال.. الخ، في وقت يقدم العلم والتكنولوجيا وسائل حديثة مذهلة تعجل في الاجراءات ويسر ضبط كل نأمة تقال وكل وثيقة تقدم. فلماذا تملى على كاتب الضبط ببطء ممل ودون اختزال اقوال المتخاصمين في وقت تسجل فيه المسجلات اقل صدى؟ الحاكم يغوص في اوراق الدعوى، وبين النصوص التشريعية التي اصابها التعديل مرات عديدة، بينما تيسر له الاجهزة الالكترونية استخدام الاجهزة والأساليب الحديثة. وكان علينا ان نخطط للمستقبل، ان نشرع فورا بالإصلاح على وفق ظروفنا الخاصة وحسب امكاناتنا ودرجة تطورها في مجتمعنا. صحيح ان ما هو مطروح في الظرف الراهن، ليس احداث ثورة في القضاء بل اصلاح الاجهزة القضائية وتبديل الادوات والاساليب البالية المتبعة لديه، ولكن لا بد من برنامج اصلاحي يباشر تنفيذه منذ الآن.
اننا سنحاول في الصفحات الآتية تقديم بعض الاراء والملاحظات المتفرقة كمساهمة متواضعة واولية ببدء النقاش حول اصلاح الاجهزة القضائية في العراق. إننا لا نقدم برنامجا متكاملا بل نقاطا من الممكن اعادة النظر فيها وتعديلها عبر حوار حر ومفتوح:

1 – مجلس القضاء الاعلى

عندما أسس مجلس القضاء الأعلى في فرنسا 1946 كان الهدف منه اقامة جسر يوصل السلطات السياسية بالمحاكم، تحقيقا للانسجام بين نشاط اجهزة الدولة المختلفة، دون خرق لمبدأ استقلال القضاء، لقد كان المجلس مكونا آنذاك من (12) عضوا يختارهم القضاء والكتل البرلمانية. وقيل في حينه ان مستقبل القضاء الفرنسي مودع بيد هذا المجلس. لقد كان مسؤولا عن ترقيات وترفيع وانضباط ...الخ القضاة في فرنسا، وكان مسؤولا عن حفظ استقلال القضاء وصيانة اعضائه. لقد وقف مجلس القضاء الأعلى مواقف مشرفة بوجه السلطة التنفيذية ولكن التشريعات التي صدرت في عهد ديغول عام 1958 مسخت حياة المجلس وحرمته من كيانه المستقل. لقد اصبح اعضاؤه معينين من قبل السلطة التنفيذية، وخفضت صلاحياته الى الحد الادنى بحيث امسى المجلس صدى للقرارات التي تتخذ في مكاتب رئاسة الجمهورية او في وزارة العدل. وهذا ما دفع العديد من السياسيين والفقهاء الفرنسيين الى المطالبة بالعودة الى نظام عام 1946، يوم كانت الحكومة تضم جميع القوى التقدمية في فرنسا.
صحيح ان مجلس القضاء جزء من الدولة، ويرتبط بوزير العدل ورئيس الجمهورية، ولكن رئيس الجمهورية هنا (يسود ولا يحكم). وقد قيل في فرنسا، توضيحا للأمر، ان رئيس مجلس القضاء الأعلى شخصية (مستمرة)، بينما وزير العدل شخصية (عابرة)، لذا يجب على السلطة التنفيذية ان تحترم آراء المجلس وقراراته. وقيل ايضا ان من الخطأ معارضة المجلس الأعلى للقضاء بوزير العدل، ووزير

العدل بالمجلس الأعلى للقضاء، لأن لكل منهما له اختصاصاته ووظائفه.
في العراق قدمت اقتراحات عديدة لاصلاح مجلس القضاء الاعلى، منها ما يمس عضويته، ومنها ما يمس اختصاصاته. لقد اقترح بعض الزملاء مثلا تشكيل مجلس القضاء الاعلى من رئيس الجمهورية رئيسا، ووزير العدل نائبا للرئيس، ومن اعضاء هم: رئيس محكمة التمييز ونوابه ورئيس هيئة التفتيش العدلي ورئيس ديوان التدوين القانوني ونقيب المحامين ووكيل وزير العدل ورؤساء محاكم الاستئناف والمدعي العام، ومن بعض الحكام الذين يختارهم المجلس نفسه. كما اقترحوا ان يمنح المجلس الاختصاصات الآتية:
اولا – مراقبة استقلال القضاء وضمان سيادة القانون وتنفيذ مقررات واحكام المحاكم من قبل الدوائر.
ثانيا – وضع الخطوط العامة لرفع مستوى القضاء والعاملين فيه.
ثالثا – مراقبة تنفيذ ما سيتقرر الأخذ به في قضايا اختيار الحكام وإعدادهم والإشراف والمراقبة على المحاكم، ونقل الحكام وترفيعهم، وتعيين الحكام في المراكز القضائية الرئيسية.
رابعا – تثبيت ملاكات المحاكم من الحكام.
خامسا – رسم الخطوط العامة لكل ما له علاقة بالقضاء على ضوء سياسة الدولة العليا.
سادسا – تقييم ما تم انجازه من اعمال خلال المدة السابقة لاجتماعه.
سابعا – احداث او تشكيل محاكم جديدة.
وفي رأينا انه لعل من المناسب تشكيل شعبتين في مجلس القضاء الاعلى؛ احداهما تقوم بدور توجيهي لسياسة القضاء، والثانية تنظر في جميع مشاكل العدل التنظيمية.
ان من الضروري تحاشي قيام نوع من (الاقطاعيات) داخل المجلس؛ فالعضوية مؤقتة ولا تجدد فورا، ولا بد من ادخال دم جديد شاب في مجلس القضاء الاعلى. على الدولة ألا تتدخل في شؤون المجلس بصورة مباشرة، ويستطيع وزير العدل باعتباره رئيسا للمجلس حضور جلساته لعكس وجهات نظر الحكومة وآرائه الشخصية.
ان مجلس القضاء الاعلى ليس مكانا للتشريف الاجتماعي، يجلس فيه فقط الحكام القدامى الذين حكموا القضاء مدة طويلة. انه بحاجة الى عناصر شابة ذات مفاهيم اجتماعية وسياسية وقانونية اشتراكية، لذا ليس من الصحيح تحديد العضوية بعمر او بدرجة معينة. ومن اجل كسب خبرة بعض الحكام القدامى يكون بالامكان ترشيح اعضاء فخريين يمدون المجلس بآرائهم ونصائحهم.
ان مهمة مجلس القضاء الأعلى الاساسية هي اعطاء فكرة اكبر للعدالة، ورفع مكانتها في المجتمع واقامة علاقات سليمة بين المؤسسات القضائية والمؤسسات السياسية في الدولة العراقية. صحيح ان التبدلات السياسية الفجائية في العراق أثرت كثيرا على قيام هذا المجلس بمهامه، لكن آن الاوان لتثبيت اسس متينة تحترمها جميع الاطراف السياسية، لأن تحقيق العدالة وسيادة القانون من صالح كل المواطنين وكل الاحزاب والكتل السياسية.

تنظيم المحاكم

اصول المحاكمات والمرافعات – لم تعد الطرق والاساليب والاجراءات الحالية المطبقة في المحاكم ملائمة لضرورات العصر الحديث. فلا بد من ذهنية جديدة تستفيد من التقدم في مجالات العلم والمعرفة.
ان الاجراءات القضائية عندنا بطيئة وباهظة التكاليف كما اسلفنا. ورغم بطئها وارتفاع تكاليفها ما زالت بعيدة عن تحقيق العدالة

بصورة أكيدة. ويقترح بعض الزملاء سلوك عدة سبل لتبسيط اجراءات التقاضي الحالية وانجاز القضايا وحسم الدعاوى بسرعة، منها:

– الاهتمام بالتبليغات القضائية وانجازها بسرعة وتوسيع صلاحيات المحكمة بهذا الصدد.

– الزام صاحب الطلب بملاحقة طلبه، وإلا تعرض للبطلان.

– جواز طلب ارجاء اليمين الى ما بعد النظر في القضية تمييزا في حالات معينة (كتقديم بينات متنازع في كفايتها).

– تنسيق مدد الاعتراض والاستئناف والتمييز وتوحيدها وتبسيطها.

– منح المحكمة صلاحية عرض الصلح، في اول جلسة لها، على المتخاصمين او ايداع الخلاف على التحكيم، وتوسيع صلاحية المحكمة والمحكمين.

– تنسيق وتوحيد مدد الاعتراض والاستئناف والتمييز في جميع فروع القانون.

– الغاء موضوع تصحيح القرار التمييزي فهو من مخلفات العهد العثماني.

– اختصار عدد السجلات المطلوبة لأن كثرتها تؤدي الى ارباك اعمال المحكمة واضاعة الوقت في شكليات لا موجب لها.

وفي رأينا ان هناك امورا كثيرة تسترعي الانتباه بهذا الشأن؛ فالحاكم حاليا يقوم بدراسة اوراق الدعوى من اولها الى آخرها. ولا يوجد من يساعده في الاعداد الاولي للدعوى وتنظيم وثائقها، بينما قد يكون من المفيد تكليف احد رجال القضاء (من نوع معين) بدراسة القضية مسبقا وتلخيص نقاطها قبل عرضها على الحاكم الذي يقوم بحسمها. وفي فرنسا يجري الحديث عن جهاز قضائي وسط مكون من حقوقيين جديرين، مهمته مساعدة الحكام في عملهم باتجاه اعادة النظر في اسلوب العمل لتحقيق ضغط في القضايا المعروضة. ان تجربة القطر الجزائري الشقيق في مركز القاضي المقرر والتجربة الالمانية في مركزها (القاضي المكلف بإلقاء الضوء) من التجارب الجديرة بالدراسة. ان تنظيما فعالا للدعاوى يخفف المشاكل الفنية التي تعيق الحكام عن القيام بمهمتهم الاساسية بأسرع وقت ممكن. صحيح ان ذلك يتطلب تقوية جهاز موظفي المحاكم عندنا ورفع مستواهم المهني والثقافي والقانوني ولكن الاصلاح يجب ان يكون متماسكا ومتكاملا. يجب ان يسمح للحاكم بمناقشة بعض الشؤون مع ممثلي الاطراف المتخاصمة، بل مع الاطراف ذاتها، لتقرير اتخاذ اجراءات تحضيرية (وثائق تكميلية، الاستماع الى اهل الخبرة، تقديم الشهود ...الخ)، اجراءات تفرضها ضرورات حسم الدعوى بسرعة وبهذه الصورة تجري تصفية العديد من القضايا قبل اصدا القرار، اذ ان تجربة المقررين في محكمة التمييز حريّة بالتأمل والدراسة لقد اعتبرها البعض تجربة غير مشجعة وبل غير ناجحة. ومرد ذلك، على ما اعتقد الى نظرة بعض اعضاء محكمة التمييز إليها، واعتبارها مشاركة أو معارضة لهم في الرأي والى عدم وضع قواعد منظمة لعملهم، اذ ترك الأمر لاجتهاد الحاكم الذي حوّلها الى ما يشبه كتاب الضبط.

ناحية اخرى يجب خلق جهاز يقوم بجمع وتصنيف قرارات المحاكم؛ بحيث تكون في متناول الحكام عند الضرورة. والحقيقة يجري حاليا تنظيم الادارة والمؤسسات والمعامل على اسس حديثة بينما يبقى القضاء متخلفا في هذا المجال. ان شكل اضبارة الدعوى، بحد ذاته، يثير العديد من الاعتراضات رغم كونه من الظواهر المألوفة في المحاكم. وفي الدول المتقدمة يجري استخدام اسلوب (المنظم) الذي يقوم بتقديم احصاءات ومعلومات عن

الاحكام التي صدرت في قضية معينة. ان مثل هذه المعلومات لا تلزم القاضي طبعا باتخاذ قرار معين ولكنها، على كل حال، تمنع صدور قرارات متناقضة في قضيتين متشابهتين من محكمتين مختلفتين او من هيئتين في محكمة التمييز ذاتها. ان (المنظم) لا يحل المشاكل القانونية للحاكم بل هو عنصر مفيد ومساعد في العصر الحديث. وفي الدول المتقدمة هناك خوف من ان يقتل التكنيك الحديث الجهد والابداع لدى الحاكم ويدفعه الى الكسل. لكن في نقطة البدء كما في نقطة الوصول وعند تحرير واتخاذ القرارات نجد الانسان دائما، ان الانسان لا يمكن ان يعوض بشيء ... انه ذلك الحيوان الأعزل الذي يتمتع بالامتياز الرباني بان يقول نعم اولا امام مصيره. طبعا في العراق نحن لا نشكو كثرة استخدام الآلات الالكترونية، بل نشكو تخلفا فظيعا في التنظيم، وتخلفا في الاساليب حد المضايقة.

والقضية الثانية في الاصلاح القضائي هي مسألة (ديمقراطية القضاء) – ان صح التعبير – أي مجانية التقاضي، لان المجانية جزء من الديمقراطية وخرق للنظام الطبقي في هذا المجال. وبهذه المناسبة يجب وضع نظام واقعي لمعاونة طالبي العدالة من الفقراء والمعوزين بحيث يتم تقديم الخدمات القضائية بسهولة وسرعة.

درجات المحاكم – يجب اعادة النظر في درجات المحاكم القائمة حاليا، لماذا هذه الدرجة الوسيط (الاستئناف)، أليس بالإمكان الاكتفاء بدرجتين؛ ثانيهما التمييز مع توسيع صلاحياتها في التصحيح وإكمال النواقص، اختصارا في الوقت والمصروفات.

وحيث ان محكمة التمييز تمثل أعلى مراحل القضاء وآخرها، لذا يجب صرف اهتمام كاف لإعادة تنظيمها على اسس متينة. ان الظروف السياسية التي مرت بالبلاد ادت الى حرمان الجهاز القضائي، ومنها محكمة التمييز، من عناصر مشهود لها بالكفاءة والصلابة، كما ادت احيانا الى تسلل عناصر ضعيفة الى مراكز حساسة في الجهاز. فلا بد من دم جديد يمر من شرايينها ولا بد من جيل جديد متين، من الناحيتين القانونية والإيديولوجية، يدخل هيئاتها. ولا بد من توكيد وتوطيد مركز اعضاء محكمة التمييز وجعل امر تعيينهم بيد مجلس القضاء الأعلى، وليس بيد السلطة التنفيذية، واخضاع محكمة التمييز الى رقابة السلطة التشريعية المنتخبة من قبل الشعب ديمقراطيا، وحمايتها من تدخلات السلطة التنفيذية. وعلى المجلس التشريعي المقبل ان يعيد النظر في عضوية محكمة التمييز الحالية بما يعزز مكانة القضاء ويقوي دوره الخطير في حياة البلاد.

ونظرا لكثرة الدعاوى المعروضة على محكمة التمييز (نحو 14 ألف دعوى سنويا) اصبح التأخير في التدقيق أحيانا، والاستعجال أحيانا، من الامور الطبيعية. واللوم لا يقع على المحكمة بل على التنظيم القضائي. ولهذا السبب يرى الكثير من رجال القانون ان يصار الى تقليل عدد الدعاوى التي تصل الى محكمة التمييز عن طريق جعل الدعاوى الصلحية (والبدائية بحدود مبالغ معينة)، ودعاوى الاحوال الشخصية وقضايا التنفيذ... قابلة للتمييز امام محاكم الاستئناف، كل ضمن حدود منطقة عملها، او توسيع صلاحية المحاكم الكبرى في المحافظات ومد رقابتها بحدود معينة الى القضايا المدنية والتنفيذية ودعاوى الاحوال الشخصية.

ويقترح بعض الحكام منح المحاكم الكبرى في المحافظات صلاحيات في المجالين الحقوقي والشرعي، الى جانب صلاحياتها الجزائية، بحيث تنظر المحكمة الكبرى في المحافظة (تمييزا) في كافة القضايا الحقوقية التي تبلغ

قيمتها مائة دينار فأقل، وفي القضايا الشرعية، ويعتبر قرارها قطعيا، وتنظر (استئنافا) في القضايا الحقوقية والشرعية التي تزيد قيمتها على المائة دينار، ويكون قرارها في هذه الحالة تابعا للتمييز. ان الأخذ بهذا الاقتراح يؤدي الى الاختصار في الوقت والتكاليف المادية التي يتكبدها المتقاضون، ويخفف من اعباء محكمة التمييز، التي سيقتصر دورها على التوجيه والاشراف وتدقيق قرارات المحكمة الكبرى في القضايا ذات الاهمية المعينة. ان هذه الاقتراحات وغيرها تستوجب دون شك اعادة النظر في مجمل الجهاز القضائي واعادة النظر في تشكيلاته وصلاحياته وتثبيت ملاكاته على وفق احصائياته ودوامه وعطلاته الامر الذي يتطلب دراسة خاصة متأنية.

وحدة القضاء – لم يعرف العراق نظام تعدد القضاء، فالقضاء عندنا موحد ولا يوجد قضاء إداري، بالمعنى الذي تعرفه فرنسا ومصر، الى جانب القضاء المدني. صحيح ان مجلس انضباط موظفي الدولة في ديوان التدوين القانوني يمثل شكلا من اشكال القضاء الإداري، ولكنه قضاء محدود الصلاحيات. لقد جرى الحديث عن اقامة مجلس دولة على غرار مصر، لكن الامال بقيت ضمن المشاريع. المهم ليس انشاء قضاء اداري او الابقاء على نظام القضاء الموحد، بل المسألة على ما نرى، تكمن في رفع مكانة العدالة في بلادنا عن طريق اجهزة قضائية في مستوى المسؤولية. ان ما يهدد العدالة في بلادنا اللجوء الى المحاكم الاستثنائية التي حكمت العراق مدة طويلة جدا من الزمن وقد آن الاوان للعودة الى الحياة المستقرة التي تخضع لسلطة المحاكم العادية. ان منح بعض الهيئات الادارية سلطات قضائية او حرمان القضاء من النظر في النزاع الناشئ عن تطبيق بعض القوانين، يعتبر من المظاهر السلبية في مجال تحقيق العدالة، ولا بد من اعادة الاختصاصات الى القضاء العادي ليقول كلمته في الخصومة. وهذا لا يمنع من تشكيل محاكم استثنائية خاصة، في ظروف شاذة ومعينة، ولفترة محدودة جدا لمحاكمة المتهمين بارتكاب جرائم امن الدولة الداخلي او الخارجي فقط، على ان تلغى فور الانتهاء من مهامها. ومثل هذه المحاكم الاستثنائية يجب ان تخضع الى رقابة السلطة التشريعية التي تمثل ارادة الشعب.

وان من جملة الاقتراحات التي تطرح نفسها بهذا الصدد فكرة انشاء محكمة عليا تختص بجميع المسائل والقضايا القانونية ذات المستوى العالي، من تدقيق او تفتيش او تقنين او افتاء بدستورية قانون او قانونية نظام وتوفير جميع الظروف الموضوعية الملائمة، بعد دراسة علمية خاصة على ضوء تجارب الدول الصديقة والشقيقة.

واخيراً يكون من الضروري احترام قرارات المحاكم واحكامها وعدم فسح المجال لعرقلة تنفيذها، لأن ذلك يضعف الثقة بالقضاء وأحكامه.

التخصص القضائي – لقد زاد عدد القوانين وتنوعت التشريعات في العراق سيما بعد حركة التأميم وازدياد تدخل الدولة في المجالات الاقتصادية، خاصة بعد عام 1964. وتوسع التشريع هذا ادى الى صعوبة الالمام بكافة القوانين والأنظمة وتعديلاتها وذيولها تفصيلا. لذا يسير الاتجاه الحديث نحو تخصص الحكام بفروع معينة بعد فترة من الممارسة الشاملة في المحافظات والاقضية (تخصص بالقضاء الجنائي، أو القضاء المدني، أو القضاء الإداري، أو منازعات العمل ... الخ).

التحكيم – بسبب توسع القطاع العام وتعدد المؤسسات الاقتصادية والفنية، ظهرت خلافات كثيرة بين مشاريع الدولة ذاتها،

خلافات تستلزم تطبيق قواعد قانونية ذات صفة تكنيكية اكثر من تطبيق قواعد قانونية، تستند الى اعتبارات العدالة بصورة عامة. لذا يجري اللجوء في الدول الاشتراكية وفي الدول التي توسع فيها القطاع العام، الى (التحكيم) الذي يساعد على حسم القضايا بسرعة تتطلبها طبيعة المجتمع الحديث. ان الخلافات بين مؤسسات الدولة هي منازعات بين فروع مختلفة لمشروع واحد، اي انها جميعا تعود الى صاحب عمل مشترك. لذا لا غرابة في ان يجري اللجوء الى التحكيم بدلا من اللجوء الى المحاكم في هذه الحالة. ان هذا النظام غير موجود في العراق، ومن الضروري التفكير فيه والاستفادة من تجربة القضاء الاشتراكي وقضاء مصر ما دام القطاع العام في توسع دائم في العراق.

انتخاب الحكام – النظام الاشتراكي يخضع الى نظام الانتخاب، الانتخاب المباشر من قبل المواطنين بالنسبة للدرجات الدنيا، والانتخاب غير المباشر، السلطة التشريعية، بالنسبة للمحاكم الوسطى والعليا، كما يجري انتخاب المعاونين لمساعدة الحكام الدائمين من بين ابناء الشعب ويتم انتخاب المعاونين الشعبيين في الاتحاد السوفيتي، مثلا، من قبل العمال والفلاحين مباشرة (المحاكم الشعبية الدنيا) او من قبل مجالس السوفيتات (المحاكم الاخرى) وذلك لمدة عامين. ويشكل المعاونون الشعبيون الاغلبية في المحكمة. وخلال قيامهم بمهمتهم القضائية يعفون من العمل في المعامل والدوائر، إلا ان مدة مساهمتهم في المحكمة لا تزيد عادة على الاسبوعين في السنة، ثم يأتي دور غيرهم، ان اصواتهم مساوية لصوت الحاكم الدائم، وكلهم يشتركون في فحص الوقائع وفي تطبيق القانون. ان مبررات مشاركة جماهير الشعب في القضاء نابعة من الفكر الماركسي الذي يعتقد بان القانون والدولة سوف يذبلان تدريجيا في المجتمع الشيوعي المقبل، وسوف يخضع سلوك الافراد الى رقابة الشعب نفسه دون حاجة الى محاكم وسجون... ومشاركة المعاونين الشعبيين في المحاكم اشارة الى مستقبل البشرية ومستقبل القانون. وفي الظرف الراهن تؤثر مساهمة المعاونين في تثقيف المجتمع وتقوي العلاقة بين الدولة والشعب لانهم بعد مشاركتهم في نظر الخصومات والشكاوى، يعودون الى معاملهم ومزارعهم وقد لمسوا كيف يعمل القضاء من الداخل وكيف يصدر قراراته، يعودون وهم مقتنعون بعدالة القضاء الاشتراكي. وعليه فان نظام المعاونين يساعد في اعادة تثقيف المواطنين، وهذه هي احدى المهام الرئيسية للقانون الاشتراكي.

دور المنظمات الجماهيرية في القضاء في المجتمع الاشتراكي – لا تحال كل الخلافات الى المحاكم بل يجري حل العديد من المنازعات بروح جماعية داخل المؤسسات والمعامل من قبل الشغيلة انفسهم. ففي الاتحاد السوفييتي، مثلا، تشكل لجان منازعات العمل من ممثلي الادارة ومن ممثلي العمال. وإذا لم تقتنع الاطراف بقرار اللجنة تعرض القضية على اللجنة النقابية في المشروع. واذا لم تنجح اللجنة النقابية باقناعهم بحل مقبول تحال القضية عندئذ الى المحكمة، ولكن هناك قضايا هامة يمكن عرضها مباشرة من قبل ذوي العلاقة، على المحاكم الشعبية العادية.

في المزارع الشعبية تقوم (اللجان التنفيذية) لمجلس السوفيت المحلي بفض المنازعات في الريف. بينما يقوم مجلس السوفييت نفسه بمراقبة قانونية القرار المتخذ من قبل اللجنة التنفيذية (نوع من التمييز). ولكن تبقى المحاكم وحدها مختصة في النظر في دعاوى المواطنين الذين يدعون بأن حصصهم من الناتج الزراعي غير عادلة، نسبة الى العمل

الذي قدموه.
وفي العراق اخذ المشرع بنظام (اللجان المشتركة) التي تتكون من ممثلي العمال والإدارة (أو صاحب العمل)، وتناط بها مهام تتعلق بتنظيم الانتاج في المشاريع، وتسوية المنازعات والخلافات بالطرق الودية. وتخضع قراراتها الى رقابة محكمة العمل انها تجربة هامة، وحرية بالاهتمام والدراسة والاستنتاج والدعم.
دور القضاء في تثقيف الجماهير – انطلاقا من فكرة ان (القانون مظهر من مظاهر السياسة) تؤكد النظرية الاشتراكية على دور المحاكم في انجاح سياسة الدولة. فالمحاكم لا تقوم بتفسير وتطبيق القانون حسب، بل عليها ايضا ان تساهم في تنفيذ سياسة الدولة العليا، المستمدة من مصلحة الجماهير الكادحة، بقدر ما يتعلق الامر بها، وتهيئ مستلزمات ذيول القانون (في المرحلة العليا من المجتمع الاشتراكي) وذلك بالمساهمة في تثقيف الشعب ورفع مستواه الفكري. يجب ان يكون قرار المحكمة مقنعا للطرفين – قدر الامكان – بحيث يساند الرأي العام القرار الصادر وفقا للقانون. ان المحكمة ليست مسرحا تمثل عليه الخصومات، بل هي مدرسة تساهم في تثقيف اعضاء المحكمة ورجال العدالة والمتخاصمين والجمهور (والقراء عن طريق الصحافة). وتحت عنوان (من مهام المحكمة) تنص المادة الثامنة من قانون اسس التنظيم القضائي في الاتحاد السوفييتي لسنة 1958 على ما يأتي (على المحكمة في جميع نشاطاتها، ان تثقيف المواطنين في الاتحاد السوفييتي بروح الاخلاص للوطن وقضية الشيوعية، بروح الدقة والصلابة في تطبيق القوانين السوفياتية، بروح السلوك المشرف إزاء الملكية الاشتراكية. بروح احترام الضبط في العمل، بروح الالتصاق المخلص بالواجبات ازاء الدولة والمجتمع، بروح احترام القانون وشرف وكرامة المواطنين وقواعد المجتمع الاشتراكي. وعندما تتخذ المحكمة اجراءات قمعية جنائية عليها ألا تكتفي بمعاقبة المجرم، بل عليها ان تحاول تعديل الاعوجاج وإعادة تثقيف المجرم).
المحاكم الاستثنائية – المحاكم الاستثنائية من الظواهر التي تبرز في العديد من الدول بسبب المرحلة السياسية التي يمر بها العالم. وحتى في اكثر الدول تمسكا بالمشروعية والتصاقا بالاجهزة القضائية الاعتيادية يجري الجنوح نحو انشاء محاكم استثنائية هدفها ضمان أمن نظام الحكم القائم وقمع اعدائه المتآمرين على سلامته في الداخل والخارج. وتجربة فرنسا في هذا الصدد تعرضت الى مناقشات سياسية وقانونية، سيما في عهد ديغول الذي قام بتأسيس (محكمة امن الدولة) سنة 1963. والواقع لم يناقش رجال القانون مشروعية تأسيس هذه المحكمة؛ فالدستور يسمح بذلك، بل ناقشوا اسلوب اقامتها واعترضوا على نشاطها، وهم يؤكدون ان النظام القضائي الفرنسي ذا التقاليد العريقة، لم يخرج من هذه التجربة بحصيلة مشرفة. ويقولون ان الجرائم ضد أمن الدولة لا تحتاج الى تكنيك جديد، ولا الى محاكم استثنائية. أليس الهدف من انشاء محاكم خاصة من قبل السلطة التنفيذية ضمان السيطرة على القضاء وايجاد حكام على المقاس؟ وهل ان اختيار ثلاثة من القضاة المدنيين واثنين من القضاة العسكريين يخلق استقلالا يفوق استقلال المحاكم العادية؟ ورجال القانون في فرنسا يقولون ان المحكمة المدنية هي اهل لمحاكمة من يخرق امن الدولة وسلامتها، انها أهل لقمع نشاطات الأعداء وفرض العقوبات الرادعة عليهم. يقول النائب والقاضي الفرنسي المعروف شازل: (ان محاكم امن الدولة خطر على الدولة نفسها لانها

تشجع على قيام التعسف الذي يظهر في جميع الانظمة السياسية، والذي يناضل الجميع ضده. هناك محاكم اخرى يمكنها ان تقوم بمهام محكمة امن الدولة، مثل المحكمة العليا ومحكمة الجنايات ومحاكم القوات المسلحة، ان محكمة امن الدولة ثقيلة بالنسبة لدولة حققت توازنها وأنجزت نظامها الديمقراطي. والجرائم لا تقاوم بالمحاكم بل بتحسين ظروف الحياة الديمقراطية. ان محاكم امن الدولة ظاهرة مؤسفة لذا يجب ان تعطى مهمة معاقبة الذين يعرقلون نشاط الدولة العادي، ويهددون أمنها، الى المحاكم الشعبية التي ستنشأ في المستقبل).

ديوان التدوين القانوني – أنشئ ديوان التدوين القانوني قبل اربعين عاما تقريبا لذا جرت بعد ثورة تموز 1958 وقبلها محاولات عديدة لتطويره وتحويله الى قضاء اداري تحت اسم مجلس الدولة أو اسم مجلس شورى الدولة. ويظهر ان جميع المحاولات اصطدمت بعدم الرغبة في بسط رقابة القضاء على اعمال السلطة التنفيذية.

ان ديوان التدوين القانوني يقوم حاليا، وبالفعل بثلاث مهمات:

(1) ابداء الرأي والمشورة بشأن تفسير القوانين بصدد قضايا معينة.

(2) ممارسة القضاء في الخلافات الناجمة عن تطبيق قانون الخدمة المدنية.

(3) النظر في مسودات القوانين والأنظمة والمعاهدات.

لقد قدمت اقتراحات كثيرة لاصلاح جهاز الديوان وتوسيع صلاحياته، ولكن ما هو افضل في الظرف الراهن، تحويله الى مجلس للدولة، على غرار مجلس الدولة الفرنسي، او على الاقل على غرار مجلس الدولة المصري. ان ديوان التدوين القانوني بصلاحياته الحالية أعجز من ان يساهم في اصلاح التشريعات باتجاه تقدمي (كجهاز فني طبعا) واضعف من ان يلعب دورا هاما في مجال القضاء الاداري وفي المستقبل. وعندما يسود القطاع العام سيادة كاملة، لن يكون ضروريا قيام قضاء اداري مستقل، وستكون وحدة القضاء اساس التنظيم الفضائي في المجتمع الاشتراكي.

الادعاء العام – يشكل الادعاء العام جزءا هاما من النظام القضائي. انه يمثل الادعاء العام ويدافع عن المشروعية وسيادة القانون. لذا تهتم الانظمة الاشتراكية بهذا الجهاز اهتماما كبيرا تجعله خاضعا ليس للسلطة التنفيذية، كما هو الوضع في العديد من الدول الرأسمالية، بل للسلطة التشريعية التي تقوم بانتخاب المدعي العام وتراقب نشاطه. ان الجهة المسؤولة عن مراقبة تنفيذ القانون هي الجهة التي تشرعه وليست الجهة التي تنفذه. ان للادعاء العام في الدول الاشتراكية مهاماً اخرى أوسع منها في النظام الرأسمالي، ويستطيع المدعي العام او نائبه، الاعتراض على الكثير من القرارات الادارية والقضائية، الجنائية منها والمدنية، وعلى مختلف مراحل الدعوى.

في العراق يجب اعادة النظر في نظام الادعاء العام وتعزيز مركزه واستقلاله عن الادارة والقضاء معا وربطه بالسلطة التشريعية مباشرة لتقوم بتعيين المدعي العام لمدة طويلة نسبيا (خمس سنوات مثلا) من بين المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والصلابة والتجرد. ويقوم المدعي العام بدوره بتعيين نوابه المنتشرين في كل زوايا القطر والذين يراقبون القرارات الادارية والقضائية ويساهمون في الدفاع عن الحق العام وعن المشروعية بكل اشكالها. ويرى البعض وجوب توسيع صلاحيات الادعاء العام بحيث تصل سلطته الى درجة منحه حق التدخل في حفظ حقوق الخزينة والدفاع عنها في جميع الدعاوى الجنائية

والمدنية والقضايا الانضباطية. كما يرى البعض اناطة سلطة التحقيق بالادعاء العام وحصرها به اضافة لسلطته النيابة العامة. ان الادعاء العام في العراق ينتمي الى السلطة التنفيذية، فتعيينات ممثليه ونقلهم وفصلهم تصدر من السلطة التنفيذية، وتخضع بعض تحركاتهم اثناء العمل لأوامر السلطة.

المحامون – المحامي والحاكم والمدعي العام يشكلون مجموعة واحدة تتعاون على كشف جوانب القضية المعروضة امام القضاء. وفي النظام الاشتراكي (حيث يختلف المحامي عن مركزه في النظام الرأسمالي) لا يعتبر المحامي نفسه خصما لممثل الاداء العام. كلاهما يقفان امام حاكم واحد ويساهمان معه في كشف الحقيقة. وتقرر المبادئ القانونية الاشتراكية انه اذا اقتنع المحامي بان موكله مذنب، فعليه ألا يخفي ذلك على المحكمة ولا يحاول ان يظهر الجريمة وكأنها اقل خطرا مما هي عليه. ان واجبه الحقيقي – إزاء موكله – ابراز الظروف والادلة التي تخفف من مسؤولية موكله. ولكن على المحامي الا ينسى المصلحة العامة ويتذكر باستمرار تأثير مرافعته على جمهور المستمعين. واذا ما حصل من موكله على معلومات تتعلق بالامن العام فعليه ان يوصلها الى السلطة المختصة. فالمحامي هو، قبل كل شيء، مساعد للقضاء وخادم للمشروعية الاشتراكية، تلكم هي المبادئ النظرية. واقع دور المحامي في النظام القضائي الاشتراكي بحاجة الى دراسة معمقة على ضوء تجربة نصف قرن لاستخلاص التجربة وتطويرها.

ويتوطد دور المحامي على الصعيد العملي عن طريق نقابة المحامين. ويستطيع المتقاضي ان يطلب معونة محام بواسطة النقابة التي تختار له الشخص المناسب وتحدد اجوره حسب التعرفة المقررة. وتقوم النقابة شهريا بتوزيع الموارد على المحامين حسب كمية عملهم وبموجب جدول خاص.

ان الغاء الصفة الشخصية للعلاقة بين الموكل والمحامي يقضي على الصلات الفردية ويقوي لدى المحامي روح خدمة المجتمع لا روح خدمة الموكل الذي يدفع مالا اكثر.

وتشترط القوانين الاشتراكية جميعا ان يكون المحامي مؤهلا علميا (متخرج في كلية الحقوق). والواقع ان دور المحاماة في الدول الاشتراكية اصبح ضعيفا ولا يمكن ان يقارن بدوره في الدول الرأسمالية وذلك بسبب تقليص القطاع الخاص وتشكيل لجان التحكيم في المشاريع والمؤسسات والإدارات الحكومية المختلفة. ولكن مع ذلك يبقى دور المحامي بارزا في الدعاوى والقضايا الجزائية.

في العراق ما زال دور المحامين مهما في المحاكم. وحتى القطاع العام ودوائر الدولة تلجأ الى المحامين للترافع امام المحاكم. صحيح ان الكثير من المؤسسات الحكومية تعتمد على تشكيل مديريات حقوقية وتعين مستشارين لها إلا ان دور المحامي ما زال كبيرا في مجتمع فردي رغم التراجع الذي اصاب هذه المهنة منذ عام 1964. ان المشاكل والصعوبات التي لاقتها ولا تزال تلاقيها مهنة المحاماة قد اثارت العديد من القضايا المتعلقة بتنظيم المهنة وتدرج الصلاحيات وضمان العيش الكريم للمحامين اثناء الخدمة وبعدها وحفظ حقوقهم وكرامتهم اثناء ممارسة الواجبات الموكولة اليهم. وقد طرحت بهذا الصدد مختلف الحلول والأساليب لمعالجة ما يمكن ان نسميه ازمة المحاماة في العراق، منها الزام الحكومة وجميع المؤسسات الخاصة بتوكيل محامين في الدوائر الرئيسة وعدم فسح المجال للمتقاعدين من ذوي الرواتب العالية بمنافسة زملائهم ورفع الحد الادنى لتقاعد المحامين، وربط صندوق تقاعدهم بالخزينة العامة

والعمل على زيادة موارده، وعدم ارهاقه بتكاليف نجمت عن خدمات ومدد لا علاقة لها بالمهنة الاصلية. وهنا يرى بعض الحقوقيين وجوب بث وتشجيع الروح التعاونية لدى المحامين وشد مصالحهم الى مصالح نقابتهم المحلية والمركزية على غرار ما هو معمول به في الدول الاشتراكية المتطورة. كما يطرح للمناقشة فكرة انشاء لجان للمصالحة تتولى فض النزاعات قبل اللجوء الى المحاكم لقاء اجور تدفع لهذه النقابات.

ان التكوين المسبق للمحامين ضعيف نسبيا بسبب نظام التعليم في كلية الحقوق. وقد اعيد النظر في اسلوب تدريب الطلاب وادخلت حديثا دروس عملية (تطبيقية) في نظام كلية الحقوق ـ جامعة بغداد، ستساعد على اعداد المحامين من الناحية العملية بصورة افضل.

وبهذا الصدد يرى بعض الحقوقيين وجوب اعادة النظر في نظام التعليم المتبع في كلية الحقوق بحيث:

(أ) يجري التأكيد على الجوانب العملية والواقعية وإعطائها الاهمية اللازمة على حساب الجوانب النظرية الافتراضية الصرف.

(ب) ادخال مواد دراسية جديدة على ضوء المتطلبات الواقعية بعد التبدلات التشريعية الجارية منذ سنة 1958 حتى الآن.

(ج) تشجيع روح البحث والتحقيق والمناقشة المنطقية وتنمية الجرأة على طرح الافكار القانونية وحسن الدفاع عنها وجعل الامتحان شفويا فقط في بعض المواد الاساسية مع تغيير طريقة الامتحانات الشفوية (وقت كاف، مناقشة موضوعية وليست شكلية او تعجيزية من قبل لجان الامتحان).

(د) إعادة النظر في ترتيب المواد التدريسية وحسب اهميتها العملية، فتدرس المواد العملية المهمة (المدني، العقوبات، المرافعات، التنفيذ، الطب العدلي ... الخ) في السنوات الاولى.

وبهذه المناسبة يتساءل بعض اساتذة القانون عما اذا كانت الطريقة السابقة التي اتبعت في كلية الحقوق العراقية قبل 1936، رغم قصر مدتها، وهي الطريقة التي تمر بجميع مواد القانون مرا سريعا وعمليا (اقرب للطريقة التي اتبعت بعد ذلك بفضل الاساتذة المصريين المتأثرين بالطرق الفرنسية التي اعتمدت الجانب النظري المطول لخلق ملكات قانونية لدى طلاب الحقوق في بعض جوانب ومواد القانون تمكنهم من الانطلاق بمفردهم في حياتهم العملية. ان الموضوع يحتاج الى تأمل ودراسة على ضوء النتائج والواقع بالتعاون بين كلية الحقوق ومجلس القضاء الأعلى ووزارة العدل ونقابة المحامين.

دوائر التنفيذ – ترتبط دوائر التنفيذ بالمحاكم لأن الحكام هم الذين يراسلون هذه الدوائر. ومن الواضح ان الأحكام المدنية والشرعية لا قيمة لها ما لم يجر تنفيذها. ان الشكوى من التنفيذ مردها الى جملة عوامل منها ما هو شامل لكل الاجهزة القضائية، ومنها ما هو خاص بهذه الدوائر، فقد قدمت اقتراحات كثيرة لإصلاح دوائر التنفيذ منها:

– التوسع في مفهوم السندات القابلة للتنفيذ اختصارا للوقت وتخفيفا من اعباء المحاكم، بل يرى البعض قبول دوائر التنفيذ لمجرد الادعاء بمبالغ تقل عن خمسين دينارا، متى ما اقترن هذا الادعاء بإقرار صريح وتعهد بالدفع.

– ان تتولى المحاكم تنفيذ قراراتها او تراقب صحة تنفيذها مدنيا وجزائيا.

– الاخذ بمبدأ متابعة دوائر التنفيذ للأعمال التنفيذية استنادا الى اول مراجعة دون حاجة الى تكرار المراجعات.

– ايجاد الطرق المناسبة لسد المنافذ بوجه التهرب من الديون والالتزامات الواجبة الاداء

عن طريق التحايل او التواطؤ او اللجوء الى الوظيفة والاستخدام.
– تحسين الاصول المالية والحسابية في دوائر التنفيذ وتطبيق احدث النظم المالية والحسابية في دوائر التنفيذ وتطبيق احدث النظم المالية والحسابية.
– جعل تمييز قرارات دوائر التنفيذ – في حدود معينة – امام محكمة الاستئناف او المحاكم الكبرى.
الاشراف والمراقبة – الاشراف والمراقبة من الوسائل الهامة في المجتمعات، بحيث اصبحا شاملين لجميع اجهزة الدولة. والمفروض في الاشراف والمراقبة على القضاء ضمان حسن سير الاجهزة القضائية على اختلاف انواعها ومعالجة النواقص في حينها، وارشاد الحكام والموظفين الى افضل السبل لرفع مستوى الاجهزة الموضوعة تحت تصرفهم.
في العراق توجد عدة اجهزة تمارس المراقبة والاشراف أهمها: جهاز التفتيش العدلي، رؤساء محاكم الاستئناف في المناطق، وزير العدل.. واقل ما يقال عن هذه الرقابة انها عمليا دون المستوى الذي توخاه المشرع. ومن اجل معالجة مظاهر الضعف في التفتيش لا بد من تقوية وتطعيم الجهاز بعناصر كفوءة شابة، وعد النظر إليه كملاذ للراحة او مقر للمغضوب عليهم. وتقسيم العراق الى اربعة مناطق تفتيشية ولكل منطقة رئيس وعدد كاف من المفتشين بحيث يجري تفتيش كل محكمة مرة واحدة في السنة على الأقل، وإرشاد الحكام والموظفين الى النواقص والأخطاء والتقصيرات ومساعدتهم على معالجتها ورفع التقارير الدورية الى الجهات العليا او التغطية عليها لأسباب عديدة – بل تشخيص النواقص وإرشاد الحكام والموظفين الى كيفية معالجتها وعدم تكرارها، وما العقاب سوى الحل الاخير. وبهذه المناسبة يرى البعض ان تنحصر الرقابة على اعمال المحاكم والجهات المخولة، سلطات قضائية، بالنظر لاهمية الجهاز القضائي على ما يأتي:
(1) رقابة قضائية فعالة مستمرة ودورية تمارسها الجهات القضائية العليا (مجلس القضاء، محكمة التمييز، محكمة الاستئناف) على جميع القرارات القضائية واحكام المحاكم لمراقبة صحتها ومدى انطباقها على الاحكام والمواد دون المساس بقيمتها القانونية وارشاد المحاكم الدنيا دون ان يؤدي ذلك الى خنق روح المبادرة والاجتهاد لدى هذه المحاكم وتنظيم التقارير السنوية على ضوء ذلك.
(2) رقابة عدلية يمارسها التفتيش العدلي بصورة متمادية ودورية على اقلام المحاكم وإدارتها وحسن سير العمل فيها وانتظامها وانضباط حكامها وموظفيها دون ان يكون للتفتيش العدلي صلاحية مناقشة القرارات او الاجتهادات الصادرة من المحاكم الا في حالة التلاعب او سوء النية.

ثانيا – رجال القضاء

في القسم الاول من هذه الدراسة ابدينا آراء متفرقة عن الاجهزة القضائية عموما، وفي القسم التالي نتعرض الى اشخاص الحكام أنفسهم، ومما يحيط بهم من مشكلات ومظاهر تستحق الاهتمام. وسوف نعرض اراءنا على شكل نقاط:

اختيار الحكام وإعدادهم

يختلف اسلوب اختيار الحكام حسب النظام القضائي المطبق في القطر المعين؛ ففي اغلب اقطار العالم يجري اختيارهم من بين اشخاص تخرجوا من كليات الحقوق لكي يكونوا حكاما محترفين. لكن الى جانب الحكام

المحترفين تأخذ العديد من دول العالم بنظام المحاكم المختلطة (اي المحاكم المكونة من حكام محترفين ومن مواطنين عاديين). فهناك انظمة قضائية رأسمالية تشرك ممثلي ابناء مهنة معينة في المحاكم الى جانب الحاكم المحترف. وهناك انظمة اشتراكية التي تقوم بإشراك معاونين شعبيين منتخبين من بين المواطنين، ليساهموا بصورة مؤقتة الى جانب الحاكم الدائم.

المحاكم المختلطة – لقد جرى في فرنسا نقاش واسع حول مساهمة غير المحترفين في عضوية المحاكم، وتعرضت تجربة المحاكم المختلطة الى نقد شديد سيما من جانب الفقه الذي يهتم بالمبادئ القانونية اكثر من اهتمامه بالضرورات الاجتماعية الملموسة. يقول الفقه الفرنسي ان المحاكم المختلطة مكونة من اعضاء اغلبهم غير متخصص بدراسة وتطبيق القانون، وقد ادى عدم التخصص هذا الى صدور قرارات كثيرة خاطئة تعرضت الى النقض استئنافا. كما انه من الصعب على الاعضاء غير الدائمين التخلص من الاعتبارات الحرفية التي تسيطر عليهم، سيما عند فرض العقوبات. ونظام المحلفين المعروف في الدول الانكلوسكسونية تعرض الى نقد مشابه للنقد الذي يوجهه البعض الى نظام الاقتراع العام في المجال السياسي من حيث تعرضه الى ضغوط اجتماعية خاصة بحيث يؤثر على موضوعية القرارات وقانونيتها. يقول الناقدون ان المحلفين يتخذون احيانا قرارات سخيفة وغير منطقية. وقد لوحظ مؤخرا تهرب المواطنين في الدول الرأسمالية من المشاركة في هيئة التحليف، خاصة عند النظر في الدعاوى السياسية. وقد رد الكثيرون على هذه الانتقادات وغيرها، مؤكدين أهمية المشاركة الشعبية في عضوية المحاكم وتفوق فوائدها على النواقص التي يمكن معالجتها عن طريق اصلاح نظام المحلفين ونظام المحاكم الشعبية. وقالوا في تبرير نظام المحلفين ان القرارات الصادرة من هيئات المحلفين، تعكس في الغالب، ولحد بعيد، ضمير المجتمع والرأي العام حول القضايا المعروضة امامها. وان التقاليد المتبعة، بموجب هذا النظام، ترسخت بمرور الزمن واصبح من المتعذر الرجوع عنها او تبديلها. حتى ان البعض في العراق لم ير بأسا من الاخذ بهذا النظام في نطاق تجريبي محدود (كجرائم السرقات والقتول ذات الاهمية في المجتمع العراقي)، لا سيما في المناطق الريفية.

ويرى رجال القانون، سيما بعض القضاة الفرنسيين، ضرورة تشجيع مجالات المحاكم الشعبية مثل محاكم التجارة ومجالس المصالحة. ويرون انه من الملائم انشاء انواع جديدة من المحاكم المختلطة سيما في القطاعات القضائية التي تلجأ غالبا الى الاخصائيين وأهل الخبرة. مثال ذلك، منازعات البناء وشهادات الاختراع والقضايا العائلية. ان المحاكم المختلطة التي يشارك فيها مواطنون من غير الحكام المحترفين تساعد على تحقيق فوائد كثيرة منها تقليص الحاجة الى الاخصائيين والخبراء الذين يجري اللجوء اليهم بافراط في ايامنا هذه بسبب تعقد الحياة نفسها. ومن فوائد المحاكم المختلطة تحقيق العمل المشترك (الجماعي) لانها تجمع بين تعدد الحكام وقلة عددهم.

وإذا كان مبدأ المحاكم المختلطة مقبولا فان دراسة معمقة للموضوع تبقى ضرورية خاصة لتحديد الصفة الخاصة والمهام المحددة لكل نوع من انواع الاعضاء غير المحترفين. وعند تعيين هؤلاء الاعضاء لا بد من تنويعهم بالاهتمام بانتقائهم بدقة فائقة، ولعله من الصحيح تطبيق هذا النظام في المدن الكبرى (مثل بغداد والبصرة والموصل) حيث

تتوفر امكانات حسنة تساعد على الاختيار والإعداد.

ان المحاكم في العراق تقدم اول تجربة عملية في هذا المجال لأنها مكونة من حكام محترفين ومن ممثل العمال وارباب العمل لم يمارسوا العمل القضائي سابقا وليسوا معدين حقوقيا. لذا من الضروري ادخالهم دورات اعدادية لهذا الغرض.

وبطبيعة الحال ان نجاح هذا النظام يتوقف، ليس فقط على اعداد هؤلاء الاعضاء غير المحترفين، بل يتوقف ايضا على مدى تعاون الحكام المحترفين معهم ومساعدتهم في مهمتهم. ومن الضروري الاخذ بالنظام الاشتراكي الذي لا يسمح بالإضرار بهؤلاء الاعضاء حاليا بسبب مشاركتهم في العمل القضائي (استمرار دفع الاجر) انتخاب الحكام شعبيا – تتكون المحكمة الشعبية في الاقطار الاشتراكية عموما من حاكم او حاكمين دائميين، ومن عدد من المساعدين الذين يساهمون بصورة مؤقتة. اما محاكم الدرجات العليا فكلهم من الحكام الدائمين (دائمين نسبيا).

وفي الاتحاد السوفييتي – كما اسلفنا – يجري انتخاب جميع الحكام دون استثناء، انتخابا مباشرا من قبل الشعب بالنسبة للمحاكم الشعبية الدنيا، والانتخاب من قبل مجالس السوفييت بالنسبة للمحاكم الاعلى. يجري انتخاب هؤلاء الحكام لمدة خمس سنوات وبالامكان سحبهم اذا قصروا بواجباتهم. لقد نص برنامج الحزب البولشفي الصادر سنة 1903 على انتخاب الحكام وثبته ضمن مبادئه لأن الانتخاب مظهر من مظاهر الديمقراطية وتعبير عن سيادة الشعب. ويجب ان يوضع بيد الشعب ليس تشريع القانون حسب بل تفسيره وتطبيقه ايضا. ان اكثر من ثلث الحكام الدائمين المنتخبين ليسوا من الاعضاء الحزبيين (31 بالمائة منهم من النساء).

وفي الاتحاد السوفييتي ليس من الضروري ان يكون الحاكم حقوقيا ولا يشترط في المرشح لمنصب الحاكم ان يكون حاملا لشهادة جامعية اولية خاصة. لقد كان هذا النظام ملائما لظروف ثورة اكتوبر، لأن اغلب الحقوقيين والمحامين والقضاة لم يكونوا في صف الثورة في حينه. ولكن الوضع تبدل اليوم والميل يكون غالبا نحو ذوي الكفاءات، سيما بعد توفر الكوادر الجامعية الكافية.

ان نظام انتخاب الحكام يجب ان يطرح للنقاش في العراق ويجب ألا نستبعد الفكرة بدعوى هبوط مستوى الشعب الثقافي. ولكن من الضروري ايضا ملاحظة ظروف العراق الخاصة والملائمة المبدأ الى متطلبات التطبيق، سيما وان في العراق عددا كافيا من الحقوقيين الوطنيين المتحمسين لمصالح الشعب والمخلصين لأهدافه التقدمية. ان انتخاب الحكام مباشرة من قبل المواطنين (بالنسبة للدرجات الدنيا) وبصورة غير مباشرة من قبل المجالس التشريعية الشعبية (بالنسبة للدرجات العليا) تبقى ضمن الاهداف القريبة للحركة الثورية في العراق.

اهلية الحكام – تطرح في الظرف الراهن، مسألة اهلية الحكام نفسها على الوسط القضائي. وتظهر شكاوى عديدة من انخفاض مستوى بعض الحكام المحترمين. وحيث ان الدولة هي التي تعين هؤلاء الحكام لذا لا بد من انتقائهم بدقة وإعدادهم اعدادا جيدا. فالدولة (وزارة العدل ومجلس القضاء الأعلى) هي المسؤولة عن مهمة فحص قابليات المرشحين وإعداد الحكام وتطوير كفاءاتهم. وهنا يرى بعض رجال القانون التركيز في هذه المرحلة على الجوانب النظرية، التي يفترض اجتياز المرشح لها عند حصوله على شهادة التخرج في الجامعة. والاتجاه الغالب في جميع الدول

المتقدمة هو الاهتمام بالشباب من الحقوقيين الذين اثبتوا كفاءة عالية خلال دراستهم الجامعية، والذين اجتازوا اختبارات كشف عن قابليات خاصة تتطلبها مهنة القضاء.

وفي فرنسا، مثلا، يجري اعداد الشباب الحقوقي الذي يروم دخول القضاء مباشرة بعد تخرجه من الجامعة في مدارس خاصة، مهيأة لهذا الغرض (مثلا المركز القومي للدراسات القضائية). وفي بلجيكا يتم اعداد مشترك للمحامين والقضاة وفق نظام خاص. ويميل الالمان نحو اسلوب مرن في اعداد القضاة بعيدا عن الاسلوب المدرسي ويأخذ بالجوانب العملية بنظر الاعتبار.

لقد وجهت نقدات عديدة لنظام اعداد القضاة عن طريق المعاهد والمدارس الخاصة لأن المرشحين لدخولها ينحدرون من الطبقات الغنية والمتوسطة، لأنهم وحدهم القادرون على الاستمرار في الدراسة وتحمل اعبائها المالية. ان نظام المدارس لا يسمح بدخول ابناء العائلات البسيطة، لذا يقترح البعض قيام الدولة بدفع رواتب بسيطة لهؤلاء المرشحين خلال دراستهم الاعدادية كي لا يبقوا عالة على اسرهم غير الموسرة مدة طويلة، وبهذا يتحقق جزء من الديمقراطية في الوسط القضائي. ان القبول بهذا الاقتراح لا يزيل كل العوائق المالية امام ابناء العائلات الفقيرة لأنهم لا يصلون الى الجامعة اصلا، ولا يتخرجون فيها (سيما ابناء العمال والفلاحين) لذا يبقون محرومين من فرصة ولوج باب القضاء المحترف، الامر الذي يؤثر تأثيرا اساسيا على التركيب الطبقي للأجهزة القضائية.

ان المدارس التي تحدثنا عنها تقوم بإعداد قضاة المستقبل وتلزم الطالب بمتابعة برنامج محدد والنجاح فيه، وكل من لا يثبت مقدرة على تولي القضاء يحال الى الوظائف المدنية بعد تخرجه في المدرسة.

الى جانب اسلوب اختيار الشباب (من خريجي كليات الحقوق) وإدخالهم الى القضاء بعد اعداد وتدريب ملائمين، تأخذ جميع الدول تقريبا بنظام الضم المباشر الذي يعني ادخال المحامين وموظفي وزارة العدل المؤهلين في سلك القضاء مباشرة دون تدريب مسبق. ولكن يظهر ان تجربة فرنسا وبلجيكا وهولندا في هذا المجال تعرضت للنقد لأن بعض المحامين والموظفين المدنيين اثبتوا عدم جدارة في تولي المهام القضائية. لقد لوحظ ان أغلب هؤلاء الموظفين انتقل الى سلك القضاء لأسباب ذاتية، تتعلق بالحصول على الترفيع او نيل التشريف الاجتماعي. اننا لسنا ضد عناصر جيدة من رجال القانون النظريين (سيما اساتذة القانون في الجامعة)، ومن المحامين الناجحين ومن المدعين العامين وكتاب الضبط الذين اثبتوا كفاءة قانونية ملموسة، ولكن المصدر الاساسي للحكام يبقى افضل ما في الجيل الجديد من الشباب الذي جرى اعداده بصورة جيدة في كلية الحقوق، وجرى اختبارهم بعناية وعلى اسس موضوعية دون ضغوط او تأثيرات قبلية او عائلية او سياسية. لقد جرى تعديل على نظام كلية الحقوق في جامعة بغداد وادخل نظام (الدروس التطبيقية) الذي يساهم في اعداد الطالب عمليا خلال الدراسة. وسنرى نتائج هذه التجربة بعد ثلاثة أو اربعة اعوام وعندئذ نستطيع الحكم على مدى نجاحها في اعداد نوع جديد من الخريجين.

نقل وترفيع الحكام

نقل الحكام – بعد ان يتم الاختيار وفق اسلوب علمي ملائم ينسّب الحاكم للتدريب في مركز محكمة الاستئناف في المنطقة التي يعمل فيها.

وبعد انتهاء فترة التدريب (ستة اشهر مثلا) يعين حاكما في احد الأقضية ليعمل منفردا.
ان مسألة نقل الحكام في العراق هي من ادق المشاكل التي تؤثر ليس فقط في كفاءة الحاكم، بل تؤثر ايضا في استقلال القضاء ايضا. وغالبا ما يستخدم النقل من قبل السلطة اداة للضغط او للإغراء غير المشروعين. ولهذا السبب يجب:

1 – تقسيم المحاكم في جميع المحافظات والاقضية والنواحي الى مناطق او مراتب حسب وضعها الاجتماعي والصحي والثقافي وبعدها عن المحافظات المهمة او عن بغداد.

2 – ان يتم نقل الحكام عادة ضمن المنطقة او المرتبة الواحدة أو من محاكم منطقة معينة او مرتبة معينة الى محاكم المنطقة او المدينة التي تسبقها، دون تجاوز منطقة ثالثة بينهما، وذلك بعد توافر الشروط القانونية للنقل.

3 – جعل النقل مرتبطا بتقسيم المحاكم الى مناطق، وتقسيم الحكام الى اصناف ومراتب في آن واحد.

4 – تحديد حد أدنى من الزمن لبقاء الحاكم في كل منطقة.

5 – جعل الندب ضمن المنطقة الاستئنافية من اختصاص محكمة الاستئناف (الهيئة)، اضافة الى اختصاص مجلس القضاء الاعلى بهذا الشأن.

وبهذه المناسبة يقترح البعض، تشجيعا للاشتغال في الاماكن النائية غير الصحية، زيادة المخصصات القضائية بصورة تتناسب والمستوى الصحي والاجتماعي للمكان ومدى ابتعاده عن بغداد ومراكز المحافظات، بحيث يكون هناك جدول بالمخصصات تتحقق فيها العدالة، أو ان يكون للحاكم المشتغل في الاماكن النائية مزايا خاصة بالإجازات السنوية أو القدم لغرض الترفيع أو الخدمة أو النقل الى بغداد.

ترفيع الحكام – رغم ما ورد في قانون السلطة القضائية من شروط، اغلبها شكلية، فان القانون يكاد يخلو من ضوابط موضوعية محددة للترفيع، حتى يكاد الامر ان يكون حسابيا في مجمل تنظيمه، مما ادى بمرور المُدد الى تسلل بعض العناصر الهزيلة الى مراكز قضائية حساسة ما لبث ان انكشف امرها، فتناولها سيف التطهير دون ان تشفع لها قرب حصولها على الترفيعات والتشكرات.
وبالمقابل من المؤسف ان يحرم القضاء من بعض الكفاءات لأسباب سياسية لا علاقة لها بالحرص او النزاهة من الترفيع المنصوص عليه في القانون.
ويرى البعض ضرورة الاخذ بنظام التدرج القضائي على غرار ما هو في بعض الدول العربية.

حياد القاضي واستقلال القضاء

لرجال العدالة مهمتان متميزتان متلازمتان (وأحيانا متناقضتان): الأولى، حماية المجتمع والنظام السياسي، والثانية ضمان حقوق الفرد والجماعات. ويقوم بعض رجال العدالة بالمهمة الاولى (حكام التحقيق، ضباط الشرطة القضائية) وآخرون مسؤولون عن القيام بالمهمة الثانية (المحامون). في مستوى ثالث يوجد الحكام الذين يساهمون في كلتا المهمتين متى طلب منهم اصدار قرار في تهمة أو دعوى. ان قرار الحاكم هو نهاية المطاف، وعلى قراره يتوقف تحقيق (العدالة). هذا هو القول النظري الذي يكرره اساتذة القانون دون ملل، وتردده المجلات القانونية باستمرار، ويؤكد المشرع في نصوصه. ولكن الواقع ان جهاز القضاء جزء من دولة وحجر في نظام، والحاكم يخضع الى ضغوط ايديولوجية واجتماعية وسياسية ومادية كثيرة. انه أولا،

وبطبيعة مهمته، خاضع لأوامر المشرع (من هو المشرع؟): وهو ايضا يخضع لضغوط منوعة: المتقاضي يبذل جهودا كبيرة ليس فقط في توكيل محام متنفذ بل يلجأ الى (الوساطات) يستغل العلاقات القبلية والعائلية والدينية والطائفية والسياسية والشخصية.. الخ .

المطلوب من الحاكم ان يكون محايدا إزاء التأثيرات المختلفة عدا التشريع. وكلما زاد فساد المجتمع وجهاز الدولة كلما تحمل ضغوطا اكبر. وتوجد دائما خلف العدالة الظاهرية عدالة حقيقية قلما تظهر للعيان، وتوجد ايضا مفاسد حقيقية يصعب اكتشافها من قبل الناس، ورجال القضاء في جميع الدول هم ادرى بما في دارهم.

ان التناقض بين حياد الحاكم وبين الضغوط الكثيرة التي يتعرض لها يدفع الحكام الى الانزواء عن المواطنين. هذا الانزواء محل نقد مبرر لان المتقاضي يريد عرض قضية على الحاكم مباشرة، ولكن الحاكم يتحاشى الضغوط قدر امكانه سيما في المجتمعات المتخلفة. ان الحكام الجديرين حساسون إزاء الضغوط المباشرة التي تؤثر في حيادهم لذا هم يؤثرون الابتعاد عن الناس. بعضهم يظهر بمظهر الرجال الغامضين غير المفهومين واحيانا تحت ضغط الظروف غير محبوبين من الجمهور. ومن المؤكد ان القضاء في نظامنا الحالي يخلق لدى المواطن المسالم شعورا غامضا بالقلق والاطمئنان معا. الحكام غير محبوبين احيانا هل هذا صحيح الى حد ما؟ ولكنها هي اللعبة الاجتماعية التي يجب قبولها والتسليم بها ما دام نظام انتخاب الحكام غير مأخوذ به في بلادنا.

ان العمل الخفي للحاكم كبير وغير واضح للناس. واصدار حكم معين لعمل طيب، انه يحتوي على جانب اخلاقي لا يمكن وزنه كميا.

يطرح في فرنسا سؤال ذو مغزى: هل ان القضاة الذين اصدروا قرارات ذات محتوى طبقي كانوا يشعرون بالضغط؟ الواقع ان الحاكم ابن المجتمع، وتكوينه الايديولوجي مكتسب من محيطه. لقد تعلم من عائلته وهو صغير احتقار المهن الدنيا، وهو ينظر الى ابن العائلة الغنية المتنفذة، والى حامل الشهادة العالية، نظرة خاصة محاطة بهالة من الاحترام الخفي. والحاكم يقر هذا الموقف من ذاته دون ضغط خارجي، وقراره الطبقي المبني على هذا الاساس الايديولوجي عادل بالنسبة له، وهو غير عادل موضوعيا. والقضاء العراقي زاخر بأمثلة ومواقف تميز بين المتقاضين على اسس طبقية واجتماعية.

ان اغلب الحكام يخشون الضغوط السياسية والإدارية، ولكن كيف تتم حمايتهم منها؟ عادة يقدم المشرع ضمانات قانونية في مجالات الانضباط والترفيع والنقل. لكنها ضمانات غير كافية. فالحاكم الذي يعين بالواسطة وينقل بالواسطة يحتاج الى درجة عالية من متانة الخلق لكي يكون مصدرا من مصادر الحياد والعدالة في تطبيق القانون. ان النظام السياسي الحر وانتشار الديمقراطية هما كفيلان بحماية الحكام من الضغوط السياسية والإدارية.

الى جانب الضغوط المختلفة يوجد ما هو امر واقعي. فما هي الضمانات ضد الإغراء؟ الإغراء بعضوية محكمة الاستئناف او التمييز مثلا؟ يقولون في فرنسا (لقد ابعدنا العصا ولكن الدينار باق). يقولون ان القاضي المستقل هو الذي لا يطمح الى شيء آخر. وفي النظام الفاسد يوجد نوعان من الحكام: الحكام الطموحون والحكام المنزوون. هناك حكام يطمحون في التقدم لقاء تنازلات معنوية على حساب العدالة، وحكام باقون في مراكزهم ومنسيون ينتظرون يوم احالتهم

على التقاعد بهدوء. ان الحاكم بشر من لحم وأعصاب، والنظام السياسي والقضائي هو المسؤول عن حمايته من الضغوط السياسية والإدارية، اما الحاكم فهو المسؤول عن حماية نفسه من الاغراء المدمر، اما الضغوط الطبقية والإيديولوجية والفكرية فهي تخرج عن نطاق هذا المقال وتدخل ضمن دراسات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة. وعلى كل حال يجب القول بان على الادارة الابتعاد عن استخدام القضاة اداة رقابة أو اداة دعم سياسي. يجب ان تعرف الحكومة – اي حكومة – ان القضاة حكام طبيعيون مكلفون بتطبيق القانون وحماية حريات الافراد ولا يجوز، باي حال من الأحوال، قيام قضاء آخر مواز لقضاء الدولة. يجب عدم المزج بين الادارة والعدالة ووضع حدود بينهما، هذا هو واجب مجلس القضاء الاعلى بالذات.

استقلال القضاء – كلمة أخيرة حول استقلال القضاء، الذي يجري الحديث عنه في جميع الدول دون تحديد مفهومه بوضوح.

وإذا كان ضمان الشرعية في العلاقات والتصرفات يوجب على القضاء ان يكون مستقلا فان مفاد الاستقلال هنا يعني جعل الاعتبار الاول للقاعدة القانونية وتطبيق القانون وحده على الحالات الفردية المعروضة. ويخطئ من يفسر استقلال القضاء بأنه وجود فوق المجتمع أو بعيد عن الدولة. ان التعريف التقليدي له انه إحدى سلطات الدولة، بمعنى انه جزء منها، وان وظيفته تطبيق القانون، وليس القانون كلمة هابطة على المجتمع من خارجه معروضة عليه، بل هي قواعد تنظم العلاقات فيه، تصدر وتكسب شرعيتها من اعلى سلطات الدولة، من جهاز التشريع، ويتشكل مضمونها بالضرورة وفقا لمصالح القوى الاجتماعية والطبقات المسيطرة على الدولة. والقضاء جهاز يلتزم بهذه الشرعية ويطبق النظام القانوني القائم، وهو يتشكل، وظيفة ونشاطا وافرادا، بشكل هذا النظام وينطبق بصورته.

ان الشرعية مادة عمله، والعلنية هيكل بنائه وهو بتكوينه يفتقد الوسائل المادية لاستلاب سلطة غيره، الامران الاولان يجعلانه يرتبط بالرأي العام والأمر الاخير يجعله لا يستطيع الاعتماد إلا عليه عند قيامه بوظيفته. وهو بهذا يكمل سلطة التشريع ويحد من السلطة التنفيذية. وذلك وصف مجرد يتجسد في اشكال متباينة ونظم مختلفة في كل دولة من الدول حسب تطور المجتمع والعلاقات الاجتماعية.

ان ما سطرناه اعلاه ما هي إلا آراء أولية حول نقاط متفرقة غير متكاملة، تمس الاجهزة القضائية والنظام القضائي عموما في العراق. ونحن نعترف أن دراسة جديدة للمؤسسات القضائية في قطرنا تتطلب بحثا متواصلا ونقاشا هادفا يخرج عن نطاق المحاولات القديمة التي بقيت حبيسة الايديولوجية الفردية والتكنيك القانوني التقليدي.

اننا لا نشك بقدرات رجال القانون ورجال العدالة في بلادنا على استخلاص النتائج من مطالعاتهم وتجاربهم العملية وعلى وضع اسس اصلاح جذري شامل لانظمة القضاء بعيدا عن اطر الملكية الفردية وقواعد القانون المدني الرأسمالي. ان الحياة اقوى من ان يقف امامها وقفة جامد ومتخلف، والمشرع العراقي بدأ يتأثر بالموجات الاشتراكية والفلسفة الجماعية. واذا ما بقينا ندور داخل الحلقات التي رسمها لنا السابقون، فان جيلا جديدا من الحقوقيين الشباب سوف يكذبنا وسوف يجتازنا دون تردد.

ان باب النقاش مفتوح لجميع الحقوقيين، والآراء التي قدمناها خاضعة للنقد والتعديل.. انها مجرد محاولة اولى على الطريق.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (3)
تتمة تقرير قاسم حسن - 1941
الى الكومنترن*

ترجم التقرير عن الروسية: د. عبد الله حبة

في مجلة «المجلة»، كما صدرت في كتاب بعنوان «من اجل الجبهة الوطنية الموحدة»، حيث تحلل الدعاية الفاشية في بلادنا وتعارض الميول اليسارية واليمينية المتطرفة، التي تزور روحنا الوطنية.

ان حزبنا يسعى الى ان يجعل الطلاب كوادر قوية، والطلاب الذين يعرفون اسس المادية الديالكتيكية والتاريخية والاقتصاد السياسي، وكذلك يعرفون بأية مرحلة من العملية التاريخية تمر بلادنا.

قام حزبنا بترجمة الكتب الضرورية من اللغة الانجليزية وآخرها الباب الرابع من موجز تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي). وتم توزيع الأدبيات المذكورة في أوساط الطلاب من اجل دراستها بصورة وافية.

في يناير عام 1941 بدأ حزبنا حملة واسعة من توزيع المناشير. ودعت جميع العناصر التقدمية والثورية الى الوحدة من اجل تنفيذ مهمتها التاريخية، من اجل النضال ضد الحرب التي لا تجلب شيئاً الى البلاد سوى الخراب.

ويشرح المنشور ان حركتنا الثورية لا علاقة لها بما يسمى القمع القومي – الفاشي. وقد وزع هذا المنشور على نطاق واسع ونوقش في كثير من الاوساط السياسية في البلاد واضطر الوزير رشيد عالي الكيلاني، الى الاعلان بأن بلادنا لا علاقة لها البتة بالحرب الامبريالية ويجب ان تبقى بعيدة عن هذه الحرب.

تلكم هي نتيجة سياستنا.

لقد وافق حزبنا على بيان رئيس الوزراء هذا ونشر اقواله في صحيفته غير العلنية وعرض على الاوساط السياسية دعم السياسة الخارجية لرئيس الوزراء. وفي الوقت نفسه عرض الحزب على مجلس الوزراء اتخاذ التدابير في مجال الرقابة الاقتصادية في البلاد، لأن مستوى معيشة الجماهير واطئ للغاية، نتيجة استغلال البرجوازية الصناعية والتجار وضع الحرب لجني الارباح الطائلة.

آنذاك اعلن الحزب للوزير بأنه اذا كان فعلاً يؤيد سياسة السلام، فيجب عليه بدء المباحثات مع الاتحاد السوفيتي حول

القضايا الاقتصادية والسياسية، لأن هذا يعتبر الفرصة الوحيدة لإثبات اخلاصه للبلاد وتحسين حياتنا الاقتصادية والسياسية.

وقد نوقش هذا الاقتراح في البرلمان من قبل اللجنة التي يترأسها يونس السبعاوي واتخذ قرار يقترح على مجلس الوزراء مناقشة هذه المسألة وبدء المباحثات مع الاتحاد السوفيتي.

ووجدت الامبريالية البريطانية أن هذا الأمر يمكن استغلاله ضد حكومة رشيد عالي الكيلاني التي يوجد فيها بعض العناصر الموالية لبريطانيا، من اجل اثارة أزمة سياسية في البلاد، الأمر الذي يرغم رشيد عالي على الاستقالة وكان السعيد (المقصود نوري السعيد – المحرر) يتزعم الحركة الموالية لبريطانيا.

كانت هذه الفترة بالنسبة الى الحزب مناسبة لكي يشرح الوضع للجماهير، ودعوتها للنضال ضد السياسة الإمبريالية، وإيضاح أن عملاء بريطانيا يسعون سراً الى اقصاء حكومة رشيد عالي واستبدالها بحكومة موالية لبريطانيا.

وفي الوقت نفسه وجب ان يبرهن رشيد عالي على ان الطبقة العاملة وحتى قسم من البرجوازية تطالب بإتباع سياسة السلام والعلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

وهكذا كان العدد الثاني من صحيفة «الشرارة» لسان حال الحزب الشيوعي، وقد ألهم رئيس الوزراء بدعم الحركة الجماهيرية الواسعة على المضي في هذا الدرب.

ووجد الحزب ان من الضروري العمل مع العناصر الوطنية – الثورية البرجوازية والاشتراكيين والقوميين وغير الحزبيين الذين ايدوا سياسة الحكومة المعادية للامبريالية. وقد طرحت فكرة تأسيس الجبهة الوطنية الموحدة ضد الامبريالية. وأيدتني كافة الجماهير غير الحزبية. وكانت في حوزتنا «المجلة» الصحيفة التقدمية العلنية المعادية للامبريالية.

وعاجل السفير البريطاني بسرعة للعمل من اجل تعميق الازمة وتغيير الحكومة بأسرع ما يمكن قبل ان يحدث الاشتباك المحتمل مع حركة جدية. وأرغم الانجليز عميلهم نور السعيد على الاستقالة. وفي الوقت نفسه ارغموا عبد الاله على ترك عمله في القصر. ورفض تنفيذ تكليفات الحكومة والسفر الى الديوانية، حين دبر عملاء بريطانيا تمرداً رجعياً ضد رشيد عالي. كما استقال وزيران آخران، وحل محلهما وزيران جديدان يؤيدان رشيد عالي الكيلاني. وعندئذ طلب السفير البريطاني من الحكومة قطع العلاقات مع ايطاليا وتنفيذ المعاهدة بين العراق وبريطانيا، اي وضع كافة الوسائل تحت تصرف بريطانيا وعدم بدء المباحثات مع الاتحاد السوفيتي.

وقد رفضت الحكومة هذا الطلب.

سافر عبد الاله الى الديوانية مع عدد كبير من الوزراء الرجعيين وصار يدعو من هناك جميع المحافظين لقطع العلاقات مع ما يسمى حكومة رشيد عالي غير الشرعية، معلناً ان الحكومة توجد في الديوانية.

وأدى هذا كله الى اندلاع حرب اهلية بين بغداد والمدن الشمالية من جانب، وبين اقاليم جنوب العراق التي تدعمها القوات البريطانية من جانب آخر.

فاستقال رشيد عالي، وتم تشكيل حكومة

جديدة برئاسة طه الهاشمي احد العناصر الرجعية.

بدأت الحكومة التنكيل بالوزراء السابقين وجميع مؤيديهم. وتشكلت حركة رجعية جديدة تدعمها الحكومة.

وفي صباح مبكر من يوم تشكيل حكومة طه الهاشمي خرجت تظاهرة كبيرة في الشوارع نظمتها القوى الثورية التي كانت تؤيد الكيلاني وشارك فيها رفاقنا الذين دعوا الى سياسة السلام وعارضوا التدخل الامبريالي في شؤون العراق. واستخدمت الشرطة السلاح في تفريق التظاهرات.

لقد كانت ايام وجود حكومة الكيلاني درساً بليغاً لمن يخاف تشكيل الاحزاب والنقابات والاتحادات. كما كان درساً للذين ايدوا الكيلاني في انه لا يمكن ان توجد أية حركة من دون دعم الجماهير الشعبية الواسعة وان من العبث العمل مع فئات صغيرة. وكان هذا درساً فعلياً لمن يمارس السياسة، يدل على ان الشيوعيين بالذات يمثلون المناضلين الحقيقيين ضد الامبريالية وأنهم على صواب في نصائحهم ولدى طرح شعاراتهم. وفي هذه الايام كانت «الشرارة» (الجريدة الشيوعية السرية) المعبر الفعلي عن ارادة الشعب. ان العناصر الثورية (القوميين) والوطنيين والآن الوطنيين الثوريين والاشتراكيين وحتى الوزراء السابقين الذين قمعوا الشيوعيين، بدأوا بدعم ما طرحه الشيوعيون في جريدتهم.

لم يوقف الحزب حملته ضد الحرب مطالبا بحرية المنظمات وحرية الصحافة وحرية العمال في تأسيس نقاباتهم. وواصل الحزب العمل من اجل خفض الاسعار وعارض الاحتكاريين وجميع المنتفعين من الحرب، وطالب برفع الاجور للعمال في كافة المعامل الصغيرة.

قام الحزب بتنظيم الطبقة العاملة، واعد عمال صناعة الأحذية والمعامل الصغيرة للإضراب من اجل المطالبة بزيادة الاجور وتحسين ظروف العمل من جانب، كما أيد وألهم الحركة المنظمة للعناصر الوطنية الثورية في جانب آخر.

وصدرت اعداد «الشرارة» 3 و4 و5 الواحد تلو الآخر، والتي تضمنت هذه المطالب وشرح دور الحركة الوطنية الثورية والحركة المنظمة للطبقة العاملة في هذه المرحلة من تاريخ نضال الشعب ضد الامبريالية.

لقد بدأت الحركة السرية للمثقفين الثوريين الوطنية بزعامة يونس السبعاوي والكيلاني نشاطها كحزب شعبي، وكمنظمة ثورية فعلاً، تناضل ضد الفاشية والامبريالية وترأس الحزب جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي.

ايد اتحاد الدفاع عن فلسطين واتحاد الجوال matal جماعة رشيد عالي. ودعم الحزب الشيوعي توجهاتها المعادية للإمبريالية إلا انه كان اقرب الى جماعة ابو التمن والجادرجي.

واقترحتُ ان يلتقي الجادرجي مع رشيد عالي وان يتحدث معه بصراحة وبشكل ودي، حول انه اذ كان لمجموعته وأنصاره ميولاً فاشية ما، فان رشيد عالي سيفقد دعم الجماعات الثورية وتأييد الشيوعيين. فأجاب رشيد عالي بأنه يعمل ليس من اجل استبدال الامبريالية البريطانية بالامبريالية الفاشية. وقال انني لن اعطي أية فرصة للذين يبدون أية ميول كهذه.

بيد ان بعض اعضاء اتحاد الدفاع عن فلسطين وعدة اعضاء في اتحاد matal وبعض مؤيدي الكيلاني كانت لديهم ميول فاشية وشبه فاشية وكانوا حتى ذلك الحين يروجون الدعاية ضد الشيوعية والشيوعيين، والآن في هذه اللحظة الحرجة من النضال يريدون تناسي أو ايقاف العمل مؤقتاً ضد الشيوعيين.

ومن الضروري ملاحظة ان دور مفتي فلسطين وأتباعه كان قوياً جداً في هذه الحركة. وكان الكيلاني تحت تأثير المفتي بصورة كاملة، والذي كان اكثر خبرة منه. فهو كان يعرف ان القوة تكمن في الشعب والأمة والجماهير الواسعة المشاركة في الحركة. كما كان يعرف كيف يتم التوصل الى حل وسط في الوقت المناسب. كما ان قادة الجيش كانوا تحت سيطرة المفتي. ومارست الضغط على الكيلاني بالرغم من كل رجعية جميع هذه القوى.

ان الحركة الرجعية بقيادة حكومة طه الهاشمي عقدت صفقة مع بريطانيا، ومارست تأثيرها في عقول الناس، الذين صاروا يطالبون بإبداء معارضة شديدة للسياسة الاستعمارية البريطانية في العراق. وقد ادى ذلك الى ان الجماهير صارت تبدي السخط من حكومة طه الهاشمي. وقد مارس هذا تأثيره في الكيلاني، وأرغمته على العمل لصالح الشعب، ومن اجل السلم وضد الحرب وضد التدخل البريطاني في سياسة العراق، وكذلك ضد الاحتكاريين الذين اوصلوا الجماهير الى الوضع البائس. وعارض الحزب الشيوعي سياسة الهاشمي الرجعية، ودعا الى اتباع سياسة الكيلاني السلمية، والى الحريات الدستورية التي تضمن للبلاد دستوراً ديمقراطياً.. اي حرية المنظمات والأحزاب والنقابات وحرية الكلمة والصحافة.

كان طه الهاشمي يقف بين تيارين قويين:

1- ضغوط الشعب وإرادته في المعارضة.

2- ارادة بريطانيا التي توفر الحماية لمصالحه الطبقية.

وقد آثر ان يبقى الى جانب بريطانيا. وبهذا خضع الى اسياده الانكليز الذين كانوا يطالبونه بإقصاء قادة الجيش ونفيهم. لكن قادة الجيش لم ينصاعوا لإرادته وطالبوا بان لا يتدخل في شؤون الجيش وعدم الاصغاء الى مطالب الانجليز. وعندئذ حدثت أزمة سياسية جديدة، أزمة بين القصر والحكومة من جانب والجيش ورشيد عالي والشعب من جانب آخر.

وكان من المهم للغاية من الناحية التاريخية مواصلة الحملة ضد السياسة الاستعمارية في البلاد، وأنصارها الرجعيين واستنهاض الشعب الذي يمارس دوراً قيادياً في المعارضة. وفي الوقت نفسه كان من الضروري ايضاح الاهمية التاريخية للحركة، وفضح وإقصاء الميول شبه الفاشية التي كان الرجعيون يسعون بواسطتها الى فرض سيطرتهم على الحركة.

وهذا يمس بصورة خاصة الجيش ووزارة المعارف. ومجمل القضية ان بعض الاحزاب السياسية اختارت الصفة الفاشية كمعارضة للسياسة الاستعمارية البريطانية. ان غالبية الذين اعتقدوا انهم يجب ان يعملوا وفق الميول الفاشية، لم يكونوا يعرفون ما هي الفاشية فعلاً.

لهذا كان من الضروري للغاية بالنسبة لنا،

وكذلك بالنسبة للمناضلين ضد الفاشية، مواصلة النضال ضد الفاشية، وبذل كافة الجهود من اجل تغيير مواقف المظلل بهم والقول لهم: «انتم لستم فاشيين، انتم افضل من الفاشيين كثيراً، وانتم لستم رجعيين، بل انكم ثوريون وطنيون حقيقيون، لهم دور تاريخي هو قيادة الامة للنضال ضد الامبريالية وتحرير الامة من نير الامبريالية. انتم لستم عملاء فاشيين، انتم تناضلون من اجل مصالح شعبكم، من اجل الدخول في مرحلة تاريخية جديدة، مرحلة الديمقراطية البرجوازية، والقضاء على نظام الإقطاع، وعلى الامبريالية. انتم تناضلون وتريقون الدماء ليس من اجل ان تحل محل الامبريالية امبريالية جديدة اكثر رجعية وارهاباً». تلكم كانت المهمة الاساسية لحزبنا وحلفائه الثوريين في فبراير – مارس 1941.

لقد اصبحت جريدتنا «الشرارة» من اكثر الصحف احتراماً وشعبية في اوساط الثوريين الوطنيين. وسعى الجيش الى ان يظهر تأييده لسياسة حزبنا.

اسفرت الازمة السياسية وموجة المعارضة عن استقالة حكومة طه الهاشمي. ووجد عملاء بريطانيا ان هذه الظروف تشكل ضربة خطيرة وموجعة الى سياستهم. فأمروا عبد الاله، الوصي القائم بمهام الملك، بعدم قبول الاستقالة، والإعلان عن مغادرة القصر والتوجه الى سن الذبان (القاعدة الرئيسية للجيش البريطاني، الكائنة بالقرب من الرمادي على نهر الفرات).

غادر عبد الاله الى سن الذبان، بينما ترك طه الهاشمي منصبه، وأصبحت البلاد بلا حكومة وبلا ملك.

ووجدت المعارضة ان هذا الوضع مناسبة للاستيلاء على السلطة بمعونة الجيش. علماً انه لم يجد اية معوقات او صعوبات. وتوجه رشيد عالي الكيلاني في مطلع ابريل – نيسان الى مجلس الوزراء وتولى مهام المسؤولية. لكن كيف يمكن تشكيل حكومة حين لم يقبل الملك استقالة رئيس الوزراء السابق بعد؟ فاقترح يونس السبعاوي ان تتولى السلطة حكومة الدفاع الوطني (كما حدث في ايام الثورة الفرنسية الكبرى في عام 1789).

وبهذا تم تشكيل حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني بدعم الجيش الوطني.

وعندما وجد طه الهاشمي، رئيس الوزراء السابق، ان موجة المعارضة اصبحت قوية جداً، حيث حظيت بدعم الجيش والمثقفين والجماهير المعادية لبريطانيا. اضطر الى الاستقالة.

ووجدت الامبريالية البريطانية بصورة رئيسية، الممثلة بالسفير البريطاني، ان خروج الهاشمي يشكل ضربة شديدة الى سياستها ونصراً للمعارضة على الامبريالية البريطانية وفي الوقت نفسه نصراً لرشيد عالي الكيلاني، كما كان ذلك هزيمة ساحقة للسياسة البريطانية، حيث كان رشيد عالي عدواً لها، ولم ينفذ المعاهدة بين العراق وبريطانيا التي كانت تلزم العراق بدعم بريطانيا في اثناء الحرب، وتوفير جميع وسائل النقل لها.

بدأت بريطانيا مناورتها السياسية بإرغام الوصي عبد الاله على عدم قبول استقالة طه الهاشمي. لكن قادة الجيش الذين كانوا ضد عبد الاله طلبوا منهم قبول الاستقالة

حتماً. عندئذ اختفى عبد الاله. وفي هذا الوقت ارغمت بريطانيا جميل المدفعي (رئيس الوزراء الحالي) على السفر الى مدينة الموصل من اجل نشر الدعاية ضد رشيد عالي الكيلاني. كما طلب من علي جودت (وزير الخارجية) بدء الحملة ايضاً ضد الكيلاني. فاستولى رشيد عالي الكيلاني على السلطة بمساعدة القوات المسلحة للجيش. وفي مطلع أبريل/ نيسان عام 1941 اذاع الراديو العراقي «بيان القيادة العامة للجيش» (محمد امين زكي) تحدث عن الوضع الخطير في البلاد وعن اختفاء الوصي، مما اضطر الجيش الى اخذ السلطة بيديه، وتشكيل حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني، لحين معالجة الظروف السياسية الصعبة على أساس الدستور.

وأعلن رشيد عالي الكيلاني في كلمة بثت من الاذاعة: «ليس من مصلحة امتنا المشاركة في الحرب الامبريالية الجارية الآن، وليس من مصلحة امتنا تحويل بلادنا الى ميدان للمعركة. وسأعمل كل ما في وسعي من اجل ابقاء العراق بعيداً عن الحرب. وسأعمل كل ما في وسعي من اجل تعزيز مصالحنا الوطنية».

كانت البلاد في تلك الفترة في وضع صعب جداً. وبدأت الازمة الاقتصادية وأغلقت جميع الطرق الى البلدان الاخرى واخذ المضاربون برفع الاسعار. وأصبحت الفئات الفقيرة من السكان اكثر ادقاعاً وازدادت البطالة.

وبدأ الشعب العراقي العمل ضد الامبريالية البريطانية منذ عام 1939 بسبب الاحداث في فلسطين. وعملت عناصر فلسطينية ثورية كثيرة قدمت الى العراق على دعم وإلهام الشعب العراقي في نضاله ضد الامبريالية البريطانية. وكان قسماً كبيراً من رؤوس الاموال المستثمرة في مختلف مجالات اقتصاد البلاد يعود الى البنوك الأجنبية، ولهذا وجد الرأسمال الوطني صعوبة في ممارسة دور مستقل في الحياة الاقتصادية للبلاد وبات واضحا تماماً ان الذين يكسبون من الحرب يقفون الى جانب الرأسمال الأجنبي، كما بات واضحا تماماً للشعب ان السياسة الامبريالية والرأسمال الاجنبي ممثلا بـ (ايسترن بنك) وغيره هو السبب الفعلي لفقر الشعب. كما مارس الرأسمال الصهيوني دوراً سلبياً في اقتصاد البلاد.

في فترة الحكومات السابقة انتقل قسم كبير من الاراضي الى ايادي الاشخاص المرتبطين بالرأسمال الأجنبي، وأصاب الافلاس غالبية اصحاب الاراضي الصغار، وأرغمتهم الديون الضخمة على بيع اراضيهم وبدأ انتقال الرأسمال المكتسب في البلاد الى الخارج.

كانت الحكومات تعقد صفقات مع الصناعيين المرتبطين بالرأسمال الاجنبي وكان الناس يعرفون ذلك وعدا ذلك السبب الذي دعا التجار الصغار والكبار في البلاد، الذين عانوا بشدة من المصاعب المالية الى النضال ضد الرأسمال الاجنبي.

كانت اجور العمال ضئيلة للغاية، وبهذا يمكن القول انه كان من الممكن استخدام مشاعر الناس ضد الامبريالية البريطانية وأعوانها كأداة للدعاية ضد بريطانيا.

لذا فعندما جاء رشيد عالي الكيلاني الى السلطة اعرب عن رغبته في اتخاذ تدابير

تقدمية في البلاد، وإبعاد البلاد جانباً عن الحرب ووقف ضد المشتغلين الاجانب وعمل كل شيء لصالح الامة ووقفت غالبية الشعب الى جانبه.

دعت حكومة الدفاع الوطني الجديدة الى انعقاد البرلمان وطلبت منه تعيين وصي جديد على العرش وتم تعيين الشريف شرف الذي عين رشيد عالي الكيلاني لاحقا رئيسا للوزراء. وتألفت الحكومة مما يأتي:

1 – ناجي شوكت – وزير الدفاع.

2 – محمد يونس السبعاوي – وزير الزراعة.

3 – علي محمود – وزير العدل.

4 – محمد حسن سليمان – وزير المعارف.

5 – محمد علي محمود – وزير النقل.

6 – موسى الشابندر – وزير الخارجية.

7 – ناجي السويدي – وزير المالية.

8 – الكيلاني – وزير الداخلية.

9 – محمد صديق شنشل – مدير الدعاية.

علما ان هذه التشكيلة الوزارية غير متجانسة. انها تضم عناصر مختلفة وكانت النواة الرئيسة للحكومة تتألف من الكيلاني وشوكت والسبعاوي وعلي محمود.

ان سيرة حياة رشيد عالي زاخرة بالصفحات القاتمة في حياته، فهو رجل دين رجعي وقمع ثورة عام 1935 بالتنكيل الدموي بالشعب.

ويعرف علي محمود في البلاد بصفته قوميا وذا اتجاهات رجعية. وناجي شوكت عنصر تقدمي ديمقراطي ويونس السبعاوي من العناصر الثورية النشيطة وذو اتجاهات تقدمية. وناجي السويدي، منافق ورجل محتال جداً واتبع دوماً سياسة موالية لبريطانيا. وموسى الشابندر اكبر رأسمالي في العراق وموالي للفاشية وعاش في المانيا سنوات عدة. محمد علي محمود محامي كبير في العراق ورأسمالي كبير ويستغل منصبه لمصالحه.

لذا لا نستطيع تسمية هذه التشكيلة الوزارية المختلفة العناصر بانها حكومة ثورية، لكن آخذا بنظر الاعتبار الوضع الناشئ، يمكن للعناصر الثورية ان تعمل فيها.

لقد كانت فرصة جيدة للشيوعيين لبدء حملتهم الواسعة من اجل تشكيل الجبهة الوطنية الموحدة ضد الامبريالية وأقيمت الفرصة لتحشيد العناصر الثورية في قوة موحدة ضد الفاشية والامبريالية. وقد اقترحت على حزب الشعب الذي كان غير علني آنذاك برئاسة جعفر ابو التمن عقد مؤتمر لجميع العناصر الثورية ومناقشة الوضع السياسي في البلاد وعقد المؤتمر وشارك فيه اعضاء حزب الشعب ومن مندوبين عن العناصر الثورية المعادية للفاشية و 7 اشخاص غير حزبيين. وجاء في القرارات ان التغييرات السياسية الجارية في البلاد هي خطوة الى الامام. كما تقرر اعلان موافقة المؤتمر على السياسة الخارجية للحكومة، وكذلك مع السياسة بشأن الحرب واقر المؤتمر التدابير الاقتصادية للحكومة.

وطرحت امام المؤتمر مسألة تأسيس رابطة سياسية جديدة تتولى الضغط على الحكومة وتوجيهها في النهج الثوري. وبعد المناقشات تم تأجيل المسألة الى الدورة القادمة، لكن تقرر اعتماد ممثل واحد يتولى

ابلاغ رئيس الوزراء بقرار المؤتمر دعم السياسة الخارجية للحكومة. وفي المستقبل ايضا اذا ما اتبعت سياسة تقدمية في داخل البلاد.

في هذا الوقت استبدلت الامبراطورية البريطانية سفيرها في العراق، وابتعث السير كورنيل واليس المعروف جيدا لدى الشعب العراقي، حيث كان قبل هذا وعلى مدى 14 عاماً في العراق بصفة مندوب سام في البلاد الى خدمة الانتداب البريطاني.

بدأ السفير الجديد بجرجرة الوقت قبل تقديم اوراق اعتماده الى وزير الخارجية، وجرجرة المناقشات حول القضايا المتعلقة بعقد المعاهدة بين بريطانيا والعراق. وفي هذا الوقت وصلت قوات مسلحة بريطانية الى البصرة، فاستولت على البصرة وطلبت السماح بدخولها الى الشعيبة – المعسكر البريطاني بالقرب من البصرة – وكانت هذه القوات تتألف من 3 فرق ميكانيكية واضطرت الحكومة العراقية إلى اعطاء الرخصة لها، لكن بموجب المعاهدة طلبت انتقالها من هناك الى فلسطين.

وأثار هذا الحدث الاضطرابات في صفوف الشعب، وتساءل الكثيرون: اين القوات المسلحة العراقية ولماذا لم تقاوم القوات المسلحة البريطانية؟

وطفق السفير في هذه الاثناء باستعادة الصلات مع اصدقائه القدامى من اقطاعيين ورأسماليين، فيما شن عملاء بريطانيا نشاطا واسعا ضد الكيلاني وخطب الوصي عبد الاله من الراديو ضد رشيد عالي الكيلاني وقادة الجيش ووصفهم بأنهم عملاء لبريطانيا.

وبدأت المناقشات بين السفير البريطاني والحكومة بشأن المعاهدة، فطلب السفير من الحكومة العراقية منح الامبراطورية البريطانية وسائل المواصلات وتقديم مساعدات أخرى.

في هذه الفترة انبثقت امام الحزب ضرورة طرح بعض القضايا الاقتصادية والسياسية امام الشعب. وقرر الحزب توزيع منشور يوضح فيه الواجب الوطني الثوري للحكومة والجيش والشعب، وطلب الحزب وضع حد للإجحاف السياسي عن طريق منح الحريات وتأسيس الاحزاب السياسية والنقابات وألخ، من المنظمات السياسية. وتضمن المنشور دعوة الحكومة الى بدء المباحثات السياسية والاقتصادية مع الاتحاد السوفيتي، كما طالب الحزب بوضع حد لتعسف الرأسماليين الاستغلاليين وطالب الحزب الحكومة بان توقف الدعاية الفاشية.

وأثار هذا المنشور انطباعاً كبيراً لدى الناس والأوساط السياسية، التي بدأ الكثير منها بتصديق ان من الممكن منع هجوم بريطانيا وعقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي من اجل تعزيز البلاد.

وتقرر ارسال وزير الدفاع الى تركيا وبدء المباحثات مع الاتحاد السوفيتي، وفي هذا الوقت اعلنت الحكومة أن لا حاجة لقطع العلاقات مع ألمانيا، مشيرة الى انها تستطيع اجراء المباحثات مع الاتحاد السوفيتي ومع الابقاء على العلاقات التعاقدية مع ألمانيا.

كان الجيش العراقي يستعد لمواجهة الوضع الجديد، لكن الشعب لم يكن يعرف ما يجري في الاوساط السياسية والجيش، وبقي ذلك كله في طي الكتمان لدى الجماهير

وأرسل حزبنا مذكرة الى الحكومة جاء فيها: «ان الحكومة ترتكب جريمة بإخفائها عن الشعب جميع القضايا التي تقرر مصير هذا الشعب».

لقد اثبت التاريخ ان كل حركة سياسية كبيرة في البلاد تصبح عاجزة اذا لم يتوفر دعم جماهير الشعب. وجاء في المذكرة لاحقاً: ان الجماهير تتفهم الوضع السياسي وتدعمكم من اجل ان تتمكنوا فعلا من ابقاء البلاد بعيدة عن الحرب وان تتخذوا بعض التدابير الاقتصادية من اجل تحسين ظروف معيشة جماهير الشعب. ولهذا فان اية ضمانة لنجاحكم هو بمنح الشعب الحريات الديمقراطية.

ان الامبريالية البريطانية تسعى الى السيطرة على جماهير العمال وبالأخص عمال النقل، في السكك والموانئ وهلمجرا.

ان الجماهير الشعبية هي العناصر الاكثر ضمانية وراء خط الجبهة. ويطالبكم هؤلاء العمال بمنحهم الحق في تنظيم انسهم بغية ان يصبحوا قوة لحركة التحرر الوطني. انهم القوة الاساسية التي تستطيع ضمان حرية البلاد واستقلالها.

وأعطى رئيس الوزراء رداً على هذه المذكرة قائلاً: «انا ابن الشعب، ومن اجل الشعب». وقد لجأ رئيس الوزراء آنذاك، لخشيته من حركة الطبقة العاملة، الى الحيلة التالية: فدعا شخصاً ما للتحدث من الراديو باسم العمال وكتب مقالات في الصحف. فاحتج الحزب على هذا الخداع، وبعث باحتجاجه الى وزير الخارجية.

---

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

الشاعر والناقد العراقي ذياب شاهين لـ «الثقافة الجديدة»:

اكتشفت عددا من البحور الشعرية الجديدة!

حاوره: ناظم السعود

في تسعينيات القرن الماضي رأيت، ولأول مرة، الشاعر والناقد العراقي ذياب شاهين بعد ان سمعت عنه أخبارا لافتة تضيء نشاطاته وحيويته وبحثه الدائب عن الجديد الذي سيبقيه تحت اشعة الحقيقة الثقافية. ولهذا كان من الواجب ان ألتقيه واكتب عنه وخصوصا ما تناهى إليّ من انه قد توصل إلى اكتشافات مهمة في علم العروض العربي، تجعله – لو إنها صحت وصدقت – من اهم العاملين في هذا المجال والمجددين لعلم العروض، وحين رأيته في لقاء مجزأ (في بيته بمدينة الحلة ثم في سكني آنذاك بمدينة بغداد) أدركت أنني أمام عقلية متطورة وجادة في سعيها للبحث والإفاضة من علم سيغني به الأدبين العراقي والعربي معا.

وخلال أكثر من عشرين عاما كثرت بيننا الزيارات واللقاءات ونهلت من علمه وكتبه (فقد ظهرت لذياب بعض الكتب ولا سيما من المطابع العربية) ونقلت مجموعة من توصلاته الى القراء في عدد من الصحف التي عملت بها كما أنني استكتبته أكثر من مرة لزيادة الوعي والمعرفة بين المتلقين، حتى في سفره خارج العراق – ضمن موسم الهجرات التي اضطرت إليها نخبة من أدباء ومثقفي العراق لأسباب شتى – أفاد (المهاجر) ذياب شاهين من انفساح الأجواء والمناخات وتعدد مصادر الثقافة في تغذية عناصره الميالة للعلوم المعاصرة والجذور التراثية مما يدفعه لان يكون معبأ وندا لعصره وتراثه معا. وقد سررت حين علمت انه يتواصل في طريق المعرفة ولم يهملها كنتيجة للسفر وانه مسك «العدة الثقافية» من طرفيها: الأدب والنقد وتوثقت عرى الوصل مع الأسماء والعلاقات من حوله وتثقف كثيرا حتى أصبح اسما بارزا وممثلا للشعر الإماراتي في الملتقيات العربية!

قبل أيام اجريت حوارا مطولا مع الشاعر والناقد ذياب شاهين حول (خلاصة) التجربة التي خرج بها بعد سباحته في مياه وأمواج متلاطمة ونقده المنهجي لآثار معاصرة وأخرى ركض أصحابها خلف التراث الذي تعلموه ولكنهم – في المحصلة النصية – قد تباعدوا عنه او هجروه! وبعد انتظار لأكثر من أسبوعين وصلتني الإجابات مجتمعة فكان هذا الحوار:

صدقت نبوءة نازك الملائكة !

***اعرف أنك تكتب وتبحث عن موازين الشعر العربي منذ التسعينيات وكان لك شرف تبشير الشعراء والنقاد بأنك قد توصلت إلى بحور جديدة في الشعر ووضعت تطبيقات شعرية عليها.. فما هو الجديد الذي اكتشفته حول هذه البحور؟**

– الواقع أن علم العروض بوصفه علما مهتما بموازين الشعر مثقل بكل ما هو جديد، وكلما أخوض فيه أجد شيئا غائبا عني أو أنني لم أدركه في حينه، وعليّ الإقرار هنا أن ما وجدته كان متأخرا جدا وربما لم يعد يعني أحدا، أو يمكن القول إنني قد ظهرت في زمن كان الشعر فيه قد تحرر من ثوب العروض والموازين، وبات يبحث عن جماليات أخرى كالبلاغة وتفجير اللغة وشعرنة النثر أو نثرنة الشعر فالمسميات باتت سيان للشاعر الحديث. فالمهم هي أن تأتي بشيء جديد في الكتابة الشعرية حتى لو كانت على حساب الموازين، حيث صدقت نبوءة نازك الملائكة حول انكفاء القصيدة العروضية وهي تلحظ ما كان يظهر حثيثا من شعر منثور في زمنها وخصوصا في لبنان وسوريا على أيدي شعراء – نثار من مثل أدونيس ويوسف الخال ومحمد الماغوط وغيرهم. وأذكر أن الصديق الناقد باقر جاسم محمد قال لي عندما أطلع على بعض كتاباتي العروضية إنها متأخرة عن زمنها بعشرين عام، والشيء الطريف أنني عندما حاولت استثمار اكتشافاتي العروضية والتبشير بالقصيدة الهرمية أو السمع بصرية التي كتبت عنها بيانا في النصف الثاني من التسعينيات لم أنشره في حينه مبشرا بنوع كتابي يعتمد على تقنية الكومبيوتر وكنت أبحث عن برنامج لتحويل أحلامي إلى واقع رقمي وحدث ذلك في العام 2010 عندما ألقيت محاضرة في أبو ظبي، قال لي الصديق الشاعر الجزائري عياش يحياوي إنها متقدمة على زمنها بعشرين عاما، لذا فأنا كنت حائرا بين رأيين؛ أحدهما يقول إنني متأخر عشرين عاما، والآخر يقول إنني متقدم عشرين عاما ولا أدري أيا من الرأيين هو الأصح.

لست بثائر على الشعر

*** قيل، علم العروض قد ولد كاملا منذ البداية، ماذا كنت تبغي من ثورتك على الشعر وهل كنت في الأصل تثور على علم العروض أيضا؟**

– قولة إن (علم العروض قد ولد كاملا) هي مقولة غير صائبة بالمرة والدليل على ذلك يتمثل في عدد الكتب والدراسات الكثيرة جدا التي ظهرت بعد الخليل، والدليل الأهم أن الخليل ذاته لم يقل بذلك. أما حول ما أسميته ثورتي على الشعر، في الواقع لست بثائر على الشعر ولا على علم العروض، فبالنسبة للشعر فأنا أكتب الأنواع المعروفة كلها من عمودي وتفعيلة ونثر، ولا تفضيل لأي منها على البقية، والكتابة لدي مرتهنة بالحالة الشعورية والنفسية إذ كيفما أحس الحدث أكتبه بما هو عليه وبالصورة التي يزورني بها. أما بالنسبة لعلم العروض فيمكنك أن تقول عني مجددا بدلا من أن أكون ثائرا، وإن إطلاق تسمية مجدد عليّ هي الملائمة بالنسبة لي وهو ما أطمح أن أكونه، أما ما كنت أبغيه من مغامرتي العروضية فقد وددت أن تتغير النظرة لعلم العروض ليتحرر العقل العربي من مسميات جاء بها الخليل ولم تعد تنفع مجتمعنا المعاصر. لقد

اقترحت نظاما جديدا يستطيع بموجبه أي قارئ للعروض أن يستمتع به ولا يكرهه، واقترحت طريقة ينسب بها الشعر للدوائر وليس للبحور، لأن المسميات القديمة كثيرة والعقل الانساني لا يستطيع حفظها وخصوصا عندما تنطوي على مسميات غارقة في القدم تجاوزها اللسان العربي وبقيت ميتة في القواميس. لقد وضعت طريقة يستطيع بها أي طالب أو شاعر أن يشتق البحور كافة باستخدام سبب خفيف واحد، لكن للأسف الشديد لم ينتبه إليّ أحد، ولم أحصل سوى على الشتائم والإنكار والتشكيك.

العروض العربي هو من اختارني

*** قرأت أن الشعر واكتشافاته وعروضه (مخصوص للغابرين)، ولأنك من المعاصرين لنا فكيف تجرأت ودخلت أرضا لم تكن لك؟!**

سأقول لك شيئين مهمين؛ الأول هو أن علم العروض نحتاجه دائما، وليس مخصوصا بالغابرين أو المعاصرين فقط، بل هو زاد العربي حتى قيام الساعة ولطالما بقيت العربية حية انشاء الله بقيت حاجتنا قائمة للعروض وللموازين، الشيء الثاني وهو أمر قد يفاجئك هو أن العروض العربي هو من اختارني ولم أختره أبدا، وهو الذي دخل حياتي دون سابق انذار وحرمني لذة أن أكون جاهلا بدلا من عناء أن أكون عالما، فالجهل في مجتمعاتنا العربية نعمة والمعرفة والعلم نقمة، وستقول لي ما هذا الكلام الغريب، وأنا سأجيبك عن الطريقة التي تسلل العروض إلى حياتي وأفسدها. طيلة حياتي كنت أقرأ الشعر في الكتب المدرسية وأتلذذ بموسيقاها وطريقة كتابتها على الورقة وأسمع بالموازين والكل كان يقول إنها صعبة ومقتصرة على القلة، ولم أكن أعرف أين أجد كتابا عن الموازين، بل لم أكن ليعنيني أمرها. وكنت أعرف أسماء شعراء قدماء كالنابغة الجعدي والنابغة الذبياني في بعض الكتب المدرسية حيث رأيتها في كتاب المطالعة وهو من الكتب المدرسية لابن عمي وهو كان يدرس في إعدادية الزراعة في بداية السبعينيات، وأذكر أني قرأت بعض المقاطع لشعر السياب ومنها قصيدته الخالدة «أنشودة المطر» في إحدى المجلات الطلابية التي أصدرتها متوسطة الحلة وكانت قريبة من مدرستي الشرقية وقد كنت في السادس الابتدائي في حينه. ما أردت أن أوصله أن البيئة التي نشأت بها كانت بيئة أدبية بامتياز على مستوى المدرسة بالرغم من كون أبي وأمي أميين، لكن مع كل ذلك كان العروض العربي بعيدا عني جدا. ولكن بعد التسعينيات تغير كل شيء لأن الشعر بدأ يهاجمني بشدة لأكتبه وبالتالي كانت البدايات الشعرية البسيطة تظهر وأكتبها واضطررت للبحث عن كتاب بسيط لمعرفة هل ما أكتبه كان موزونا أو غير موزون لأننا تعلمنا أن الكلام يجب أن يكون موزونا لكي يكون شعرا، لذا فقد ذهبت إلى إحدى المكتبات وكانت بالصدفة للصديقين شكر الصالحي وناجح المعموري، واشتريت كتابا هو ميزان الذهب في صناعة شعر العرب للسيد الهاشمي، وكان نقطة التحول في حياتي كلها وبقية القصة معروفة حيث دخل بيتي العروض وصرنا صديقين لدودين. لذا لا تستغرب قولي إنني لم أدق باب العروض بل هو الذي دق بابي وكنت حينها في نهاية الثلاثينيات من عمري.

*** هل صدقت يوما أن علم العروض قد ولد كاملا، ولم لم تتجنبه إذن؟**

– عندما قرأت «ميزان الذهب» كنت أظن أنني أقرأ علما تاما متكاملا ولا يحتاج أن يكتب فيه أحد، لكن بدلا من أن أحاول الاستفادة من الكتاب وجدتني أكتشف ظاهرة الانقلاب في الموازين بعد القراءة الأولى للكتاب، ثم أكتشفت الدوائر بالرغم من عدم وجود أي ذكر للدوائر العروضية في هذا المصدر. وتوالت قراءاتي وتوسعت بعد اطلاعي على مصادر أخرى حتى اكتمال كتابي بعد ستة شهور من أول لقاء مع علم العروض، لذا فمقولة إن العروض ولد كاملا بان تهافتها. أما الشق الثاني من سؤالك، وهو لمَ لَمْ أتجنبه؟ وهو سؤال ذكي لا ريب، والجَواب عليه هو أن العروض قد تصرف معي كما تتصرف المرأة مع رجل أحبته، فأرادت أن تحتازه، وعملت بدهاء كي لا تضيعه. لقد استدرجني العروض رويدا رويدا، وجعلني أدخل إلى غاباته، حتى أوقعني في شراكه، لذا ظل هذا العلم متمسكا بذياب شاهين وأقولها بمحبة وبدون كبرياء أو غرور فأنا انسان بسيط جدا ولست ممن يستهويهم المدح ولست نرجسيا مثلما اتهمني بعض الأصدقاء، لقد استغلني العروض لكي يكشف أسراره البهية من خلالي، حصلت على الشتائم بسببه وازداد سموا فوق سموه. لم يعطني العروض أي شيء جراء جهودي، ولا أعتقد أنني سأحصل على شيء منه.

*** طيب لي هنا ان أسألك: إذا كان بعض الشعراء قد أعلنوا أنهم أضافوا بعض العروض الجديدة أو المجيء بآراء جديدة فهل تذود عنهم وتساعدهم أم أنك تنتصر للقديم فقط؟**

– أنا مع كل جديد وصادم ومدهش، ومستعد أن أدافع عن كل مجدد مهما كانت توجهاته ومنطلقاته وحتى لو كان يخالفني الرأي، وهذا الموقف سأتخذه لأنني أعتقد أنه موقف أخلاقي ومهني.

تجاوزت المائة والخمسين بحرا.

*** عام 2003 أصدرت كتابا جديدا بعنوان (العروض العربي بدلالة الرمز والنظام) في الأردن عن «دار الكندي»، فهل تتذكر عدد البحور التي اكتشفتها وهل أضفت إليها بعد ذلك؟**

– نعم، كان هذا الكتاب باكورة عملي العروضي، وكنت أحمله مثل امرأة تحمل طفلها الذي أنجبته من علاقة لا شرعية مع أحدهم، وحين خرجت من العراق في نهاية العام 2000م على ما أذكر اصطحبته معي مطبوعا بواسطة الكومبيوتر وكان عهدنا به حديثا جدا، وقد دفعت ثمنا لطباعته على كمبيوتر الذي كانت يعمل بنظام الماكنتوش، وكانت لدي نسختان من الكتاب إحداهما ورقية والأخرى على فلوبي، فضلا عن النسخ المكتوبة بخط اليد التي كانت تحوي رسومات الدوائر وقد رسمتها بيدي فلم يكن مستخدمو الكومبيوتر في حينه على دراية في كيفية استخدامه في رسم الأشكال الهندسية كالدوائر والمستطيلات وغيرها. أما عن عدد البحور فهي كثيرة وتجاوزت المائة والخمسين بحرا، لأنني اكتشفت ست عشرة دائرة، وفي كل دائرة عدد من البحور بقدر تسلسلها في الهرم العروضي، فالدائرة الأولى تحتوي على بحر واحد والثانية على بحرين، وهكذا حتى الدائرة السادسة عشرة التي تحتوي على ستة عشر بحرا. ولأن الدوائر تحتوي على كيفيات متعددة

لذا فعدد البحور الكلي يزداد بازدياد هذه الكيفيات ومن الصعوبة بمكان تحديد العدد الكلي.

أفكار جديدة ومربكة

***هل لي ان أعرف لماذا لم يصدر الكتاب في بغداد؟ ولماذا شبع موتا في دار الشؤون الثقافية كما قلت لي مرة؟**

– تقدمت بكتابي إلى (دار الشؤون الثقافية) قبل سفري خارج العراق، وأعتقد أنهم أعطوه إلى أحد الخبراء، ولا أدري ما حل به بعد ذلك، ولأنهم لم ينشروه فلربما لم تتم إجازته من الخبير، لأن الكتاب برأيي لا يستطيع خبير عروضي تتلمذ على كتب العروض الجامعية أن يستوعب الأفكار الموجودة فيه لأنها أفكار جديدة ومربكة وأنا أعطيهم العذر. وقد أحسست بذلك من خلال المحاضرات التي عملتها في نقابة الفنانين واتحاد الأدباء في البصرة وفي بابل؛ أنها غير مرحب بها من بعض الأساتذة الجامعيين الذين ناقشوني وبالطبع ليس كلهم فهنالك من رحب بالكتاب وهم من القلة القليلة جدا. فضلا عن ترحيب الأدباء لأن الأديب لا يعبأ بالدرس الجامعي كما هو معروف.

*** لماذا أطلقت أسماء عربية على البحور الجديدة من مثل العراق أو بغداد أو البصرة وبابل وكتبت قصائد شعرية حولها؟**

– لا لسبب معين بل فقط لكسر الجمود وجعل العروض قريبا من الجميع واعتزازا بهذه المدن التي أحبها وبالطبع هنالك أسماء شعراء وشاعرات ومدن عربية أطلقتها على هذه البحور وهنالك الكثير من البحور التي بقيت بدون أسماء فعدد البحور كبير وأحتاج عددا كبيرا من الأسماء. كما أنني لم أستطع الكتابة على البحور كلها فهذا عمل شاق يستوجب تفرغا لهذه المهمة العسيرة.

اكتشاف بحر بغداد

*** في النصف الثاني من عقد التسعينيات أعلن الشاعر الراحل محمد سالم البيرماني عن اكتشافه لبحر شعري جديد أطلق عليه بحر بغداد، وكان قد نظم قصيدة عليه في السبعينيات من القرن الماضي، فهل أطلعت على هذه القصيدة والبحر قبل أن تعلن عنه في نظامك العروضي؟**

– كلا لم أطلع على هذه القصيدة مطلقا، ولا أعرف أن لديه قصيدة على البحر المكتشف، فالبحر أنا اكتشفته وقد أعطيته اسم بغداد، وكتبت عنه قصيدة بالاسم ذاته، وقد عملت عدة محاضرات حول كتابي وعلى البحور الجديدة ومنها بحر بغداد. وبالرغم من كون الشاعر البيرماني كان صديقي لكنه لم يذكر لي ذلك أبدا، ولكن بعد خروجي من العراق، وكنت في حديث مع أحد أصدقائي المهندسين نتكلم عن العروض وأخبرته عن بحر بغداد وبحر العراق وبابل، فأخبرني هذا الصديق أنه قرأ في إحدى الصحف العراقية عن هذا البحر وفيه يتكلم أحد الأشخاص ويقول إنه اكتشف البحر قبل ذياب شاهين، ويجب أن يعترف به كونه المكتشف الأول. وحين طلبت منه أن يذكر اسم الشخص الذي ادعى ذلك، قال لي إنه لا يستطيع تذكر أسمه، ولكنه كان متأكدا أن الرجل ذكر بحر بغداد. وحين زرت بغداد التقيت الصديق الراحل البيرماني، وقال لي إن له معي قضية، فاستغربت ذلك وحين سألته عن طبيعة القضية وفيما لو أسأت

إليه أو أن أحدهم نقل عني كلاما إليه، فأجابني كلا ليس هذا ولكن القضية ثقافية وليس مالية أو كلام أو أي شيء آخر، وحين استفسرت عن القضية الثقافية، أخبرني أنه هو الذي اكتشف بحر بغداد وكان قد كتب عنه قصيدة في السبعينيات، ويجب أن ينسب البحر إليه، حينها أيقنت أنه هو الشخص الذي اخبرني عنه صديقي في دولة الإمارات. وفي حينها أخبرته أنني لا أعرف كتابته لهذه القصيدة، وكذلك سألته بعض الأسئلة عن البحر وفي أية دائرة يقع وما هي جوازاته، فلم يجبني عن ذلك، إلا أنه قال لي إنه أخذ التفعيلة (مفعولات) ونظم عليها القصيدة، وفي حينها طلبت منه أن ينسى الموضوع، لأن بحر بغداد ليس تفعيلة فقط كتب عليها بالصدفة قصيدة، لأنه بحر قائم بذاته ونصحته بأن يقرأ كتابي وسيتفاجأ عندما يعرف ما كان مسمى بحر بغداد عروضيا قبل أن أحدد ملامحه العروضية وكذلك أين يقع وما هي جوازاته. وانتهى الحديث بيننا، ولا أدري إن كان قد اطلع على كتابي أم لا، ولكني كنت أسمع من هنا وهناك عندما أزور العراق ومدينة بابل أن البحر بات ينسب إليه حتى في جامعة بابل، عندما قام أحد الأساتذة بعمل بحث عن بحر بغداد ناسبا البحر للبيرماني وليس لي، وهنا أود أن أصحح خطأ قد يقع فيه الجميع، هو أن بحر بغداد ظهر لي في الدائرة الرباعية (وهي دائرة المجتلب عروضيا) وهو البحر الرابع الذي لم يكتشفه الخليل في هذه الدائرة مع كل من الهزج والرمل والرجز وهو ما لم يعرفه البيرماني، وكذلك فقد وجدت عليه شعرا كان الخليل قد قطعه بصورة غريبة وجعله تحت مسمى مخلع الرمل، وهذا يعني أن البحر قد كتب عليه شعر منذ القدم وليس البيرماني هو أول من كتب عليه، ولكن من اكتشف مكان البحر وجوازاته وحدد ملامحه بوصفه بحرا هو أنا. لذا أرجو تصحيح المعلومة.

أدعو كل منصف

*** كيف ترد على بعض الأصوات التي أخذت تشكك في اكتشافاتك العروضية؟ وهل قمت بالرد على اتهاماتهم؟**

– هنالك من شكك ولكني أدعو كل منصف أن يقرأ الكتاب بتأن قبل التشكيك، كذلك على المشككين أن ينتظروا صدور الكتاب بجزأيه الهندسي والإيقاعي وأتمنى أن تحصل الموافقة عل إصداره في الشارقة خلال هذا العام.
فوبيا من النجاح.

*** كيف تخلصت من الأمراض العراقية المزمنة في الثقافة؟ من مثل التشكيك والاتهامات؟!**

– نعم، التشكيك والاتهامات هي مرض ملازم للثقافة العراقية وخصوصا عندما يحقق بعض الأدباء نجاحا في مجال معين، وأعتقد أنك كتبت يوما ما تحذرني من مرض الفوبيا من النجاح الذي يصيب البعض عندما يتفاجأ بأن زميلا لهم قد نجح في مجال معين، والحقيقة فالمقال كان رائعا، وقد عانيت كثيرا على المستوى الشخصي من هذه الفوبيا. وتعرضت إلى حملة من التشكيك والاتهامات عندما أصدرت كتابي في العروض، وكذلك تعرضت إلى حملة أخرى عندما أصدرت بعض الكتب النقدية والدواوين، وكذلك حوربت عندما تم اختياري من قبل وزارة الثقافة الإماراتية لأمثل دولة الإمارات العربية في مهرجان أصيلة في المغرب كضيف شرف وأتكلم

عن الشعر الإماراتي، وما زلت أعاني من التهميش والإقصاء لحد الآن، حيث تم تجاهل كل ما أنجزته من كتابات عروضية وشعرية ونقدية، بصورة مزرية وأشعر بالألم والحزن من تجاهل ما أكتبه على المستويات كافة. ولكن مع ذلك ما زلت أكتب لأني ببساطة لا أستطيع التوقف عن الكتابة، وأنا على ثقة أن كتاباتي سيحتفى بها بعد مماتي من أجيال لاحقة بعد أن فقدت الأمل ممن أعيش معهم سواء على المستوى الرسمي أو اتحاد الأدباء، ولكن ما يفرحني أن أجد الشعراء الشباب يهتمون بمنجزي أكثر ممن يجايلوني وهذا يعطيني أملا كبيرا كي أستمر في الكتابة.

*** مرة أعلنت عن القصيدة الهرمية أو القصيدة السمع بصرية؟ أين وصل بها الحال؟**

– القصيدة الهرمية هي وليدة النظام الهرمي للعروض الذي تبين لي شكله الكامل في نهاية البحث في علم العروض، ولأني كنت أرى أن وسيلة التدوين على وشك أن تتغير عندما لاحظت دخول الكومبيوتر وما جلبه معه من وسائل وتقنيات مجاورة على مستوى الكتابة وخزن المعلومات واستعادتها في نهاية التسعينيات من القرن الماضي. لذا خمنت وبصورة مبكرة في النصف الثاني من التسعينيات بحدوث ثورة كبيرة في البرامجيات وطرق الكتابة ودخول الصوت والصورة في المجالات كافة وهو ما حدث فعلا بعد دخول التقنيات المتعددة الوسائط، لذا وجدتني أعمل بيانا أبشر فيه وباستخدام هذه التقنيات بولادة القصيدة الهرمية أو القصيدة السمع بصرية وهي حاصل جمع النظامين العروضي والتقني، وقد نظمت عدة قصائد هرمية ورسمتها باستخدام الكومبيوتر بمساعدة أحد مكاتب الكومبيوتر. ولكني كنت أبحث عن برنامج يجمع الهرمية بمنظومة الحركة والصوت وأخيرا وجدت ضالتي ببرنامج الباوربوينت (powerpoint)، وقد حولت ثلاثة نصوص باستخدام البرنامج لكي تمثل هذا النوع من القصائد، وأدخلت فيها موسيقى وحركة وغناء، وقد عملت عنها محاضرة في اتحاد أدباء وكتاب أبو ظبي، حيث قرأت البيان الذي كنت قد كتبته عنها بعد منتصف التسعينيات، وعرضت قصيدة منها أمام الجمهور، وقد وزعت سي دي للجمهور في حينه، وقد تقبلها البعض بمحبة وعارضها البعض بشدة وقسم آخر بقي بين الجانبين. المشكلة أن برنامج الباوربوينت لا يمكن تحويله إلى فلم فيديو كي يعرض في اليوتيوب ويطلع عليه القراء حيث سيفقد الكثير من المعلومات ويتشوه العرض لذا بقيت التجربة حبيسة ولم تنتشر. هي تجربة سأعود إليها ثانية إنشاء الله بعد أن يصلب عودها.

أسرار التراث

*** أنت ترى أن هناك صراعا بين التراث والحداثة؟ فهل حسم الصراع ولمصلحة من؟**

– الصراع محسوم بقوة نحو الحداثة وهذا لا يضير التراث، والدرس الأكاديمي بات يتوسع في إدخال مختلف النظريات الأدبية العالمية، وكذلك الأوساط التي تمارس الأدب خارج الدرس الأكاديمي تبدو معنية بقوة بالمناهج النقدية الحديثة. إن دراسة التراث بأدوات نقدية حديثة سيعيد الحيوية لتراثنا وسيكشف عن أسرار ونظم مغيبة في ثنايا التراث من خلال القراءات الحديثة سواء أكانت بنيوية أو تفكيكية أو سيميائية وصولا

للنظريات الحديثة في التأويل. في واقع الحال إذا وافقنا على وجود صراع ما بين القديم والحديث فسيكون هذا الصراع نوعا من التزاوج لخلق مولود ثان قوي ومعاصر يجعل من الثقافة العربية منافسة ومحاورة للثقافات الأخرى وتقع على خط مواز للثقافات الأخرى غربية كانت أم شرقية.

خارج حركة التاريخ

*** اتصالا بالسؤال السابق هل نبقى نجتر التراث دون تجديده؟**

– أنا أجبت على السؤال في جوابي السابق، وأكرر القول إن العيش في التراث والبكاء على أطلاله سيكلفنا الكثير وسنجد أنفسنا خارج حركة التاريخ، لا بد من الاكتيال من التراث العربي ومن التراث الإنساني العالمي المعاصر لنا حاليا. فالعناد لا يفيدنا بشيء ولا بد من أن نفهم ونطلع على ما يجري حولنا وخصوصا بعد ثورة الاتصالات الحديثة والمتعددة الوسائط والمنظومات الرقمية والقابلوات الضوئية والانترنت التي ساهمت بتقريب المسافات وساعدت على سرعة انتقال المعلومة بصريا وصوتيا وكتابيا، اجترار التراث دون تجديده إماتة له ولكن تفكيكه وتجديده وإعادة تركيبه من خلال قراءته قراءة مغايرة ومن ثم تأويله سيصب في مصلحة بعثه والانطلاق به نحو الأمام.

جماليات الإيقاعات

*** هل صحيح أن الإيقاعات هي سر قوة (القصيدة العمودية التراثية)؟ وهل أنت قلت ذلك أم سواك من الشعراء والنقاد؟**

– إلى فترة قليلة كانت القصيدة العمودية تبني ذاتها على منظومتين مهمتين هي المنظومة الصوتية وعلاقاتها بالعروض العربي والموازين، وعلى المنظومة البلاغية المتوارثة، القصيدة العربية العمودية بقيت أسيرة الشكل العمودي، لكنها حاولت التحرر منه في عدة مناسبات. فالموشح والبند هو في واقعه محاولة لكسر العمود، وبقيت القصيدة تنهل من إيقاعات البحور قوتها وتلبس ثيابها المختلفة بالرغم من طريقة كتابتها العمودية. إن التجديد كان يظهر في القصيدة على مستوى اللغة والأغراض، فأبو نؤاس كان قد استنكر المطالع الطللية واستهزأ بها وكان يكتب قصائد بدون مقدمات طللية وهو تجديد مهم فضلا عن تجديداته اللغوية. ثم جاء ابو تمام ليدخل القصيدة من بوابة اللغة واستخدام الملفوظات التي أعيت عقول أهل زمنه، كما أن مجيء المتنبي ليختتم مرحلة رائعة للشعر مكللة بالحكمة والبلاغة. ما أريد أن أقوله إن القصيدة العمودية لا تمتاح جمالياتها من جماليات الإيقاعات ممثلة بالدال الصوتي فقط بل من جماليات اللغة ممثلة بجماليات المدلول. وهو ما تحدث عنه ابن جني في شرحه لنصوص المتنبي في كتابه المعروف (الفسر) وكذلك ما تحدث فيه عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز التي درست النص القرآني على أساس تعالق الكلم نحويا ويمكن تطبيق أدواته على النص الشعري.

النثر تطور إلى قصيدة النثر

*** لماذا هاجمت قصيدة النثر بكثرة في كتابك (جماليات الشعر من القراءة إلى التأويل) الذي صدر عن الشارقة قبل عدة سنوات؟**

– في الواقع أنا لم أهاجمها بوصفها رؤية إبداعية وطريقة في الكتابة، لكني حاولت تتبعها في التراثين النثري والشعري العربيين، فوجدتها تنتمي للنثر أكثر من انتمائها للشعر وهذا ما لا يضيرها أو يضير كتابها أبدا، لكني وجدت كتابها يأنفون أن نقول عنهم نثارا ويحبون أن نطلق عليهم مسمى شعراء بدلا من ذلك وهو شيء محزن ومضحك في الآن ذاته، وستسألني لماذا يبدو الأمر مضحكا ومحزنا لك، سأقول لك السبب وعليك وعلى القراء أن يحكموا أيضا. ففي السابق كانت العرب ترفع من شأن الناثر العربي على حساب الشاعر، فعندما كتب النابغة الجعدي أشعاره وهو زعيم قبيلته، أنتقده قومه، لأن زعيما مثله يجب أن يكتب النثر فقط وألا يكتب الشعر بحسب رأيهم، فهم ينظرون للنثر بكونه أسمى من الشعر بكثير ولا تكتبه سوى النخبة، وهذا قد يفسر لنا سبب نزول القرآن نثرا وليس شعرا. لكننا نتفاجأ أن النثار المحدثين والكثير منهم حتى لا يعرفون العروض العربي يريد أن نسميه شاعرا، ومن هنا تظهر المفارقة المضحكة المبكية للناثر/ الشاعر العربي الحديث. لذلك وجدتني أنتقد كتابها الذين يعتقدون أنها منتمية للشعر وأنها آخر محطة في الشعر، أو أن الشعر تطور إلى قصيدة النثر، لأنني أعتقد ان بالنثر تطورا إلى قصيدة النثر، وفي الشعر متوقفا عند قصيدة التفعيلة.

القصيدة والزمن

*** هل تبقى العين البشرية قادرة على مسك الفضاء الشعري والأذن على مسك الزمن الشعري؟**

– يبدو لي أنك قارئ جيد لكتبي، نعم هذا الكلام قلته في كتابي جماليات الشعر الذي صدر في الشارقة قبل عدة سنوات، فالعين تستقبل الضوء المنعكس من الأشياء فيبان لها الشيء والأذن تستقبل الصوت فتسمع صدى الشيء، ولأن الشعر بوصفه منظومة فضائية/ زمنية، فهو يستوجب حاستين لتحسسه وتذوقه الأولى حاسة البصر متمثلة بالعين البشرية التي تتحسس فضاء الورقة وشكل القصيدة وطريقة رسمها على الورقة. إذن فالعين تتحسس جماليات المكان أو الفضاء، ولما كانت الكلمات هي عبارة عن أصوات تستغرق زمنا معينا، فالأذن البشرية هي الأداة التي يمكن أن تمسك بصوت الكلمة (دالها) وبالتالي هي من تتحسس الزمن الذي يبان واضحا في القصيدة العمودية من خلال القافية. فالقافية لها وظيفة زمنية أو حافظة للزمن العروضي وهو ما جعل الشعر العربي يتشبث بها لأن الشاعر العربي عن طريق القصيدة العمودية كان يمسك بالزمن وبالمكان في آن واحد أي أن الشاعر القديم عن طريق القصيدة العمودية كان يريد أن يمسك الزمكان الشعري وهذا لا يمكن الحصول عليه إلا عن طريق القصيدة العمودية.

أدب
و
فن

المثقف ناقداً رؤيوياً

سعد محمد رحيم

بات بعضهم - وهم من المثقفين غالباً - يتحدثون، اليوم، عن المثقف وكأنه زائدة مزعجة، أو تورم مؤقت في الجسد المجتمعي، لا معنى ولا ضرورة لوجوده إن لم يكن ثمة ضرر حاصل من ذلك الوجود. وأنه بروز اعتباطي وتشكّل كاذب حدث في غفلة من الزمن، وأن العالم يمكن أن يمضي في طريقه من غير أن يتأثر بأية درجة، أو يأبه، إذا ما اختفى ذلك المثقف من المشهد العام لأي سبب. وباعتقادي يمكن عدّ مثل هذه التخريجات نوعاً من المازوكية أو جلد الذات، أو العدمية، وكلها أمراض نفسية - اجتماعية ناتجة عن الإحباط الشديد واليأس والشعور بالعجز أمام ما يجري من وقائع جسيمة على أرض الواقع العراقي والذي يخفق المثقف في فهمه تماماً وتمثّله، ناهيك عن المشاركة في مواجهته وتغييره.

ليس المثقف ساحراً، ولا صانع معجزات.. إنه فاعل اجتماعي، يمتلك وسيلة تعبير يُفترض أن تكون متقدمة بالقياس إلى الآخرين، وله عدّة لغوية ومعرفية وفنية.. هنا أستخدم مفهوم المثقف لأشير إلى منتج الثقافة بمستويين فكري وجمالي، يهتم بالشأن العام، ويبث خطاباً، ويسعى لتمثيل ذاته وجماعته وعصره، قارئاً ومستكشفاً لتناقضات الماضي والحاضر واختلالاتهما، ورؤيوياً يمثل صوت المستقبل.. أما من ينتظرون من المثقف أن يحوِّل واقع حال البلاد، بوساطة قصيدة، أو عمل روائي، أو لوحة فنية، أو عرض مسرحي، أو دراسة فكرية، الخ.. بين ليلة وضحاها، فهذا مما لا يُعقل. فالأفكار والقيم الجمالية لا تصبح جزءاً من وعي الأفراد، يؤثر في السلوك الاجتماعي، ولا محفزاً تاريخياً حقيقياً، إلا بعد مرور زمن طويل، وبتوافر شروط تاريخية؛ نفسية واجتماعية واقتصادية.

ولكن بالمقابل ليس ثمة توصيف قار يضع المثقفين كلهم في سلة واحدة.. المثقفون أنماط مختلفة، لكن ما يحدد طبيعتهم هو الموقع والوظيفة.. من هذا سأستبعد المثقف النطاط، الذي لا يُعرف له موقع واضح في خريطة الصراعات الاجتماعية.. ذلك الذي يتقلب على وفق ما تقتضيه مصالحه الشخصية.. وهو نمط لا تخلو منه أوساط ثقافات كثيرة، ومنها وسطنا الثقافي العراقي.

الشخص الذي يطرح خطاباً امتثالياً لإرضاء المؤسسات السياسية والاجتماعية والدينية ويساير ما هو شائع لا يمكن عدّه مثقفاً كذلك، لأنه في هذه الحالة يخون وظيفته العضوية في أن يكون قارئاً ناقداً لما حوله، يثير غيظ حرّاس الدوغمائيات، ويعكِّر صفو المخدَّرين بالمعتقدات القدرية التي تمنح عزاءً كاذباً ولا تحقِّق الخلاص.

هناك أيضاً شريحة واسعة من المثقفين العراقيين، كشفوا في سنوات المحنة عن الموجِّهات التحتية اللاواعية لأفكارهم

وقناعاتهم، وأحياناً من غير أن يفطنوا أو يريدوا. وهي للأسف ذات طابع طائفي أو عنصري أو عشيري ضيق الأفق، مجسِّد لهويات ما قبل دولتية نابذة للآخر، مشبعة بالكراهية، وفتاكة.. إن الطبقة السطحية الرقيقة من الحداثة والتنوير واليسارية وغيرها، عند هؤلاء الأخيرين، تكسّرت بفعل خضّات الواقع، ليطفو الغاطس العفن وتفوح روائحه الكريهة.

المثقف الذي نعوِّل عليه هو المثقف الذي يغادر منبر الخطابة ذات البعد الواحد موقعاً، إلى فضاء الحوار المفتوح. ولا يدّعي احتكار الحقيقة. أما وظيفته الفكرية والثقافية، ومشاركته في الشأن العام، فتتجلى بالحفاظ على زخم المعارضة داخل كيان المجتمع وحقله السياسي، وتعريض الثوابت إلى هزّات، وفكفكة اليقينيات بتعريضها للأسئلة، واجتراح الأمل.

شهربان تودع رمّانها المسرحي في هولندا

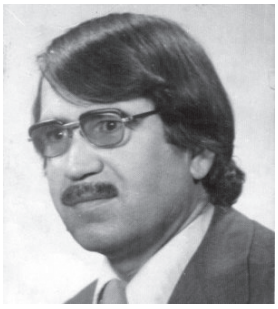

شهربان هي المقدادية، فيها ولد عام 1934 ومنها انطلق الى بغداد، فصوفيا، ثم الى وهران الجزائر، وأخيرا ربوع هولندا، هذه هي مسيرة الكاتب والفنان د.نور الدين فارس التي قضاها بين التمثيل وبين الكتابة والبحوث الأكاديمية أحيانا وبين الترجمة حينا وبين احترافه العملين المهني والسياسي أحيانا كثيرة، ووصفه بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي: (كان مثالاً في التزامه الحزبي، في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، ونضاله المجيد من أجل الوطن الحر والشعب السعيد، وتعرض جراء ذلك الى الابتعاد عن الوطن اضطراراً، والى الكثير من الملاحقات والمضايقات، هو وأفراد عائلته الكريمة، واستشهد شقيقه الفنان التشكيلي الرائع «شمس الدين فارس» على يد عصابة البعث أوائل الثمانينيات.) وشمس الدين فارس، تشهد له (جداريته) على واجهة سينما بابل في شارع السعدون.

كتب ونشر العديد من المسرحيات التي مثلتها الفرق المسرحية، منها: أشجار الطاعون 1965، الكراكي، البيت الجديد، الغريب، العطش والقضية، عروس بالمزاد، الدوامة، ينبوع القيامة، القيثارة والجلاد، وكوميديا الأرض وهي آخر كتاباته المسرحية، فضلا عن التمثيليات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، ومن أبرزها (الأبرة واللهب) عن ثورة العشرين، مع نشره البحوث والدراسات الأدبية والفنية وكذلك ترجمته لكتاب (نظرية الدراما) عن البلغارية وهو الذي نال عام 1979 شهادة دكتوراه دولة في فلسفة الفن- المسرح من جامعة صوفيا، ولا يفوتنا أن نذكر بأنه من أبرز مؤسسي فرقة «مسرح اليوم» أواخر الستينات.

أما التمثيل، فقد مثل في مسرحية واحدة هي (أجراس الكرملين) التي قدمتها عام 1972 فرقة (الصداقة) في بغداد، وأخرجها أديب القليه جي، وجسّد فيها نور الدين فارس شخصية الزعيم الأممي (لينين) ويعدّ أول من مثّل هذه الشخصية في دول العالم الثالث.

لقد عاش مع عراقه سنوات حلوة ومرّة ومع رحيل عام 2015، رحل تاركا ألقه.

«الثقافة الجديدة»

عبد الرحمن منيف ومساءلة وهم التاريخ

فاضل ثامر

ناقد، بكالوريوس لغة انجليزية جامعة بغداد، دبلوم الدراسات العليا في اللغة الإنكليزية من ليبيا 2001 وأعد أطروحة الماجستير في اللغة الإنكليزية تحت عنوان: «مقاربة لسانية لتدريس السرد في ظروف ما بعد الكولونيالية» وينتظر فرصة مناقشتها، شارك في العشرات من المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية العراقية والعربية والعالمية.
أولى مقالاته المنشورة كانت عام 1965 في مجلة «الآداب» البيروتية، اصبح عضوا في الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء في السبعينات وعضوا في هيئة تحرير مجلة «الأديب المعاصر».
من مؤلفاته: «قصص عراقية معاصرة» مع الناقد ياسين النصير، بغداد 1970، «معالم جديدة في أدبنا المعاصر»، بغداد 1975، «مدارات نقدية: في إشكالية الحداثة والنقد والإبداع»، بغداد 1987، «الصوت الآخر: «الجوهر الحواري للخطاب الأدبي»، بغداد 1992، «اللغة الثانية: في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث»، بيروت 1994، رواية مترجمة بعنوان «الحديقة» للفرنسية ماركريت دورا، دار الشؤون الثقافية عام 1986 ببغداد، «المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي»، دار المدى في دمشق 2003.
حاليا رئيس اتحاد أدباء العراق.

روايتا عبد الرحمن منيف «مدن الملح»(1) بأجزائها الخمسة و»أرض السواد «(2) بأجزائها الثلاثة تضعنا وجها لوجه أمام مقولة جورج لوكاش التي يرى فيها ان الرواية، جنسا أدبيا جديدا – تمثل ملحمة العصر البورجوازي، وذلك لانطوائها على الكثير من الملامح الاجناسية التي ورثتها من الملحمة الكلاسيكية ومنها هذا الاتساع البانورامي للأحداث والشخصيات والأماكن والأزمنة.

فالقارئ يحس بالدهشة والانبهار وهو يلاحق الروائي الذي يمسك ببراعة هذا الحشد الهائل من الشخصيات والأحداث والحبكات والفضاءات والأزمنة الروائية ويحرك كل الخيوط السردية التي نسج منها هذا الفضاء الروائي الضاج بالحياة والصيرورة والتحول.

واذا ما كان الفضاء الروائي العريض لخماسية «مدن الملح « هو الصحراء والرمل والبادية، وهي عوالم ألفها وعاش فيها المؤلف، فهو يفاجئنا بقدرته على قراءة التاريخ العراقي في العهد العثماني وإعادة صياغته سرديا وتخييليا في ثلاثيته «ارض السواد» حيث تتشكل الرواية في فضاء روائي مديني وحضري، دون ان تغيب صورة الصحراء والبادية والريف عن الحضور أيضا.

وهذا النفس الملحمي في روايتي عبد الرحمن

منيف يذكرنا بعدد من الأعمال الروائية الكلاسيكية الكبرى التي كشفت عن مثل هذه الملامح الملحمية ومنها مثلا رواية «الحرب والسلام» للروائي الروسي ليو تولستوي .
لكننا، من الناحية الأخرى، علينا ان لا نستسلم كليا لإغراء القبول بملحمية هاتين الروايتين، لأننا في واقع الأمر، أمام مظهر أجناسي مستقل هو فن الرواية، له مقوماته السردية والرؤيوية الخاصة وحتى وان إلتهم أثناء تشكله الكثير من مقومات ومكونات وملامح أجناس أدبية وفنية واجتماعية أخرى، لذا علينا التعامل مع هاتين الروايتين بوصفهما تنتميان إلى اجناسية السرد الروائي، لأن الرواية الحديثة تخلت إلى حد كبير عن هذا الاتساع الملحمي العريض ومالت إلى التكثيف والقصر، وان حاولت أحيانا، ان تعوض هذا الاتساع الملحمي بالاشتغال على رواية الأجيال أو رواية النهر والتي وجدنا لها مثالا مرموقا في الرواية العربية الحديثة يتمثل في ثلاثية نجيب محفوظ .
وفي الحقيقة تنطوي روايتا عبد الرحمن منيف هاتان على الكثير من ملامح رواية الأجيال، حيث التعاقب الملحوظ في الفعل الروائي لأفراد أسرة معينة على امتداد سلسلة زمنية محددة.
كما ان اشتباك الروائي مع التاريخي له خصوصيته. فإذا ما كان يقترب إلى حد كبير من وقائع السجلات التاريخية المدونة لفترة حكم داود باشا في العراق في «ارض السواد» ويضع النقاط على الحروف فهو يميل في «مدن الملح» إلى لون من التمويه الرمزي للوقائع والسجلات التاريخية، حتى تكاد الرواية ان تتحول إلى اليغوريا allegory رمزية تقوم بتفكيك الوقائع التاريخية وإعادة تركيبها أو صياغتها عبر منظور تخييلي وافتراضي، لا يخلو من غائية رؤيوية.
فالوقائع التاريخية في هذين العملين ليست للتوثيق التاريخي أو لتأكيد مدى مطابقة الواقعة التاريخية للواقعة السردية، بل تهدف إلى استخلاص دلالات سيميائية معينة وانساق ثقافية عمد المؤلف بمهارة لإخفائها أو طمسها لأسباب فنية أو إيديولوجية، حيث تزيد كثافة المسكوت عنه أحيانا عن كثافة المنطوق والمدون في السرد التخييلي الروائي. ولكي لا نقع في افتراض ان الروائي قد استسلم لمركزية التاريخي فنحن نذهب إلى كفاءة وكثافة ما هو تخييلي وافتراضي وتلفيقي في تحريك الوقائع التاريخية. فالمؤلف انما يكتب تاريخا بديلا لأنه لم يقتصر على تدوين التاريخ الأعلى للحكام والقادة والعسكريين وإنما دون تاريخا افتراضيا للمقهورين والبسطاء والمنسيين الذين يقبعون في قعر التاريخ، والذين غالبا ما يتجاهلهم المؤرخون الرسميون مع انهم الصناع الحقيقيون للتاريخ ويمتلكون القدرة وكما كشفت هاتان الروايتان على ان يقلبوا الطاولة في لحظات معينة، ويحولوا عجزهم وقهرهم إلى فعل ثوري مغيّر ينسجم مع مقولة الناقد الفرنسي لوسيان غولدمان بإمكانية تحويل «الوعي القائم» – وهو في الغائب وعي سكوني ومتخلف إلى «الوعي الممكن» وهي وعي متمرد ورافض وثوري أحيانا.
وعبد الرحمن منيف لم يكن غائبا عن إشكالية الدخول في لعبة إعادة صياغة تاريخ بديل اذ وجدنا في مستهل الجزء الثالث من «مدن الملح» إشارة إلى انه في «وقت الهزائم وفي المنافي، يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ» هذا الوعي لمساءلة «التاريخ أو وهم التاريخ»هو الذي دفعه إلى استقراء الوضع التاريخي في مطلع القرن العشرين وتحديدا بالتزامن مع الحرب العالمية الأولى:

«في ذلك الزمن كل شئ مطروح لإعادة النظر، لإعادة القسمة: الأفكار، المناطق والدول وحتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار. دول تنهض فجأة وأخرى تغيب.» (3) انه يكتشف بحدس الروائي صورة العالم آنذاك «هكذا كان العالم في مطلع هذا القرن» (4) وهو ما سبق وان تحدث عنه في مقدمة كتبها لإحدى طبعات مدن الملح حول مهمة الرواية:

«مهمة الرواية، أية رواية، رصد التحولات التي تأتي نتيجة حدث كبير وقراءة انعكاسات هذا الحدث على البشر سواء في المركز أو المحيط. ولان هذه هي مهمة الرواية، فانها لا تنشغل بالتنظير لما حدث ولا تعطي حكم قيمة..» (5)، ويؤكد عبد الرحمن منيف وظيفة الرواية هذه بالقول: «في مواجهة مثل هذه الأسئلة الكبيرة تجد الرواية مادتها وتحديها في آن، لا لتقدم الوعظ أو الفكر الإيديولوجي وإنما لتعرض الحياة ومعاناة البشر وأحلامهم، ولتفسح المجال أيضا كي يقال ما جرى، لتكون في النهاية شهادة عن المرحلة التاريخية.»(6)

بمثل هذا الوعي واجه عبد الرحمن منيف تحدي «التاريخ ووهم التاريخ» واشتغل بأناة وصبر من خلال الوصف والعرض والمشاهدة الروائية الحية والمرويات والحوارات الشعبية وأجرى حفريات عميقة في تربة الواقعة التاريخية، مقلبا إياها عدة مرات ليكشف عما هو جوهري ودال ومؤثر فيها، لكنه في النهاية نجح حقا في ان يقدم شهادته الصريحة والشجاعة والأمينة للتاريخ والواقع من خلال عمل فني يكتنز بالتخييل مثلما يكتنز بوقائع تاريخية ضاجة أعادت صياغة الخارطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة. تركز الروايتان، من خلال استقراء للقوى الاجتماعية والصراعات الجوهرية على قوة الصدمة التي سببتها الحضارة لمجتمع بدوي ساكن في «مدن الملح» وقوة الصدمة الناجمة عن عنف السياسة والصراع على السلطة في «ارض السواد» وربما ما عمق من شدة الصدمة الحضارية في «مدن الملح» انها جاءت مفاجئة وسريعة وبفعل خارجي وليس من خلال نمو طبيعي داخلي ومتدرج لمظاهر الحضارة والتكنولوجيا كما هو الحال في التشكلات الحضارية التقليدية، فالمدن الحديثة مثلا تنشأ لتحقيق وظائف معينة تجارية أو صناعية او سياسية وحيث يتحقق تراكم تدريجي ينقل المجتمع من حالة اقتصادية طبيعية إلى حالة اقتصادية مركبة ومعقدة. إما ما حدث في «مدن الملح» فهو الانتقال المفاجئ من مجتمع البداوة إلى مجتمع مديني وحضاري بفعل اكتشاف النفط. فواحة صغيرة وادعة مثل «وادي العيون» (7) كانت محطة استراحة لقوافل التجار والبدو، لتجد نفسها فجأة أمام هدير الآلات الضخمة ومظاهر التكنولوجيا الحديثة. وهذه الصدمة اقترنت أيضا بإزاحة الناس عن بيوتهم واقتلاعهم من جذورهم وفرض التهجير عليهم إلى أماكن أخرى لاستغلال أراضيهم لإقامة منشات الشركات النفطية العملاقة. كما ان قرية صغيرة هي «حوران» (8) تتحول إلى مدينة عصرية بغمضة عين، بينما تصبح مدينة «موران» مدينة سياسية لصياغة القرارات السياسية الخاصة بتقاسم السلطة والثروة والهيمنة بالتحالف مع ممثلي شركات النفط ودولهم. كما اقترن ذلك بظهور طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة العمال الذين كانوا يعملون في خدمة شركات النفط ، مما اكسب الصراع الاجتماعي وجها آخر للصراع الطبقي والوطني ضد شركات النفط،

من خلال النضالات العفوية لعمال النفط ضد تعسف الشركات النفطية واستغلالها البشع لطاقات المنتجين الحقيقيين للثروة. وهذا ما حول الجزء الأول من «مدن الملح» إلى فعل مقاومة صريح ضد هيمنه شركات النفط. ويمكن القول ان الصدمة الحضارية في الروايتين قد كشفت عن صراع بين ثنائية ضدية انثروبولوجية واجتماعية اشرها كلود ليفي شتراوس بين الطبيعة والثقافة أو النيئ والمطبوخ وهي ثنائية وجدنا لها أيضا تجليا في روايات الروائي الليبي إبراهيم الكوني، والمتمثلة في رفض البدوي أو القروي الذي عاش ضمن اقتصاد طبيعي وعلاقات بطرياركية وادوات انتاج بسيطة لكل مظاهر التحضر والتشكل المديني بما فيه من علاقات إنتاج جديدة ومعدات تكنولوجية وعلاقات اجتماعية ومظاهر استهلاكية باذخة.

في هذا الفضاء البانورامي، الملحمي العريض لكلا الروايتين صاغ الروائي العشرات من الشخصيات الرئيسة والثانوية التي شغلت الفضاء التاريخي والروائي، دون ان نلحظ ظهور شخصيات مركزية على امتداد الروايتين، حتى بات بالإمكان الحديث عن ملمح البطل الجماعي بدل البطل الفردي. ويبدو ان عبد الرحمن منيف كان ينطلق من وعي بهذا القصد، فقد تحدث مرة عن مفهومه للبطولة الروائية بالقول:

«ان بطل الرواية الفرد، الذي يملأ الساحة كلها، وما الآخرون الا ديكور لإبراز وإظهار بطولاته، ان هذا البطل الوهمي الذي سيطر على الرواية العالمية فترة طويلة، آن له ان يتنحى، وألا يشغل إلا ما يستحقه من مكان وزمان. وهنا يظهر مفهوم جديد للبطولة الروائية، حيث يتعاقب الناس، الإبطال، كمياه النهر الجاري، بحيث لا يتوقف الواحد منهم أكثر مما يحتمل المشهد أو الحالة، فاسحاً المجال، بعد ذلك، لكي يأتي الآخر البديل، المكمل، ويواصل المشوار – الحياة .» (9)

بمثل هذا الوعي السردي والرؤيوي يصنع عبد الرحمن منيف بطله الجماعي . وليس معنى ذلك انه لم يصنع إبطالا فرديين. فرواياته السابقة «شرق المتوسط» و«حين تركنا الجسر» و«سباق المسافات الطويلة» و«عالم بلا خرائط» تحفل بالبطولات الفردية، كما ان روايتيه الملحميتين تزخران بشخصيات مركزية، لكنها لا تشغل الفضاء الروائي بكامله. فبعد ان تؤدي دورها على مسرح الأحداث تفسح المجال لظهور شخصيات أخرى بديلة تكمل الرسالة ذاتها عبر مسارات متجددة. فشخصية «متعب الهذال» هذا البدوي الفطري والتلقائي الذي هيمن بحضوره على الجزء الأول من رواية «مدن الملح» سرعان ما يتخلى عن دوره لشخصيات أخرى منها ولده فواز الهذال الذي يواصل مسيرة الأب المتمردة والرافضة للوجود النفطي الأمريكي الذي دمر الهوية البدوية وأزاح البدوي عن أرضه وتدخل في حريته وخياراته وأحلامه البريئة.

ان عبد الرحمن منيف في تعامله مع التاريخ في خماسية «مدن الملح» وثلاثية «ارض السواد» لا يتناول التاريخ الرسمي بصورته المجردة، بوصفه سجلا سياسيا واقتصاديا، وتاريخيا لانتصارات الحكام والسلاطين والولاة، وإنما يتجاوز ذلك لتجسيد ملامح الحراك الاجتماعي مهما ضئل وبدايات تشكل الحركات الاجتماعية المتمردة والرافضة لسلطة الهيمنة الخارجية وللطغيان. ولذا يتحول عمله إلى سرديات للتاريخ الاجتماعي والحضاري وللرموز والشخصيات والمعالم الانثروبولوجية المكونة للقاع الاجتماعي بكل

ما ينطوي عليه من ثراء وتناقض وتوحش ورقة. ويحقق عبد الرحمن منيف ذلك بوضع مسافة جمالية بينه وبين الواقعة التاريخية، وأحيانا من خلال ترميزها بمسميات ومدن وشخصيات افتراضية متخيلة مثلما فعل في «مدن الملح» وقد يواجه التاريخ الرسمي بمسمياته ومعطياته لكنه يمنحه بعداً اجتماعياً ويومياً من خلال سلسلة من المرويات الحسية والمشاهد الحية التي تكشف عن الإحداث السياسية الكبرى مثلما فعل في رواية «ارض السواد». وهذا المنحى يشبه إلى حد كبير منهج عالم الاجتماع العراقي د.علي الوردي في كتابه السوسيو – تاريخي المهم «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (10) والذي ركز فيه على التاريخ الاجتماعي والحضاري لطقوس الناس وحياتهم وعاداتهم دونما تركيز كبير على السجل السياسي الرسمي الذي يتحول إلى مدخل أو توطئة لاكتشاف تضاريس التاريخ الاجتماعي والانثروبولوجي والثقافي الشعبي ولسيرورة الحركات الاجتماعية الناهضة ولمظاهر الحراك الشعبي المختلفة.

لقد نجح عبد الرحمن منيف في ان يقول أشياء كثيرة وخطيرة، ولكن ليس بطريقة مباشرة أو من خلال سلطة الرواية المونولوجية أحادية الصوت وإنما من خلال نزعة بوليفونية تعددية منحت الشخصيات الروائية الحرية الكاملة للتعبير عن وجهات نظرها وأفكارها وتطلعاتها فجاء عمله بمثابة منبر حي وديمقراطي للتنوع والاختلاف، للرأي، وللرأي الآخر. ويمكن الزعم ان الروائي لم يكن محايدا ومتفرجا على مصائر شخصياته، بل كان يقدم من خلال المرويات والمونولوغات والأصوات الغيرية مجموعة من الرؤى التي تنتصر للإنسان البسيط وهمومه وترفض كل مظاهر الاستبداد والتسلط والقبح وتشير دائما إلى أفق واضح للتغيير لصالح الإنسان. وأحيانا من خلال إنذار قوى الاستبداد بنهايتها الحتمية مثلما عبر عن ذلك عمر زيدان في ختام الجزء الخامس من «ارض الملح» وهو يعبر عن غضبه لاعتقال ابنه الوحيد ناصر عندما وقف وسط شارع التجار وهو يصيح :

«على بالهم انه من اخذوا ناصر خلصت الدنيا؟ لا غلطانين وواهمين... وهذا التاريخ دونكم أقروه زين، ألف حاكم جا وراح.. ويجي يوم ما تنفع الملامة والندم» (11)

بل استشهد عمر زيدان متحديا ببيت شعر مشهور للشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري «أنا حتفهم ألج البيوت عليهمو» (12) وتنتهي «مدن الملح» بحوار هدلة الفرحان وحمد الدولعي عن الناس الذين «يشوفون» والذين «ما يشوفون»:

«الناس شافيين كل شي، ياهدلة بس يلزم غيرهم يشوف ويسمع». (13)

لقد كان صوت المواطن الرافض المتمرد والثائر عالياً منذ البداية وتحديداً من خلال موقف متعب الهذال احد شيوخ وادي العيون في الجزء الأول من الرواية الرافض للوجود الأمريكي ولزحف شركات النفط:

«بعد سبعة عشر يوما رحل الأميركيون ومعهم الدليلان، لكن رحيلهم هذه المرة لم يقنع متعب الهذال واعتبره دليلا على الشؤم. (14) وتحول متعب الهذال إلى رمز لرفض الهيمنة الأمريكية النفطية وأصبح كابوسا يقلق شركات النفط. وعلى الرغم من غيابه، لكن عمال النفط المتمردين في حوران يؤكدون أنهم رأوه وهو يقاتل إلى جانبهم ضد حراس شركة النفط (15). كما استمر فواز ابن متعب الهذال وابن عمه صويلح في العداء للأميركان حيث قال الأخير:

«– الله يلعن الاميركان وأبو الاميركان..

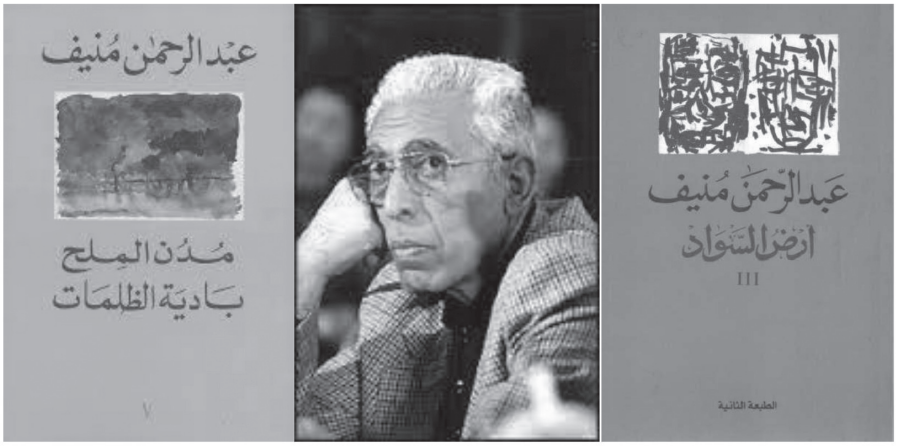

جاءوا وجاء معهم كل البلاء.» (16) كما نجد ان شخصية ابن نفاع من الشخصيات المؤثرة في حوران والتي كانت تناصب الوجود الأميركي العداء. وكان يقول بصوت عال:

«قلت لكم،، الاميركان هم العلة، هم أصل البلاء.» (17) كما كشفت الرواية في حركتها نضج وتصاعد حركات الاحتجاج ضد الوجود الاميركي النفطي وضد مظاهر القمع التي تمارسها السلطات المحلية ضد الناس.

كما كشفت ثلاثية "ارض السواد" من جانبها عن رفض الشارع العراقي لمحاولة القنصل البريطاني (ريتش) التدخل في الشأن الداخلي والتآمر لفرض إرادة الإدارة البريطانية التي كانت تخطط منذ ذلك الوقت لاحتلال العراق. وما دعم الشرائح الشعبية لمواقف الوالي داود باشا الا تعبير عن رفض التدخل البريطاني في الشأن العراقي، والذي انتهى باضطرار القنصل البريطاني إلى تقديم استقالته ومغادرة العراق بعد ان أوصدت أمامه كل طرق التدخل والتأثير في سياسة العراق آنذاك، وسط تهليل شعبي بإلحاق الهزيمة بالنفوذ البريطاني:

"ولان الانفعال بلغ أقصاه. خاصة في صوب الكرخ، لما عرف الناس بقرب سفر القنصل، فان الهوسات والتجمعات حول بستان زيدان زادت عن الحدّ وكلها تحرض على استعمال المدفع." (18).

لقد كانت الرواية تكشف عن انحياز صريح للجماهير الشعبية وتطلعاتها والتي كانت ترفض تدخلات القنصليتين الفرنسية والبريطانية في الشأن العراقي، كما كانت الرواية تنحاز إلى جانب الناس في صراعهم ضد الاستبداد والقمع والاضطهاد الذي كانت تمارسه السلطات العثمانية، وان وجدت شخصيا محاولة غير مبررة من قبل المؤلف لإظهار شخصية الوالي العثماني داود باشا بانها تشبه شخصية محمد علي باشا في نزعته الاستقلالية عن الدولة العثمانية ورغبته في تحقيق إصلاحات جذرية في المجتمع العراقي. لكني اعتقد ان هذه الصورة غير واقعية وقد قادت إلى اهمال المؤلف تسليط الضوء على مساوئ الإدارة العثمانية ومعاملتها للمواطن العادي بوصفه يمثل الرعية وليس المواطنة من خلال خلق طبقات وشرائح طفيلية غنية

من العسكريين والإداريين والتجار وبعض رجال الدين على حساب اضطهاد وتجويع الناس واستعبادهم.
وعلينا ان نعترف بوصفنا كتابا عراقيين، بان الروائي عبد الرحمن منيف قد كتب روايته هذه بروح المحبة والإخلاص للشعب العراقي وانه قدم بذلك درسا بليغا للروائيين العرب بشكل عام والعراقيين منهم بشكل اخص في كيفية إعادة استنطاق وقراءة وفهم التاريخ القديم والحديث. وقد وجدنا بعض أصداء هذا الدرس في روايات الروائي العراقي عبد الخالق الركابي وبشكل خاص في روايته "مقامات إسماعيل الذبيح" (19) وبعض روايات الروائي العراقي علي بدر وخاصة في روايته "الوليمة العارية" (20).
تثير روايتا "مدن الملح" و"ارض السواد" الملحميتان مجموعة من الأسئلة المهمة حول البنية السردية والدلالية وبناء الشخصيات وحركة الزمن فضلا عن الأنساق الثقافية المغيبة التي تنطوي عليها الروايتان.
تتكون رواية "مدن الملح" من خمسة أجزاء تحمل عنوانات فرعية هي: التيه والأخدود وتقاسيم الليل والنهار والمنبت وبادية الظلمات، لم أجد مبررا دلاليا أو سياقيا أو سيميائيا واضحا لهذه التسميات، لأنها لا تضيف شيئا جديدا للفضاء الروائي. كما تنطوي كل رواية على عدد كبير من الفصول والمشاهد غير المرقمة التي تفصل طباعيا، مما يجعل الرواية تتحرك خطيا عبر نسق زمني كرونولوجي متصاعد، وقد يقطع جزئيا وبصورة محدودة من خلال الاستذكارات والفلاش باكات لكن ذلك لا يخل بالمسار الخطي لحركة الزمن.
وتحسب للمؤلف قدرته على ضبط حركة الشخصيات والأحداث ضمن هذا الفضاء الروائي المتسع والذي يجعل الأحداث تنساب وتتصاعد عضويا على امتداد حوالي ألفين وخمسمائة صفحة وكأنما نحن أمام عمل روائي اعتيادي. ويتم الربط الزمني غالبا من خلال ملاحقة حدث معين أو حركة شخصية ما أو عبر عملية بحث ما. ولكننا نجد ان المؤلف أحيانا يلجأ إلى قفزات زمنية قد تقاس بالأشهر أو بالسنوات من خلال اشارات سردية لحركة الزمن منها مثلا:
"بعد أسبوعين مليئين بالعذاب والانتظار، والمرض بدأوا رحلتهم." (21)
"بعد أربعة أشهر من العمل المتواصل تم تعميق البحر وتوسيع الميناء." (22)
"أربعة أشهر متوالية لم يهدأ خلالها السلطان أو أحد من رجاله." (ص 23)
"خلال أكثر من شهر لم تهدأ الحركة ولم تتوقف.." (24)
"لم تمض شهور على تسلم فنر السلطة حتى قالت فريزة خانم لابنتها.. (25) كما نجد أسلوبا مماثلا في "ارض السواد":
"وجاء ربيع آخر بعد شتاء طويل، وداود باشا انشغل بأمور عدة." (26)
"كان قد مضى شهر على عودة ناهي زبانة إلى كركوك." (27)
"بعد ذلك الشتاء الطويل المضني، جاء آذار ومعه أول نسائم الربيع." (28)
لكننا لاحظنا، خلافا لرواية "مدن الملح" ان رواية "أرض السواد" تضم فصولا مرقمة يبلغ عددها الكلي مائة وستة وثلاثين فصلا يربو عدد صفحاتها على ألف وأربعمائة صفحة. ويخيل لي ان المؤلف قد أدرك عدم جدوى وضع عنوانات فرعية للأجزاء الثلاثة مثلما فعل في "مدن الملح" ولذا تركها غفلاً مقتصراً على عنوان الرواية الرئيسي ورقم الجزء فقط.
في هاتين الروايتين يحتل المكان أو الفضاء الكرونوتوبي بمصطلح ميخائيل باختين

مكانة خاصة بوصفه بؤرة دلالية وسيميائية تسهم إلى حد كبير في تحديد مسار الأحداث. فالجزيرة العربية هي الحاضنة المكانية لحركة الأحداث والشخصيات في "مدن الملح" من خلال هيمنة الصحراء على الفضاء الروائي: الصحراء ليس بوصفها طبيعة جيولوجية خالصة بل بوصفها ثقافة ومفاهيم وتقاليد راسخة حاولت قدر ما تستطيع أن تقاوم اجتياح شركات النفط لبراءتها وعذريتها وفطريتها. كما يتعالق الزمن مع المكان في لحظة تاريخية معينة تشغل بداية القرن العشرين وتشكل الدولة ونشوء المدن وبداية عصر النفط ومنشآته العملاقة.

وإذا ما كانت الجزيرة العربية هي الفضاء الكرونوتوبي في "مدن الملح" فان ارض السواد، والتي هي تسمية قديمة لأرض العراق الزراعية الخضراء هي الفضاء الكرونوتوبي لرواية "ارض السواد" مع تركيز خاص على بغداد بوصفها عاصمة تاريخية وحضارية مهمة. حيث يسهم تعالق المكان والزمان في لحظة تاريخية محددة هي فترة حكم الوالي العثماني داود باشا للعراق خلال القرن التاسع عشر في تشكيل وتحريك الأحداث الروائية وظهور الشخصيات الأساسية في الرواية، مع ملاحظات ان هذا الفضاء مديني وحضري في الغالب على الرغم من وجود أطراف ريفية وبدوية وجبلية على أجنحة المكان المركزي الفاعل. وهذا الأمر اكسب الشخصيات ملامح ومواقف وعلاقات مغايرة تماما عن تلك التي وجدناها في "مدن الملح". وتكاد ان تكون ملامح الشخصية البغدادية هي المهيمنة على الخصوصيات السلوكية لشخصيات أثنية أو عرقية مغايرة يفترض فيها ان تحمل ملامحها الخاصة بها. ومن مظاهر هذا التعميم السلوكي الذي انسحب على الشخصيات اكتساب معظم الشخصيات العثمانية والكردية والتركمانية واليهودية والمسيحية ملامح الشخصية البغدادية، وأحيانا لهجتها وطريقة كلامها. فقد كان داود باشا، الوالي التركي المتعصب لأصوله التركية والطورانية يتصرف كأي شخصية بغدادية من خلال السلوك واللغة والتفكير. فكنا نراه ينطق بلهجة بغدادية لا تختلف عن لهجة أبناء المقاهي الشعبية في الرصافة والكرخ، وهذا الأمر، كما هو معروف مخالف للواقع، فقد كان الولاة والقادة العثمانيون يحرصون على التحدث بالتركية ويحاولون فرضها على الشعب العراقي من خلال سياسة التتريك التي كان يمارسها الاحتلال العثماني، ان المؤلف دون ان يعي ذلك، انما عمد إلى تجميل صورة داود باشا والكثير من الشخصيات العثمانية من خلال إنزالها سلوكيات منزلة الفرد البغدادي المتسامح والشفاف والميال للنكتة والمزاح والانفتاح بخلاف الشخصية العثمانية المتعجرفة في الغالب والمتسلطة على كل شئ.

وإذا ما آثر عبد الرحمن منيف ان يدخل الفضاء الروائي التاريخي في "مدن الملح" مباشرة من خلال حركة الشخصيات وردود أفعالها في "وادي العيون" فهو يعمد في "ارض السواد" إلى إيراد مدخل تاريخي يحمل عنوان "حديث بعض ما جرى" (29) وهو أصلا غير مرقم، وربما يمثل عتبة نصية تضاف إلى العتبات النصية الدالة التي سبقته. ففي هذا الاستهلال نجد تقديماً تاريخياً يمهد للدخول إلى المجال التاريخي للأحداث الروائية، وهو أيضا يلتقي مع التعريف الذي دونه الناشر على مطوية الغلاف الرئيسي من تأطير للمرحلة التاريخية التي تتحرك فيها أحداث الرواية وشخصياتها. ولا يمكن ان نظلم

هذا الاستهلال بوصفه نصاً تاريخياً فهو يشكل بصورة غير مباشرة جزءاً عضويا من الرواية أسوةً بالعتبات النصية التي سبقته.

روايتا عبد الرحمن منيف الملحميتان "مدن الملح" و"أرض السواد" تقدمان أنموذجا سردياً متقدما في التعامل مع التاريخ، ومع ما يسميه الروائي "وهم التاريخ" يصبح فيه التاريخ سرداً كما يذهب إلى ذلك المؤرخ الأمريكي هايدن وايت وهذا السرد هو إلى حد كبير سرد بديل ينسخ بشجاعة التواريخ والسجلات الرسمية المزورة.

الهوامش:

1 – منيف،عبدالرحمن «مدن الملح» ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت (ط 2) 1985.
2 – منيف،عبدالرحمن «ارض السواد»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (ط12) 2008
3 – المصدر السابق، ج3، ص 9 – 11.
4 – المصدر السابق، ج3،ص11.
5 – المصدر السابق، طبعة روايات الهلال، ج1، 1998، ص 16.
6 – المصدر السابق، ص 17.
7 – المصدر السابق، ص 19.
8 – المصدر السابق، ص188.
9 – المصدر السابق، طبعة روايات الهلال (ج1) 1998، ص 8 – 9.
10 – الوردي، د.علي «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» دار ومكتبة المثنى (ط1) بغداد، 2005
11 – منيف، عبد الرحمن "مدن الملح" (ج 5)، ص 581.
12 – المصدر السابق، (ج5)، ص581.
13 – المصدر السابق، (ج5)، ص 586.
14 – المصدر السابق، (ج1)ص 46.
15 – المصدر السابق، (ج1)، ص 572.
16 – المصدر السابق (ج1)، ص 191.
17 – المصدر السابق، (ج1)، ص 537
18 – منيف، عبد الرحمن "ارض السواد" (ج3) ص 308.
19 – الركابي، عبد الخالق "مقامات اسماعيل الذبيح"
20 – بدر، علي "الوليمة العارية" منشورات الجمل، كولونيا، المانيا.
21 – منيف، عبد الرحمن "مدن الملح" (ج 1)، ص 124.
22 – المصدر السابق، ص315.
23 – المصدر السابق، (ج3)، ص304.
24 – المصدر السابق، (ج4) ص 548.
25 – المصدر السابق، (ج5) ص 296.
26 – منيف عبد الرحمن "ارض السواد"، (ج1) ص 245.
27 – المصدر السابق، (ج 2) ،ص421.
28 – المصدر السابق، (ج3) ،ص 114.
29 – المصدر السابق (ج1) / ص 16 – 24.

رحلة مع شعر الهايكو الياباني

جواد وادي

شاعر ومترجم وكاتب عراقي مقيم في المغرب منذ العام 1978، خريج الجامعة المستنصرية / قسم اللغة الإنجليزية وآدابها لعام 1975، أستاذ التعليم الثانوي للغة الإنجليزية بمدينة أسفي، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق،
اصداراته: في الشعر: تراتيل بابلية (نصوص سبعينية)، رهبة المدارك، نشيد الفواخت، سيرة الفصول (ما يشبه الهايكو)، ألحان القيثارة السومرية، مسرحية جلجامش.
له كتب معدة للطبع: ديوان أناييس (حفيدة الشاعر)، الديوان السابع (لم يعنون بعد)، مرافئ: (دراسات نقدية في الأدب والفن) بجزئين، رواية تسجيلية توثق لأحداث عراقية في خمسينيات القرن الماضي.
ترجم الكثير من الشعر والكتابات الادبية من الإنجليزية إلى العربية، ومن العربية إلى الإنجليزية، شارك في العديد من المهرجانات والملتقيات الشعرية والأدبية والفكرية في المغرب والعراق بعد التغيير.

الهايكو نمط شعري ياباني خالد، كانت بداياته الأولى تنحصر في حدود اليابان ولا يتعدى حيز التراب الوطني، حين كانت اليابان تعيش عزلة كاملة مع العالم لظروف سياسية وقتذاك، لهذا ظل يعتمد على التجربة المحلية وما يلتقط الشاعر من صور ظاهرة أمامه وتكييفها في قالب شعري ونمط معروف ببساطته ومعجميته، لكنه يوظف ادراكات حسية ليست من السهولة معرفة قصدية الشاعر الذي يعتمد على اجتهاداته الشخصية وهو يعيش في حالة عزلة كاملة عن التجارب الكونية، مما يعني أن الشعب الياباني هو مبدع بذاته بعيدا عن مؤثرات قد تغني تجربته الشعرية الوليدة كما التجارب الإبداعية الأخرى في أصقاع العالم.

وفن الهايكو هو ربط فاطن بين طبيعة هذا النمط الشعري بكل مكوناته البلاغية والمعجمية وصوره الشعرية وعلاقته براهن اللحظة التي تحيط بالشاعر او التي تستوطنه بعد اقتناصها بوازع حسي متميز، كونه من السهولة الظاهرة والبساطة في التوظيف وعمق المعنى وسلاسة التعبير لهذا الفن الخالد.

والهايكو شكل شعري ظهر في اليابان منذ قرون وله تاريخ طويل، إنه القصيدة ذات الوقع من فن اللغة، هدفها أن توحي بالمعنى والصورة والايقاع، إلى عاطفة وحالة نفسية، إنها بمثابة التدرب الروحي للتوافق مع الشاعر وما يحيط به، حين يعيش الشاعر في حالة سمو وانسجام روحي، إنها نتاج قرون من الثقافة، لا تكشف عن عذوبتها إلا للأذهان الخفية والقلوب المتيقظة، بعيدا عن التصادمات والتوقدات الكبرى، ولا للصراخ والموت، والدم.

قصيدة الهايكو هي بساطة، ورشاقة، وتعرية للجوهر، هي زهرة من حقل واسع،

إنها الزمن المرصود للصمت، إنها فرصة ممنوحة لنا، لنحب كل شيء، ونتكهن بكل شيء، إنها ومضة خاطفة من ثلاثة أبيات من الشعر.

كان رائد هذه التجربة الملفتة الأول هو الشاعر «ماتسو مونفوزا» الملقب بـ «باشو» (1644 - 1694)، الذي يعتبر المؤسس والمعلم الأول لشعر الهايكو، الذي يعد بشكل عام الممثل الأكثر أصالة للعبقرية الشعرية اليابانية، وكذلك الشاعر بوزون (1715 - 1783) الذي كان رساما أيضا، وقد غادر قريته منذ طفولته إلى إيدو حيث تتلمذ على يد هايانو هاغين، تلميذ باشو، شاعر الهايكو الشهير، ولما مات معلمه عام 1742، غادر العاصمة ليعيش حياة التشرد والبؤس، وهناك شعراء هايكو آخرون لا يقلون شهرة، مثل عيسى، وكيكاكو، وسبانو. وغيرهم الكثير.

«من بين كل الأجناس الأدبية، ليس هناك أبلغ تمثيلا للطابع الوطني من شعر اللغة اليابانية واكا (waka) الموجود في أقدم مراجع اللغة، وقد كانت النظرة للشعر من خلال قصيدة التانكا (tanka) أو القصيدة القصيرة المكونة من خمسة أبيات (5 - 7 - 5 - 5 - 7) أو مقاطع، وهو المعبر الحقيقي عن الروح اليابانية، وكان هذا الشعر يسمى شعر «الزن» مثلما بقية أجناس ابداع الزن من حكايات ومسرح وتصوير وغيرها، وكانت قصائد الزن مكرسة للمديح أو لتفسير تعاليم بوذا، منذ عهد هيان (794 - 1185) وكانت نصوص الواكا تماثل نصوص الـ (dh- rani) المقدسة معتمدة على الماورائيات مما أعطى لليابانيين تصورا بأن لغتهم مقدسة.

وضمن النظرة التاريخية لشعر «زن» الذي هو بدايات لشعر الهايكو الذي نحن بصدده، والأب الشرعي له، والزن هو سحابة نورانية، اجتازت آلاف السنين، مارة بالهند، والصين، والتيبت، واليابان، واليوم في بلاد الغرب. مرتبط بالبوذية.

خرج هذا النمط الشعري من البلاط ضيق الحيز والمكان، للشارع الياباني، حيث أن اليابانيين يحبون الشعر بشكل كبير. وتحديدا الغنائي منه، ليستمر في تهذيب قصيدة الواكا عبر قرون من الزمن وبتشجيع من الإمبراطور الشاعر جو- توبا. ومنذ نهاية القرن الثاني عشر، انتشر شكل القصائد المتسلسلة الترابط التي اسميناها قصائد «زن» لتتشكل من ثلاثة أبيات (5-7-5) مقاطع، سميت بالهايكو، أو بيتين (7-7) من المقاطع سميت أجكو، وجاءت هذه النتائج بسبب انقسام الواكا التقليدية. ولكن على نحو متواز للرنكا النبيلة، لتنسلخ منها الرنكا الحرة. وقد اشتهرت وسط جميع طبقات المجتمع الياباني، بمن فيهم الفلاحين. اندثرت كنتيجة لتطور النمط التقليدي الأشكال الأخرى، لتبقى قصيدة الهايكاي أو هوكو أو الهايكو هي الطاغية، ويشترط في هذه القصيدة أن توظف اللغة اليابانية فقط دون ادخال مفردات غريبة عليها، تنطوي على صور من الطبيعة وتصورات حولها بما يرتبط بها من طقوس وعادات ومخلوقات حية، وكانت تحتوي بالإضافة إلى الوصف الظاهر للعيان، معان خفية قد يتعسر على القارئ الذي لا يمتلك خلفية كافية عن هذا النمط الشعري وتفاصيل المجتمع الياباني، رموزا، وعادات، وتأريخا، فهمها وإدراك مقاصدها.

والهايكو كان يسمى قبل ذلك بـ «الهايكاي» أو «الرنغا» كما أسلفنا، وكانا اتجاهين

تقليدين يعتمدان على فطرة الشاعر واجتهاداته الذاتية، معتمدة على البساطة في الصياغات، ولكن بنقاء ذهني ورؤية بصرية متميزة، وتأتي هذه الإضاءة على الهايكو،مؤسسة على قصيدة باشو المشهورة «الضفدعة» معتمدة على البنية الثلاثية للبيت الواحد لقصيدة قصيرة ومبتسرة تتكون من ثلاثة مقاطع و17 حرفا (5ـ7ـ5) بنمط تقليدي بعيدا عن المتغيرات التي أضفاها شعراء لاحقون سعوا لتطوير هذا النمط الشعري الفاتن. ولكن باشو عمد جاهدا أن يترك لمساته الشخصية على نمط الموروث الشعري الياباني التقليدي، لتركيزه الذي بات موروثا شعريا لمن بعده من شعراء اليابان على الزمان والمكان، بتوصيف كل ما تقع عينه عليه، من خضرة ومياه ونبات وحيوان وجبال وغيرها، معتمدا على المتغيرات الفصلية، فهذا الشعر بنظري هو الوصف الدقيق للطبيعة بفصولها ومتغيراتها المناخية والزمانية ضمن مكان محدد، ولكن بتوظيفات ذهنية فلسفية عميقة تنسحب بطريقة أو بأخرى على تفاصيل الحياة المعاشة، لتتحول إلى نمط فلسفي من الصعوبة فهمه وفك اشتباك مفرداته، المؤلفة من صيغ بلاغية وجمل قد تبدو للقارئ للمرة الأولى مفككة ولا رابط بينها، ولكنها في الحقيقة تحتاج الى ولوج حقيقي لمنظومتها المعجمية وطريقة الربط بين مكوناتها لتعمل كولاجا شعريا غاية في التوظيف الجميل الذي تختفي وراءه أفكار وقيم يريد الشاعر توصيلها للمتلقي، وأرى كشاعر عربي، أن هكذا نمط شعري يحفز بقوة قارئه أن يشارك الشاعر من قريب أو بعيد في صياغة النص ولو نظريا، وهنا تكمن قوة وفتوة هذا النمط الشعري الدائمة والباذخة حقا.

وأجمل تعريف لهذا الفن أجده على لسان الشاعر الأمريكي جاك كيروك، الذي اهتم كثيرا بالهايكو وأصدر ديوانه الشهير الذي أسماه «كتاب الهايكو» مبتدعا الهايكو الأمريكي الذي لا يبتعد عن الهايكو الأصلي، بتزاوج فن البوب والبلو وغيرها من صيغ الشعري الأمريكي الأكثر شعبية مع فن الهايكو، حيث يقول:

«الهايكو هو أن تُبقي عينيك ثابتتين على الموضوع، والهايكو الأفضل يمنحه الإحساس القادم من النظر إلى رسم عظيم، مثلا لـ (فان كوخ) بفعل قوة النظر. وكيرو المعروف بشاعريته المميزة في فن الهايكو، التي اعتبرها النقاد إضافة وحافزا لبقية شعراء العالم ممن يعشقون هذا الفن، أن ينحوا منحاه، حيث أنه بفطنته الشعرية المعهودة، وظف في قصائده: الفصول، الريح، الغسق، الفجر، الضباب، الطيور، الجداجد، القمر، النجوم، كلها تناسخت مع رؤاه المعاصرة إلى جانب تقنيات الهايكو التقليدية.

فحين نأخذ هذا المقطع الشعري الجميل:

بركة ماء
نطة ضفدع
صوت الماء

ثلاث جمل شعرية يبدو أن لا رابط بينها، ولكن حين نذهب بعيدا في فهم الصور الشعرية بتوظيفها المعجمي يمكننا أن نعمل كولاجا شعريا نتوصل من خلاله إلى مقاصد الشاعر الذي لم تكن قصيدته اعتباطية، بل بصياغة ملتبسة قصدا، تتوزع بين السكون والحركة وتوظيف المجسات الحسية للضفدعة، لتتحقق فكرة فلسفية بكل تداخلاتها الذهنية الخالصة،وهكذا بقية النصوص الشعرية، لنؤكد على ما

ذهبنا إليه من أن المتلقي هنا يصبح شريكا قريبا للشاعر في صياغة نصه. ويمكننا أن نضيف توصيفا أدق من ذلك:

إن الزن وبالتالي الهايكو، هو سلوك ذهني بطرق مختلفة تماما، لإدراك الواقع المحيط، ذلك أن الشاعر يرى الشيء عاريا ومجردا، دونما سابق معرفة ذهنية، ودون تشويش أو انفعالات، مثل زهرة، حجر، حيوان، كائن ملفت، طير، أو ضفدعة، كما جاء في نص الشاعر باشو أعلاه.

شاعر آخر يشار له بالبنان باعتباره من رواد شعر الهايكو والمقلد للمعلم الأول باشو، ذلك هو الشاعر بوسون بوسا (1716 - 1783).

ويمكننا من خلال متابعة جادة وعارفة لنصوص الهايكو، أن نخرج بنتيجة هامة تلك هي، أن شعر الهايكو هو «رسم لصور الحياة بكل مكوناتها». من توظيف الأمثلة والحكم والأقوال المأثورة، معتمدا بالمطلق على الحواس، ولعلي القول، أن الشعر كماهية إبداعية تعتمد على حواس الشاعر وتلقفه للرديء والجميل في الحياة البسيطة، ليسقط نظره عليه بطريقة بصرية مغايرة للمألوف، أو يتلقاه كفكرة وبالتالي يأتي الاشتغال على البياض، وهذه المدارك الشعرية هي التي تميز شاعر عن آخر وتجربة شعرية عن غيرها، بمواصفات نقدية صارمة.

خضع شعر الهايكو شأن بقية التجارب الشعرية الكونية الأخرى، إلى تغييرات في بنية النص وبلاغته ومواد تناوله، ولكن بفكر فلسفي أنضج وأكثر فهما، ليصبح نصا مفتوحا لتهشيم الأساليب التقليدية التي كانت بمثابة العائق في اطلاق مخيلة الشاعر، شأن ما جرى على الشعر العربي والفرنسي والانجليزي وغيرها من تجارب شعرية عالمية، نتيجة التطور العلمي والفكري والفلسفي، والخروج من نمطية وجاهزية التفكير التقليدي، حين أحدثت ثورة شعرية فعلية هشمت القوالب الجاهزة وأعتقت الشعر من أساليب تقيد حركة القصيدة التي تحررت كثيرا، حتى انفتحت على عوالم أكثر اشراقا وعطاء وتوظيفا لغويا، بأساليب تحاكي الراهن الشعري وضرورات التحول الأساسية في بنية القصيدة من خلال توسع معرفي وادراكي كبير في فكر المبدع المتطلع لتجارب خارج حدود وطنه والتلاقح معها، كتجربة الرائد بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وغيرهم الكثير. ليمتلك الشاعر ذاته الشاعرة المتحررة من قيود الكتابة التقليدية، ولكن بنسق شعري ليس متاحا للكثير ممن زاحموا الشعراء الحقيقيين، وبالتالي يتضح الغث من السمين من خلال القراءة الفاطنة لمثقف طليعي يعرف كيف يتعامل مع التوحد مع النص الشعري، اعتمادا على مرجعيته وتفكيره المتقدم زمنا ومكانا ليمنح النص المقروء قيمة فنية شاعرة مؤسسة على تقنية الكتابة الجادة.

ذات التغيير الشعري لمسيرة روح التجديد الضروري المطلوب حدث لشعر الهايكو الياباني.

يقول الباحث المغربي سعيد اكرامي في ترجمته لكتاب ريو يوتسويا (شاعر وناقد ياباني) والموسوم:

«انطولوجيا الهايكو الياباني»

إن التجريد والتعميم في شعر الهايكو هو مطلق الغياب، يعتمد على عدة مميزات هي:

1- إنه قول لحظة بلحظة في زمان ومكان محددين.

2ـ يعتمد الجملة الناقصة كما الحياة، فهي لا تظهر أسرارها الخفية، جمل إسمية في الغالب معززة بمصدر، وقليلا ما نجد جملا فعلية.
3ـ توظيفه للحواس: اللمس والذوق والسمع والشم والبصر، لتوظف كإدراكات مادية من الواقع الملموس وليس كاستدعاءات عقلية.
ويعني الكاتب هنا أن شعر الهايكويغاير تماما في طريقة صياغته النمط الشعري المعروف والمعتمد على الأحاسيس والمشاعر ودربة الكاتب والمعجم اللغوي وبنية القصيدة بموسيقاها الداخلية من خلال المفردة المنتقاة بعناية شديدة فارضا قسوته الإبداعية على أن ينتج نصا متكاملا بعيدا عن الادراكات الظاهرة للعيان كما في شعر الهايكو.
4ـ يوظف الهايكو حالات هزلية، تتقصد السخرية وبث الفرح والابتسامة، لتتحول المواقف الصارمة في الحياة إلى حالات مضحكة.
وهذه الميزة براي تغيرت بمساعي شعراء لاحقين أمثال «شيكي ماساواكا: 1867ـ 1902» الذي اعتمد الصفاء الذهني. بإطلاق العنان للخيال الشعري، وهذا بحد ذاته يعتبر تحررا من قيود الهايكو الموروثة منذ عهد الشاعر باشو.
يلتقط شاعر الهايكو أية لحظة حياتية تزحمه مهما كانت بساطتها كإحساس منه بسعادة قصيرة.
يقول شاعر الهايكو الياباني الشهير «كيوشيتكهاما»
«أن الهايكو هو التعبير العفوي عن المشاعر والحياة من خلال فصول الطبيعة الأربعة».
هنا ينبغي أن نشير للشاعر إيبيرونكاتسوكا 1887ـ 1947 الذي يعتبر المتمرد الأول على قوالب الكتابة الجاهزة، بإقحامه أسلوب المشافهة الشعرية، لتتحرر قصائد الهايكو من صرامة المقاطع السبعة عشر ويؤسس « الهايكو الحر».
هناك الكثير من الشعراء العرب، شأن شعراء أوربا خاضوا هذه التجربة وتمثلوا بها، ومن أشهر الأسماء الشعرية في هذا المجال، الشاعر محمد الأسعد الذي يعتبره النقاد أول شاعر عربي قام بترجمة وكتابة شعر الهايكو بكثير من التمكن والتميز، يشير هذا الشاعر والمترجم والممارس لشعر الهايكو، بأن «الهايكو يتسم بالانسجامات اللغوية التي تنسج خيوط ثلاثة أسطر بجمالية جرس الألفاظ والحركات الاعرابية والميزان الصرفي، بالإضافة الى السمة البصرية التي يسميها «لغة الحضور» وصولا إلى لحظة الاستنارة».
هذه التوصيفات العارفة بماهية الهايكو تمنح الانسان ما يحتاجه من الصفاء والنشاط الذهني ومن اثارة وفرح بلذة الكشف.
والهايكو يختلف عن بقية التجارب الشعرية العالمية التي لها من المساحات ما تجعل القصيدة تتحرك في كل المدارات، أما في الهايكو فالأمر مختلف تماما، كونه لا يمتلك الحيز لفعل غير شعري، لشدة الإيجاز اللغوي واقتصاده.
أن للهايكو القدرة على الانتشار خارج حدود بيئته ليغزو آداب دول مختلفة في بلدان الشرق الأقصى وآداب الغرب، فأكد حضوره القوي والمؤثر في الهند والصين وروسيا وأوروبا وأمريكا وعالمنا العربي كذلك، بسبب قدرة هذا الفن على مخاطبة روح الانسان أينما كان، فهو يشتغل بمفردات الطبيعة، وهي أم البشرية

جمعاء. ونجد من خلال القراءة الفاحصة والعاشقة لهذا الفن، أن هناك مشتركات كبيرة بين الشاعر والمتلقي، حيث يكون، بغض النظر عن موطنه وجنسيته ولغته، ليمتلك احاسيس تعتمل بدواخله من خلال قراءة نصوص الهايكو، وكأن الشاعر يتقصده هو، حتى وإن كان تواجده في أصقاع كونية مترامية، وهنا تكمن عظمة هذا النمط الشعري الخالد.

يقول المترجم فوزي محيدلي في مقدمته لترجمة شعر الهايكو:

«تتوخى قصيدة الهايكو الإيجاز وضغط المعطى الكلامي. انما تترك الكثير مما لا يقال، مقترحة بعض الترابط والاسباب الموجبة، لكن نادراً ما تجعل ذلك واضحاً. تعمد قصيدة الهايكو النموذجية الى وصف شيء أو عنصر طبيعي، زهرة، حيوان، أو مكان، متضمنة علاقة بين ذاك المدرك أو المحسوس وبين الشعور الإنساني أو الحالة الذهنية، كذلك تعتمد قصيدة الهايكو بشكل مكثف على لغة شعورية من دون أن تكون قَطْعية أو تعريفية محددة. هكذا، بدلاً من الاستنتاجات والملخصات، إقفال مناقشة أو أجوبة محددة، تتوخى الهايكو فتح الفضاءات، وإيقاظ مروحة من الاحتمالات الذهنية».

وقد نال هذا الفن الاعجاب وتبناه شعراء عرب كثيرون، حين وجدوه مغلفا بالرمزية المكثفة، سيما أولئك المحاصرون بقوانين صارمة من أنظمة شمولية، بتوظيف المفارقة والتكثيف والايجاز، الأمر الذي ساعدهم في إيصال الفكرة المبدعة للقارئ دون تحسس الرقيب المبتلي بالسطحية ورؤية الأشياء عارية دون الغور في مضمون النص، لسذاجته طبعا.

وهنا ينبغي الإشارة أن الهايكو الذي يكتبه الشعراء العرب هو هايكو عربي وليس يابانيا في كثير من الحالات، أسميناها شذرات، أو شعر الومضة، لا علاقة له بقوانين كتابة الهايكو، له خصوصيته واشتراطاته ولغته ومعجميته وحتى صوره، ومن أشهر ما تناول هذا الموضوع المقارن بين الهايكو الياباني وصنوه العربي، الشاعر جمال مصطفى في مقالته الموسومة «مسبحة الهايكو» المنشورة في «المثقف العربي» مذكرا بأهم الخصائص لكتابة الهايكو الجيدة بنظره «لفك الاشتباك بين الهايكو الياباني ومقلده الشعر العربي» هي:

- يكتب الهايكو بثلاثة أسطر تمثل الرأس والمتن والخاتمة، وما زيد أو نقص عن ذلك يعتبر خروجا على النمط المعروف.
- أن يكون السطر لافتا للنظر وليس طويلا.
- التركيز على أن اضاءة النص تعتمد على السطر الأخير.
- السطر الثاني بمثابة الحشو الذي يتجنبه أو يسقطه شعراء الهايكو العرب.
- ضرورة الابتعاد عن المجازات والتزويق اللفظي والزخارف الشعرية، لأنها ستبتعد عن نمط الهايكو ذي الطاقة الدلالية في تشكيله.
- أن يكون الهايكو سهلا وبسيطا من الخارج وذا معنى عميق تحت السطح.
- ممكن اللعب على الكلمات لتحقيق مبدأ الاثارة الشعرية.
- الابتعاد عن التحدث عن الذات وعدم التركيز على فعل المتكلم.
- الابتعاد عن توظيف الفعل لأنه يشتت التركيز.
- لا وجود لتسلسل منطقي وطبيعي للجمل الشعرية.
- الابتعاد عن حروف الربط مثل «أو، أم،

ثم، كما....»
ـ من الممكن توظيف الوزن الشعري.
ـ تقنية كتابة الهايكو:
(ماذا، متى، أين) مثلا:
غصن أجرد (أين)
غراب (ماذا)
عتمة الخريف (متى)

ـ تقنية المقاربة:
ضباب تشرين
عمتي العجوز
تسأل من أنا
هذه المجاورة تخلق تعتيما وضبابية مطلوبة في هذا الالتباس في الفهم.
ـ تقنية التفتح التدريجي حيث تكون الضربة الأخيرة هي خاتمة الفكرة وذروتها.
على جرس المعبد
تنام
فراشة
ـ تقنية الانتقال من العام الى الخاص. أو من الجزئي الى الكلي وبالعكس.
السماء كلها
في حقل الزهور الفسيح
زهرة الخزامى
ـ تقنية التلغيز. وغالبا ما نجد حل اللغز في السطر الثالث.
الزبون يشتري لغيره
البائع يطرد فكرة الاحتفاظ بواحدة
محل بيع الشواهد
ـ تقنية اللعب على الكلمات:
وهي تقنية معروفة لكل الشعراء لتوظيف الصور البلاغية ذات الغموض مثل التورية، بمعنى أن الهايكو يقول شيئا والمتلقي يفهم شيئا آخر.
وهناك العديد من التقنيات الرئيسية والفرعية مثل تقنية التضاد وتقنية المشهد وتقنية التعليق وغيرها.
ننتقل إلى قصيدة الومضة العربية ومقارنتها بالهايكو:
ترتكز قصيدة الومضة على تكثيف اللغة والتركيز الشديد واعتماد الاستعارة والصيغ البلاغية، دون تحديد لعدد الأسطر ولا موضوعات تداولها، وأحيانا تبدو الفوارق بين النمطين غائمة ومن الصعب التفريق بينهما. وهناك فارق شاسع بين الهايكو وقصيدة النثر، ذلك أن هذه الأخيرة تعتمد البوح والسرد وما شابه،لا نود التطرق اليها لأن الفروق واضحة وجلية.
وشعراء الهايكو بحسب الشاعر «جمال مصطفى» ينقسمون إلى ثلاثة أنواع:
الأول: شاعر متخصص بكتابة الهايكو ولا يكتب سواه.
الثاني: شاعر محترف ينظر للهايكو باعتباره فضاء تعبيريا ويوظفه لأفاق تجريدية أو فلسفية توسيعا لأفق اشتغاله.
الثالث: شاعر فنان ويكون رساما ينظر للهايكو من مرجعيات فنية.
الهايكو والشعراء العرب:
لا زمن محدد لتوظيف الهايكو من الشعراء العرب، ولكن ما تقوله المراجع أن الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة، ذيل قصيدته باسم (الهايكو- تانكا) عام 1968:
هايكو:
يا باب ديرتنا السميك
الهاربون خلف صخرك السميك
افتح لنا نافذة الروح
تانكا:
أجاب شيخ يحمل الفانوس في يديه
يوزع الشمعات
على نثار دمنا المسفوك

وحين سلمنا عليه
بكى... واصفر وجهه... ومات
وهذا النص تفعيلي كما يلاحظ القارئ، يبدو من خلاله أن الشاعر المناصرة على اطلاع بشعر الهايكو، لكنه ابتعد كثيرا عنه ما عدا بعض الإشارات مثل: مقارنته بين الباب والسميك.
ومن الشعراء العرب الذين اهتموا بشعر الهايكو هم:
الشاعر المغربي أحمد لغليمي، في ديوانه «رسائل حب إلى زهرة الأرطاسيا» خصص هذا الشاعر ديوانه للهايكو، يقترب الشاعر كثيرا من الهايكو:
لشدة الأزهار
عدلت عن
عبور الغابة

القمر في البركة
تبعثره
ضفدعة
ومن الشعراء العرب في سوريا: محمد الأسعد ولؤي ماجد سليمان ورامز طويلة. وللهايكو حظوة كبيرة في سوريا لكثرة المشتغلين عليه من شعراء ونقاد ومترجمين ودارسين، وتم تأسيس مجموعات لعشاق الهايكو في سوريا.

على جرف صخري
تتلاطم الأمواج متلاحقة
لا تطال ظلي
(رامز طويلة)
دون أن ننسى تجربة كاتب هذه المقالة الشاعر جواد وادي في ديوانه الصادر حديثا والذي أسماه «سيرة الفصول» والذي يقترب كثيرا من شعر الهايكو.

كلّما تناثرَ الزجاجُ
رفعوا شارات النصرِ
وبدأتِ الأهازيجُ

مَنْ يزاحمُ الطيرَ
في علوه...
لا يسمعُ زقزقةَ العصافيرِ.
(جواد وادي)

لا نريد أن نذهب أبعد من ذلك لتسليط الضوء على شعر الهايكو والكشف عن الكثير من أسراره في هذه الورقة، والذي يحتاج مثل هكذا تجربة غنية دراسات مطولة سنأتي على إنجازها، أو نحن نعمل فعلا على الاشتغال عليها.
من الضروري أن نذكر بعض الشعراء البارزين في الهايكو مع الاستشهاد بنصوصهم خدمة للقارئ والباحث عن الكشف والتقصي والمتابعة، للاقتراب أكثر من شعر الهايكو، هذا الابداع الشعري الذي يستحق أن يطلع عليه المثقف العربي، لرفد التجربة الشعرية العربية بالجديد، خصوصا الجانب الروحي والصوفي منه.

1ـ شيكي ماساواكا (1867ـ 1902(
أكد هذا الشاعر على أهمية «الشاسي» (الوصف المابعد طبيعي)، هذه الفكرة قادته الى الوصف البصري بأسلوب يتميز بالبساطة.

المطر الدافئ يسقط
فوق الأجمة العارية
المستنقع المتجمد

نبتة الليف أزهرت
أنا روح

مخنوقة باللعاب

2ـ كيوشيتكا هاما (1864ـ 1959)
شاعر متجدد يطلق العنان للخيال، يعتمد على القيم العسيرة الفهم ذهنيا، عادة ما يوظف الرمز:

ثعبان هرب
رمقني بعينيه
وبقي وحيدا بين الأعشاب

تتناول الفتيات شتلات الأرز
بريق الماء يهتز
فوق ظهر قبعات البردي

3ـ إيبيرو نكشوكا (1887ـ 1946)
دعا هذا الشاعر إلى توحيد اللهجة العامية مع اللغة الفصحى، أسس الهايكو الحرالمتحرر من المقاطع السبعة عشر، محفزا على التجديد:

صورتي
التي خرجت من المرآة
جاءت لعرض الأقحوان

الحاضنة
توقفت بدلو ملئ بـ «بزاق البحر»
ثم مضت

4ـ سيكيتي هارا (1839ـ 1950)
نجح في التعبير عن الجمال الصارخ والحاد، وأحدث صدمة لشعراء الهايكو.

الشجرة اللزجة
تفلق ببلطة
صوت امرأة سليطة

القمر
فوق الجبال الثلجية
أسقط امطار البرد

5ـ هيساجو سوجيتا (1890ـ 1946)
هذه الشاعرة تتحرى الدقة بين المشهد الخلفي والمشهد الأمامي أو الظاهر وما وراءه، اعتبرت أعمالها من المصادر المهمة لدراسة الهايكو المعاصر.

أقص الحرير
سيقان الدخان تتماوج وتتشابك
في النافذة

بتلات الأقحوان
تتقوس في بياضها
تحت ضوء القمر

6ـ سوجو تاكانو (1893ـ 1976)
شعر سوجو هو الأقوى للوظيفة الرمزية، وكان من أبرز شعراء مدرسة الهوتوجيسو.

نملة الأسد
لا نسمع غير الريح
تهب أشجار من الصنوبر

نسيج العنكبوت
منصوب
أمام الزنابق

نقول هنا، لا ينبغي لأي قارئ مهما كان مستواه أن يستسهل هذا التوظيف الغامض والذي يطرح هذا السؤال:
كيف يتسنى للقارئ العربي أن يتصالح مع شعر الهايكو الذي يحتاج إلى عاشق

بمواصفات صوفية، وعلى قدر كبير من الخزين المعرفي والفلسفي لفهم هذا النمط الشعري الذي يبدو للقارئ العادي مفكك الصياغات والجمل ظاهريا وبفهم سطحي، ولكنه في معانيه شعرا فلسفيا خالصا.

7. كاكيو توميزاوا (1902. 1962)
استعمل الكثافة الرمزية في نصوصه، رائد مجدد في شعر الهايكو.

رافعة
ترسم ظلالها مع الغروب
تسحب أجنحتها مثل الدخان

أصوات مكتنزة لأحذية
تتواصل بانتظام
بجانب المصباح

8. كوانغاتا (1900. 1997)
شاعر مفكر يعتمد على التحفيز الذهني وقارئه يجب أن يفكر مليا حين يقرأه.
القواقع تتناسل
غارقة في غريزتها الجنسية
امرأة تخيط فستانا

إلى زهرة القرنفل
يأتي النمر
طائرا

9. دكو تسوإيدا(1884. 1962)
يعتمد في شعره على الحياة التائهة، لا يحب المدينة وصخبها، دائم التواجد في البادية التي عبر عنها في قصائده، حيث يعتبرها هي الأرض العجيبة التي تتكاثر فيها الآلهة والأرواح.

ليلة تحت ضوء القمر
ظل جبل فوجي الهائل يظهر
يا له من صقيع

أمام بوابة معبد الجبل
يمر السحاب نشوان
باعتدال طقس الربيع

10. نيجيفو بونو (ت2002)
تأثرت بشعرية الفضاء لغاستونباشلار، بدأت مشوارها الإبداعي بالرسم، حيث عبرت عن رؤيتها الشعرية بالخطوط والألوان.

الربيع يتأمل
عاقدا يديه
فوق جذور مرّة تنمو بسرعة

آه يا زهرة شجر البرقوق
كم نذبل
داخل المكتبة
11. تايكا كيموتو (1928. .....)
بدأت قصائدها بكتابة شعر الطانكا ثم تحولت إلى قصائد الهايكو.

يمضي الصيف
أزيح الستارة
فلا أرى شيئا

عندما تقترب مني فراشة الشتاء
جرس المعبد الضخم
يتحرك بخفة

12. سي أيماي (1950. .....)
من المعجبين بشعر باشو وشوشون كاتو وإزرا باوند، يكتب السناريو للسينما.

المنارات
التي تضئ عباد الشمس
انطفأت

طرقات طوكيو
كأمعاء
تحت ضوء القمر

13ـ شوسو نكاتو (1905ـ 1993)
بدأ بشعر الطانكا ثم تحول لكتابة الهايكو، يكتب القصيدة اليومية، موظفا الوجود الإنساني المليء بالدهشة والغرابة.

ما يصلح لأبنائي
لا يصلح لي
ربما أحتاج تقويما جديدا

عندما ارفع قبعتي
تنتشر زرقة الليل
في سماء الشتاء

نوارس الشتاء
الأحياء بلا مأوى
الأموات بلا قبور

14ـ هيكيغو دوكوا هيغاشي (1873ـ 1937)
أطلق نظرية خاصة به أسماها «هايكو بلا مركز»، نادى بقوة بتحرير الهايكو من صرامة التقليد.

ثور راقد
أو صخرة غافية، سيان
فالأعشاب ستنمو

مندهشا
أجد نفسي بعد سنة نوم
وحيدا

15ـ شيكي ماسواكا (1867ـ 1902)
كغيره من معظم الشعراء، اهتم أولا بشعر الطانكا ثم الهوكو، اعتمد في توظيفاته الفن التشكيلي الغربي لنسج قصائده، زاوج بين الشعرية اليابانية والفنون الجميلة الغربية.

زوبعة الصيف
أغطية الأوراق البيضاء
فوق الطاولات تتطاير

رمال بين فروج الأصابع
الغمام ينسحب
في صباحات الخريف

16ـ هوساي أوزاكي (1885ـ 1926)
عاش حياة تشرد في أواخر أيامه، تتناول موضوعاته الوحدة والألم.

على الشاطئ الرملي
حاولت جاهدا أن التفت
لا أثر للأقدام

أذهب لتسميد الخضروات
أمي هل ولدت
فقط لأجل هذا

17ـ سانكي سايتو (1900ـ 1962)
بعد مرضه تفرغ لكتابة هايكو العدم، يطرح في قصائده أسئلة إنسانية موجعة.

ساق الهندباء قصير
ثقب أزرق
يعلو الى أعلى نقطة في السماء

النهر بعينه اليمنى
وبعينه اليسرى
يرى فارسا

18ـ يوكو سيغاوا (1938ـ .....)
تعرضت هذه الشاعرة لمرض أدى إلى تفرغها الكامل لكتابة هايكوالعدم بطرحها أسئلة إنسانية مؤلمة.

في اليوم الذي خسرنا فيه الحرب
لا ظل
لأستريح، لهذا مشيت

عندما يعتدل الطقس
اختي الصغرى تغتبط بالفصل
كذلك اختي الكبرى

19ـ ساكيزو تاكادا (1906ـ 2001)
جمع بين الشعر والكتابة والموسيقى، فكان متعدد المواهب، عضو في الرابطة الدولية للهايكو. ترجم الهايكو للغة الإنجليزية، للعديد من الشعراء.

كم هي شاسعة هذه الأرض
في قصر الملك العظيم
العصافير تتزاوج

الخطاطيف الصغيرة
تفتح مناقيرها بحجم
رؤوسها

20ـ ميتسيو تكهاتشي (1937ـ .....)
روائي وكاتب وناشر كتب الهايكو التقليدي والمعاصر نال عدة جوائز.

يضرب قطعة فحم
بأخرى
كأنه يقيس الظلمات

تنمو الأعشاب البرية
إلى أن تصبح أشجارا
في يوم قائظ

الهوامش:
اعتمدت هذه المقالة أساسا على:
ـ انطولوجيا الهايكو الياباني للكاتب ريو يوتسويا، ترجمة سعيد بوكرامي ط١ ٢٠١٣ عن الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع ـ الجزائر.
ـ جاك كيرواك: كتاب الهايكو، ترجمة لينا شدود عن منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف.
ـ كتاب أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو. تأليف هنري برونل، ترجمة محمد الدنيا من إصدارت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت.
ـ مقالات من موقع المثقف ومواقع أخرى.
ـ يلفظ حرف الكاف في أسماء الشعراء كما الجيم المعطشة في الكلام المصري.

الماء يكتب على الجسد
(القسم الثالث)

ناجح المعموري

تولد 1944، أكمل الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في الحلة. عين معلما عام 1964، ولأسباب سياسية نقل عام 1978 إلى دائرة الضمان الاجتماعي حتى تقاعده في 31/ 3/ 1988.
نشر في 24/ 12/ 1964 أول قصة بملحق الجمهورية. أصدر أكثر من 30 كتابا في القصة والرواية والملحمة والأسطورة والتوراة والنقد الأسطوري عن دور نشر في بغداد- السليمانية- اربيل- اللاذقية- دمشق- بيروت- عمان.
نائب الأمين العام لاتحاد أدباء العراق.

(قلت أنني استعدت ما نسيته أو لم يكن في بالي ولا في الحدود الضيقة لمعرفتي . من قبيل أنني أتذكر أن الديك يصيح في الفجر فقط ! لكن يا لجهالتي، فهو يصيح من الفجر حتى مغيب الشمس ... وفي الليل أحيانا ص 178//

هذا أنموذج للسرد قلق الإعلان والإفصاح ، وابتكر فيه منطقة أخرى غير التي كان موجوداً فيها ، منطقة تمركز العلاقات في الموجود بالحياة والطبيعة. وما قاله في هذا النص هو خاصيته المتحايلة على القارئ ، أو اللعبية كما قال، لأنه ظل كافياً متردداً في القول النهائي . وظل غير واضح ، بل ذهب نحو الاحتمال ومثال ذلك: استعدت ما نسيته / أو لم يكن في بالي ولا في الحدود الضيقة لمعرفتي .

في هذا النص أكد استعادته لما نسيه. أو لم يكن في بالي ولا في الحدود الضيقة لمعرفتي . فالديك يصيح في الفجر فقط حتى مغيب الشمس.. وفي الليل أحيانا . كان بإمكانه الاكتفاء بالمقطع الأخير ويمنح نصه حضوراً مركزاً، لكنه كتب سرداً مترددا مثيراً للريبة والشكوك. لم تأت سرديات الديك وانفتاحه الرمزي من هيمنته الثقافية، وصوته الداعي للانا من اجل جذب الآخر الأنثوي وتحقيق تعارف لدّي، ينتهي أخيرا بالانتفاش منتصراً، دائراً أمام أنثاه ، حتى الطيور والحيوانات تتعاطى مع الدوران بعد التسافد أو قبله ولأنه - الديك - حاضر من غير استدعاء ومسموع في كل في كل البيوت، تراه النسوة والفتيات يومياً، وربما هو الأكثر تسافداً وقفزاً لكثير من الدجاج في البيت، وفي ميثولوجياته: يظل بعيداً ، لا يدنو من الفروج، غير المستعد باكتماله للقفز والتخصيب ومثل هذا الديك محبوب / عزيز / يطعم باستمرار، لأنه منتج غذاء العائلة .

وللطاقة الخفية المستورة تحت ريش ملون، دنت منه المرأة أكثر وأنتجت أساطير العزلة والقطيعة ارتباطا به، لأنه - الديك - أفضل من يعيد تمثيل الرجولة

وحصراً الزوج الغائب أو المرأة الزعلانه المنتظرة لمجيء الزوج لاستعادتها، لكن أغنية الديك / صيحته الأخيرة ليلاً ، تودع المرأة جسدها للنوم. هذا التأسيس التمثيلي بين الرجل والديك، له جذور ميثية بعيدة في الذاكرة الجمعية في كل مكان من العالم، وبالإمكان الاطلاع على الغصن الذهبي لجيمس فريزر سنجد كما من الأساطير ذات العلاقة بالديك، خاصة بالخصوبة، وكشف فريزر عن علاقة بين روح القمح والديك. ومنحت هذه العلاقة الديك صيغة تقترب كثيراً من الإلهة الشابة القتيلة، لان القمح يحصد / الموت ويبعث دورياً، وحتى لا تتعطل الحياة بعد الحصاد ، بغياب طاقة الإلهة المذكرة، لابد من بديل له. وكان الديك هو الأفضل.

لموت الإله الشاب، يصعد بديله اللقاح رمزاً قضيبياً يتسع لمرويات أسطورية كثيرة (ناجح المعموري / تأويل النص التوراتي / أسطورة بنات اللقاح / وعقائد الانبعاث الكنعاني / دار المدى / دمشق .

يزاول ديك يحيى فحولته ويعلن عنها عندما يكون حراً خارج القن وكأنه يعلن دعوته لمن ترغب. وفي اختصارات يحيى الواضحة للديك في تجربته التشكيلية نوع من الجذب والتمركز منحه ـ الديك ـ أن يقترب اكثر فأكثر من يحيى الوريث لأبيه .

هذا الفحل الداجن المعلن عن حريته حزمة ميثولوجيات وعقائد حاضرة في الديانات اليهودية / المسيحية / الإسلامية / التي منحته جهازاً سردياً / ميثولوجيا خاصاً به . الديك رمز معبر عن الأب وامتداده في العلاقة مع الأخر / الأنثى وسيرة الفنان مكتفية بسرديات واضحة سنحاولها لاحقاً وفي العودة لعديد من الأساطير الخاصة بالديك ، التي ذكرها جيمس فريز في كتابه « الغصن الذهبي» / دراسة في السحر والدين، نجد بأن روح الحنطة // ص 577// لها تمظهرات في عديد من الحيوانات وتأتت هذه الميزة الجوهرية من القداسة التي يتمتع بها القمح ، باعتباره الها شاباً معروفاً في حضارات الشرق، ومنها ارتحلت الى حضارات كثيرة في العالم. ما يهم قراءات فريزر المقارنة بالنسبة لي هو أن الديك روح للحنطة ، بمعنى بديل سحري للإله الشاب القتيل الذي ينزل للعالم السفلي في موسم الحصاد، وقبل نزوله لابد من روح بديلة له، وكان الديك من بين كثير من الحيوانات روحاً للحنطة ومنها / ذئب / كلب / ثور / أرنب / قط / ماعز .... الخ وعندما يتحول الديك بديلاً للإله الشاب / القمح الذي يطحن كقربان مقدس ويتشارك الكثير من الحيوانات والبشر تتناول القربان وكان الديك احد المشاركين بعيد قربان الإله النازل للعالم السفلي / القمح في جسده كجزء من أسطورته وسحرياته المتداولة والمرتحلة بين الجماعات الوارثة لها والمتعاطية لطقوسها دوماً وبمناسبات خاصة، وتضفي كل جماعة من الجماعات نوعاً من التخيل عليها وهكذا تظل أساطير الديك وطقوسه وعقائده متنمية خاضعة للتحول والتطور باستمرار، لأنه حاضن لمجاز متنوع واعتقد بأنه ـ المجاز الذي فيه ـ هو احد المجازات التي أشار لها نيتشه والمانحة للحياة قيمتها.

والإسهاب المشار له. في مبررات الرسم / والأغاني واللعب عليه، واكتشاف أسرار

وخفاياه وقيادته نحو أسطورته البدئية، هو الذي جعل منه حيواناً داجياً ومجازاً. ويتشارك مع غيره الطيور الأليفة مثل الحمام والعصافير في وضع الكائن، رجلاً كان أم أنثى ـ أمام حقيقية الجنوسية ويأخذه الى وظيفته البيالوجية، عندما يرى الديك يسافد أنثاه وهن كثيرات ومثل ذلك تفعل الطيور والعصافير. بمعنى أكثر اقتراباً من تحقق الحلم أو الإثارة الجنسية لدى الرجال والنساء (للديك ريش نادر).

الطيور المحفورة في ذاكرة الطفل والمتحولة بئراً معطراً بالرفرفات هي التي زجت بالفنان لدخول باب جديد / تجريبي ، محفوف بالمخاطر ـ مثلما سجلت ذلك السيرة ـ والمحبة ... وحتماً الكثير من التفاصيل الخاصة بترتيب كل شيء ـ حتى المخيلة ـ للبدء بتجريب جديد ، موثوق منه وقناعة متوفرة بالمحاولة التي استعانت بما يمكن أن نصفه بالنفايات القادرة على ابتكار جماليات . وعرفت التجارب الكثيرة العديد من الفنانين الذين انتبهوا زمن الحصار الى النفايات وأهمية توظيفها في التشكيل وأبرزهم محمد مهر الدين .

هذه لحظة هاربة من العراق وجذبت يحيى الشيخ إليها محاولاً الإمساك بها. المحاولة العراقية تحققت بضغوط الحصار لكنها بالنسبة ليحيى الشيخ ، هي غير ذلك تماماً. الدنو من توظيفات الفن للحصول على جمال فيه ابتكار لعلاقات خاصة مع المواد الأولية وهي لحظة جديدة / حاضرة، متخندقة وسط لحظة هاربة ، واعني بها ذاكرة الطفولة ومشاهداتها وسط اللطلاطة وسيادة منظر الطيور والدواجن ، هي التي حفزت الفنان لتوظيف الريش بوصفه مادة أولية ، أخضعها الفنان لتجريب طويل ، حتى اكتمالها وانجاز عديد من اللوحات الفنية . وكم هي غنية مثل هذه التجارب، وكأنها خاضعة لكيمياء مختبر، أنجز مهمته بنجاح .

هذه التفاصيل المختصرة، هي جزء من مرايا الأيام وفطنة اليوميات التي سجلت الأيام والمحاولات، ومنحتنا خلاصة جديدة، علمتنا كيفية الإمساك بالحياة، وانبثاق روح الماضي بطريقة جديدة. أن تسجيل الحياة الهاربة مرة أخرى تعبر عن حنين العودة لها. وكانت الكلمات هي الجديدة بذلك وكتب يحيى الشيخ بواسطة ما هو شائع ومألوف / اللغة والألوان والأحلام . فكان السرد ودقة الوصف فيه وصعود براعة التقاط الصورة والدنو إليها أكثر من خلال وصف تفصيلي ، يسعى لتسجيل ما هو مستعاد، والحفاظ عليه خوفاً من الرماد .

هذه المحاولات الجديدة والمحفوفة بشيء من المغامرة، ومجازفة تشوش الصورة أو ارتباكها، واحتمالات الانحدار باتجاه الفشل، لكن التفاصيل التحضيرية وضعت القارئ أمام إمكانات النجاح، أو تفوق الطفولة بتذوق «عسل البئر» واعتقد بأنه من المهم والمفرح أن نتمكن من تسجيل تفاصيل التجارب والخوف منها حتى تمنحنا كل هذه السرديات البسيطة / والسريعة شحنة من الفرح والسعادة الغامرة والهائلة. تحققاً ونجاحاً ، حيث تتحول لحظات التخطيط الأولى إلى بدايات لدخول التجربة من بابها وإحياء الطفولة في ماضيها وحاضرها. لأني اعتقد بان الفنان ولد طفلاً ويظل طفلاً حتى لحظة

وفاته. طفولة الماء والشعر والجمال، بمعنى آخر وكما قال هراقليطس «الزمن طفل صغير يلهو ويلعب بالبرد، وللطفل السيادة .

من المفيد والحيوي ملاحقة الزمن والتعلق بنهاياته على اقل تقدير وتسجيل تاريخه بواسطة الريش / والأغاني والرماد .

الديك / الفحل من الدواجن له شبوبة متفاخرة بمخزونها غير المعطل ، ليس أبهتها بالطاقة فقط ، وإنما بالألوان الموزعة على جسده ، لتعوضه بالزهو بعد ما فقد للأبد قدرته على الطيران كما في أسطورته المشهورة .

التي لم أرد الإشارة لها لأنه ـ الديك ـ مكتف برمزيته / ومجاز القوى وهما من ممنوحات الأسطورة. ولذّت سعياً وراء المتخفي من المعاني الخاتلة فيه، وهو الذي قادني لقراءة صورته المألوفة ، وفحص الإسرار الجنسية التي تماهت مع الأب والابن. والديك نوع من السلطة ، فيها متخفيات كثيرة ، غير مرئية ومعروفة بشكل شائع . ومن العلاقات الدالة عليها ، زهو الريش والكبرياء وفيضان الطاقة المثيرة ايروت كما للنساء الراصدات للمفضوح من علاقة بين الديك والإناث. لكن يحيى الشيخ التقط علاقة أكثر تخفياً وعمقاً (للديك ريش نادر: منشأ الريش عادة ما يكون من الزغب بلون يتدرج الى لون أخر في جسده المغزلي حيث تغدو الريشة ذات شكل واضح تقارع الريح تنتهي الى ذيل طويل بلون اخر مغاير ، بعضه ابيض يتدرج الى حنطي اللون وينتهي بذيل رقيق احمر قاني. أو رمادي خفيف، ثم اسود بذيل اخضر قاني ... يا الله ماذا خلقت؟ الريش مادة متينة جداً لا تلويها اعتى العواصف ، لها قدرة

فائقة للتعايش مع المناخ. ثابتة اللون والرقة والضمير / مبررات الرسم / ص //174

منح الفنان الريش حزمة من العلامات السيميائية لم يكن المنح اعتباطياً، بل توصل إليه عبر اللمس والمعاينة والمراقبة الدقيقة، حتى استقصى الألوان وتحولاتها تدريجياً، مما جعل من الديك مجموعة ألوان تخضعها الطبيعة وعناصرها لحتمية التحول البطيء والاكتمال دال على قدرة الخلق، التي جعلته مستفهماً، وهو خلق متماهي مع التكونات الأولى في الحياة والطبيعة، ولكل مخلوق عناصره، وخصائصه وما يميزه عن غيره. الكائن محكوم بارتباطه بالكينونة.. ويشترك الجميع بذلك، لكن لكل منهم ما يجعله مختلفاً فيه ما يثير العين ولا يجعله شبيهاً متطابقاً مع الغير / الآخر .

ما كتبه يحيى الشيخ عن الديك والدواجن

والطيور استخلاص لدقائق تجربته هو التي من غير الممكن أن يكون حديثي بديلاً كافياً عن الاطلاع عليها ومعاينة ما أنجز من تشكلات فنية واعتقد بأن تصورات الفنان عن الديك، خميرة لعديد من الأساطير في العالم وسأحاول الإشارة لذلك ولن اكتفي بما تحدثت عنه واعتبرته مجازاً ورمزاً. ووصف الشيخ لريش الديك وزغبه فيه استفادة من الأسطورة الإسلامية التي سجلها د.محمد عجينة. الذي أشار الى أن صيحة الديك ، تنبيه لمن في الجنة، وأول من يستجيب لذلك ملك من ملائكة الجنة وهو على صورة الديك وله ريش زغب ابيض / د. محمد عجينة / موسوعة أساطير العرب / عن الجاهلية ودلالاتها / الفارابي / بيروت / 1992/ ص 300//

والملائكة خلق من النور كما يذكر القرآن الكريم . يقول ابن العربي الملائكة أرواح منفوخة في أنوار، نظرا لقداسة هذه المخلوقات ، لم تطلق الثقافة الشعبية العنان لمخيلتها في شأن شكلها، بل اكتفت بما ورثته عن الثقافة العربية الإسلامية.

أن غروتيسكية هذه المخلوقات تتمثل في كونها تجمع بين هيئة معينة وهيئة الطيور، وذلك لانها كائنات ذوات أجنحة يختلف عددها من كائن لآخر / صلاح الدين الجباري / بلاغة الغروتيسك / دار النايا / دمشق / 2010/ ص 253//

وبالإمكان العودة لهذه الموسوعة للتعرف على المركز الأسطوري المهم المميز للديك وعلاقته بآدم ونوح والجنة، وأضفت التصورات الإسلامية صفات ذات مركز في تشكلات العتبات الفكرية المبكرة. وعلى الرغم من الإشارات السريعة عن الديك في السيرة ومبررات الرسم، يظل كائناً استثنائياً وحازت البنية الذهنية الإسلامية على الديك الأبيض باعتباره المعلن عن الفجر والدعوة للصلاة وأضاف د.محمد عجينة: ومن معانيه انبلاج الحق بعد ظلام الجهالة ولذلك دعي المسلمون الى اتخاذه في منازلهم ولاسيما الأبيض، وهو من طيور الجنة، أن اكثر طيور الجنة الديوك. وان لله ديكاً في العرش، إذا هو سبح سجدت الديوك كلها في الأرض فتهزم عند ذلك الشياطين ويبطل كيدهم / سبق ذكره / ص 302//

تميزت «سيرة الرماد» بالتخفي والاختباء وراء سياقات السرد لذا كانت وظلت هذا النهاية ملغمة، ومتكتمة، وليست بريئة وتوصلت القراءة الى مخفيات كثيرة، وكانت القراءة لها مماثلة لعمل الاثاري وهو يحمل ادواته ويلاحق المدفون منذ زمن بعيد وتضمنت السيرة الاشارة حول الحفريات أيضا .

تولد ملاحظتي حول التخفي والتستر على الكثير من ملاحظة عامة معروفة للجميع. وما قاله يحيى الشيخ محفز لعمل الحفريات، لان الاسرار كامنة في الاعماق «سأفتح باب ذلك البيت الطيني الشاسع كالفلاة تحرسه اندر النخيل، كما تحرس الالهة قلاعها. لا يبعد غير ذراع عن جرف دجلة وهو يجري منذ الازل هو واثقاً من مصيره، علني اعثر على ذلك الصبي المولود في الخامس من نيسان 1945 على رأس أربع بنات في قرية. اللطلاطة المندائية شمال قلعة صالح في ميسان.. مكان قصيّ معزول لطائفة ذات أسرار عصيبة لا تجتازه غير مراكب عابرة ، ذات أسماء غريبة وأشرعة

مرقعة وبعض الغجر والسحرة من حين لأخر / مبررات الرسم / ص192/ الى ص 8 //

لم يترك سيرته بيضاء السطح ، بل كان ينثر عليها ، ما يلفت الانتباه وكأنه حاز وظيفة مزدوجة غير الكتابة ، الإشارة الدالة على الكامن . لان يحيى الشيخ ابن اللطلاطة ذات الخفايا والأسرار الصعبة التي لا يمكن تفكيكها وكشط سطوحها لمعرفة الخبايا تحت السطح / أو السطوح . لان يحيى وريث التقاليد وحافظها وحاميها . لكنه وجد نفسه بعد أن طفر منها الى ديانة قريبة منها ، ابتداء يفشي أسراره / خفاياها ، لكن بحرية مقيدة لبقاء راسب السريات في داخله ، ولحظتهما يشعر بتحرره الأكثر منها يقول لنا ما هو مثير جداً .

الديك حاضر بتمركز جيد في الذاكرة العربية قبل الإسلام والإشارة على ذلك كثيرة في كتب التراث والأخبار ، وسارع الإسلام ، كدين جديد ، لحيازة ذلك وإعادة انتاجه والتحكم بدلالته المغايرة ، المانحة للدين جوهره الجديد . والذي دائماً ما يتميز بالتزام المسلم بالتعاليم والتشريعات والوصايا الأساسية . ولان الصلاة أحدى عناصر الدين والإيمان به لابد من انتاج أسطورة خاصة به ، فاستعار أساطير الديك ورقشها بما هو مطلوب . وصارت له أسطورة جديدة ، مقترنة مع الإسلام ، فهو ساعة الكائن المسلم ، المعلن عن بداية اليوم / فجره ، ويقود الكائن للصلاة وبعدها الأمر سهل ويسير . اليقظة فجراً هي بداية الزمن الجديد . ولان الدين الجديد / الإسلام ، أكثر الأديان عناية بالجسد ، لان الرسالة الجديدة معرفتها بالتفاصيل عن الجسد ، الذكري والأنثوي . ووضع ضوابط والتزامات على الجنوسة . وحفظ الدين للرجل مكانه في العائلة خاصة ، لأنه وحيد ، انتظره العائلة الصغيرة والكبيرة ولأنه ولد في يوم ليس كالأيام ، وظل محمولاً (لم أكن انزل الى الأرض كنت محبوباً ومباركاً ، ولدت في أقدس أيام الصابئة المندائيين أيام الخلق ، خامرني احساس بشيء أن لي ربًّا يحميني أينما كنت ومهما قلت / ص5//

ساهمت هذه العناصر برسم صورة الطفل، وجعلته متميزاً بمكانته وتعاطفه المبكر مع الطائفة وطقوسها وصار وريثاً جديداً لها. واقراره بخصائص المندائية جعلته مجالاً آدمياً لغزياً، ليس سهلاً الانكشاف للاخر. ومن هنا جذور الانتماء الروحي والاصطفاف مع الجماعة (لدى الصابئة المندائيين طقوس وأساطير تستمد سرانيتها من دهور موغلة في القدم، وسنن صارمة متعنتة لا تقبل الاجتهاد ، لأني من عرق كنهوتي / ص 5//

ما يميزه ويشبع شهوته المشببة دائماً بالمناخ الصحراوي اولاً وما تتركه الطقوس الوثنية المعنية بالزواج الإلهي المقدس والمعروف في مكة بشكل واسع . هذا أيضا جعل من الديك رمزاً للطاقة والفحولة وصيحته لها وظيفة الإعلان عن الاتصال اللذي. من هنا تم انتاج الكثير من الأساطير، اعتماداً على أصولها وإضافات جديدة لها. وما زال الديك في اللغة الحديثة رمزاً للرجولة (لان ذكراً واحداً يكفي في زريبة دجاج).

الإشارة لتمركز الديك بالديانة الفارسية وخصوصا الإله الشاب ميثرا، أكد ما قاله جيمس فريزر بالغصن الثقافي حول روح القمح والديك، واستحضار الديك

لحظة حصاد القمح تمثيلي واحيانا استحضار حقيقي، وهذا مغاير عن علاقة القمح والإله الشاب أوزيريس، ففي اللحظة التي يحصد فيها القمح يظهر نبات اللفاح، وفي التوراة إشارة – سفر التكوين – لصفقة حصلت بين راحيل ولينة، حصلت بموجبها راحيل على –اللفاح – وفازت لينة بليلة مع يعقوب، اتصل اللفاح رمزيا مع راحيل –الهته – وخصبها بيوسف.

ينقل لنا الشعر الجاهلي صورة واضحة عن مدى ولع العرب بالجنس ويقول بعض الباحثين، أن الدليل على ولع العرب بالجنس دون غيرهم من الشعوب الأخرى ، أنهم وضعوا أكثر من مئة لفظة للنكاح . وذكر ابن القطاع الصقلي 1083 اسما للنكاح ويقول وفرة الاسم تدل على شرف المسمى / شاكر النابلس / الجنسانية العربية / الجنس / والحضارة / المؤسسة العربية للتوزيع والنشر / بيروت / 2013 / ص291//

ويرمز ـ أيضا ـ للشبق في بعض كنائس القرن الوسطى . وفي رسم القديس بروجيل . وانتشرت وظائفه الرمزية كثيراً وفي بلدان عديدة ومنها على سبيل المثال فرنسا، ويمثل على القطع الذهبية والبرونزية للجمهورية الفرنسية. والديك طائر شمسي، رمز للكواكب والنور المتوالد، ويصيح قبل شروق الشمس. وصياحه علامة تشتت الأشباح الطائفة أثناء الليل. واستعارته بلاد فارس، واعتمدت عليه ديانة ميثرا، الإله الشباب واسماه اليونانيون ـ الديك ـ الطائر الفارسي / فيليب سيرنج / الرمز في الفن الأديان. الحياة. ترجمة عبد الهادي عباس / داء دمشق / 1992/ ص 184/185 /

الإشارة للتمركز الديك بالديانة الفارسية وخصوصاً الإله الشاب ميثرا، أكد ما قاله جيمس فريزر بالغصن الثقافي حول روح القمح والديك. بمعنى وجود علاقة عميقة بين الإله الشباب والديك. واستحضار الديك لحظة حصاد القمح تمثيلي وأحيانا استحضار حقيقي، وهذا مغاير عن علاقة القمح والإله الشاب اوزيريس، ففي اللحظة التي يحصد فيها القمح، يظهر «نبات اللقاح» وفي التوراة إشارة ـ سفر التكون لصفقة حصلت بين راحيل وليئة ، حصلت بموجبها راحيل على ـ اللقاح ـ وفازت ليئة بليلة مع يعقوب ، اتصل اللفاح رمزياً مع راحيل ـ أكلته ـ وخصبها بيوسف وإذا استعرنا خصائص اوزيريس ، الإله المصري الشاب ، سنلتقط عصيباً يجعل من الأب عبد الشيخ اكثر اقتراباً الى نظام الالوهة الشابة القتيلة ، فيما إذا عرفنا بأن السلالم والدرجات في مصر القديمة رموز مبكرة جداً للاعتلاء والارتقاء والصعود . وكنا كررنا الإشارة للصعود في سيرة الرماد مراراً ، وهذا الفعل الديني المصري أكثر تماهيا مع الأب ، وكشفت المقابر احدى الرسوم الخاصة بالإله اوزيرس ، بوصفه الها على قمة درج ويرمز هذا لبعثه مرة أخرى / ما نفرد لوكر / معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة / ت : صلاح الدين رمضان / مكتبة مدبولي / القاهرة / 2000 / ص 131//

وعرفنا من خلال سرديات الأب بأنه صعد سلماً كي يذهب لعشيقته ويحرق عود كبريته ، وعندما تم له ذلك سقط ميتاً وصعوده بشري ، مختلف عن الصعود

الإلهي . لكن انبعاث الأب رمزي تحقق له في السيرة التي كتبها يحيى الشيخ ، وأيضا من خلال يحيى الوارث لأبيه ، متجاوراً مع زكريا ، الذي طلب من ربه وارثاً فأعطاه يحيى ، والتناص قريب وأوضح للغاية حتى السيرة أكدت على ذلك (هل يبعث الله فينا ما كان في أبائنا ص 55//

******

بودي الإشارة لملاحظة جوهرية عن قراءتي الثقافية لسيرة الرماد ، وهي أني لا أتناغم مع ما أراده المؤلف في سيرته، وان استلمت مفاتيحي منها، وانعزلت مكتفياً بفحوصي الخاصة المستولدة من موقفي الثقافي والمعرفي في تأمل النص، وانتظاره لحظة استجابته لي، بعدما تتراكم معلوماتي.. أنا مكتشف سيرة الرماد، وأنا المخبر العلني عن الكوامن لسيرته فيها المعروفة ربما التي في الكتاب وتلك غير المعروفة .

يحيى الشيخ فنان وسارد مهووس بالذاكرة / مرآة الفرد والجماعات وأيضا مهموم بالذات / الأنا ، وبقايا الآخر ، المتشارك بكتابة الذاكرة والهوية . بمعنى نجح يحيى الشيخ في سردية غير مألوفة ، و تقليدية ، لوضع فردانيته وجهاً لوجه مع الأخر ـ حسب مفهوم ليفناس ـ الذي عرفه وما زال على سطح المرآة / السرد. وهنا تحقق لحظة تاريخية ـ زمان ومكان ـ يتحول فيها السرد الى مكون حيوي / وجوهري في صياغة وتشكيل انطولوجيا المعرفة . هنا يبرز الدور الكبير ليس للسيرة فقط، وإنما لكل أنواع السرد منذ قديم الزمان وحتى الآن، لأنه مرآة حية / باقية، لا يمكن تجاهلها، وعلينا أن نحدق جيداً، حتى نتلمس الزمان من خلال سرديات وجوهنا .

وشيئاً، فشيئاً بان يحيى الشيخ أمامي مهموما بإزاحة الرماد عن موقده لكنه لا يبعده كثيراً، نظرا لحاجته له. فيه أصوات كثيرة واستعارات تخندق في السرديات بطاقتها الشعرية. وهذه صفة الشعراء، ويحيى الشيخ رسام / شاعر / سارد والسرد عنصر مجالي في الرسم والشعر. ومن خلالهما التقط أحلامه هو وجماعته، ومشاركة الآخر فيها ذات مساحة غير واسعة، هي ذات العلاقة بالسياسية والنشاط الاجتماعي والفني. ولم تتستر السيرة على أحلام يحيى الشيخ، حتى اتضحت لي وكأنها حلم طويل. فيه ـ أحياناً ـ حلم لا يتجاور مع المحيط ، ويتشاكس معها .

الكمون بالطفولة لا يعني تتفيه الحاضر، بل هو على العكس استظهار أهمية مرحلة في غاية الحيوية، لذا لا اتفق مع مقولة جان جاك روسو في دعوته لمغادرة الطفولة ، التي تعني بالنسبة لي الاستيقاظ استحضار الذاكرة ـ الطفولة صحوة شعرية ، وتفاهم مع الشعر، وإعلاء سرديات الماضي / أحلامه ، التي صاغت الكائن . بمعنى أنها خطاب سردي مزدحم بالتصورات ، المعبرة عن أرادة الكائن / والعالم .

الغريب مرتبط بوثاقة بصفته الممنوحة له في المنافي ، التي تأخذه وتطرده وتستعيده ... وهكذا كان وظل ملاحقاً بقوة الابتعاد عن المكان الرحمي وسطوة المكان / المنفى . لذا ذهب باحثاً عن قبر أبيه عبد الشيخ في دلمون . مفارقة مثيرة بين الاختيار الطوعي للوجود في دلمون وكأنه أراد عبر ذلك الاستقرار في الفردوس الأول وحيازة خلود الآلهة فيها

. دلمون التي ابتكرت كل شيء وللصابئة دور غير مباشر بما تم ابتكاره فيها واختراعه. فالإلهة انكي والأم الكبرى ننخرساك ، أفضيا إلينا بابتكار الخلق والتكوين والتعرف الأولي . لكن الأب عبد الشيخ مات هناك بعد صعوده السلم وذهب الابن / يحيى باحثاً عن قبر أبيه وسط مقبرة الغرباء، فلم يعثر عليه وقرأ عليهم كلهم السلام .هل كان سكان المقبرة غرباء؟ نعم ، وهل وجودهم في دلمون يعني معرفتهم بما تعنيه هذه المدينة؟ انهم غرباء وكفى . وعلينا أن لا نستغرب ، فالمقابر إذا لم تكن ضمن ثقافة القرابات المتخيلة ، فأنها منفى آخر. الملاحظة المهمة أن التحققات الأخيرة في السيرة الذاتية وتفاصيل التجربة الفنية ، جاءت نتائج لأفعال سابقة. فرماد السيرة، تعني حصول احتراقات، وهي مجاز تفتح أمامنا مغلقات كثيرة. ولم يكتف يحيى بالعنوان الدال، بل قال بالأفعال التي أفضت نحو الحرائق (لقد أحرقت أيامي ولم يعدّ ما ينيرني غير قلقي. بعض البدائيين يحرقون ما يجنونه طيلة العام في احتفال سنوي بمثابة عيد، ويتبارون في الحرائق. الأكثر كرماً فيهم من يحرق أكثر يدرك الفنان أسطورة رماده ويعرفها جيداً. لان اشارته لها لم تكن اعتباطية، القصدية فيها واضحة. وكم تمّوه الإشارة لاقتصاده على العميق الأسطوري، هي ذات دلالة ثنائية، المجال الاقتصادي والانبعاثي، المتجدد، كي يعاود حياته مرة اخرى، ويعيش تاريخاً مغايراً، ودائماً ما يحوز فيه الفينيق دورته الحياتية وكأنه خلق تواً (..... كنت احرق اقتصادي كل مرة، واعيد أنتاج نفسي مما تبقى من رماد ص 3///

وما دمنا تحدثنا عن العنقاء / الفينيق / فلا بد من الإشارة الى طائر السيمرغ الذي تحدث عنه فريد الدين العطار في كتاب الطير. وتختلف هذه الأسطورة عن الأولى، لكنها متميزة بالدور المركزي والمهيمن للسيمرغ ، هذا الطائر الذي قاد برتون طيراً، حتى ظل وحده أخيراً، له حضور بوحدته، ولم يختف مثل الطيور، بل ظل مستجيباً للنداء الداخلي السري .

يحيى الشيخ – سيرة الرماد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر/2013 الطبعة الأولى

عتمة مشهد لذيذ

مشتاق عبد الهادي

شاعر وقاص، ولد في محافظة ديالى عام 1969، يكتب القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا وقصيدة النثر والرواية والمسرحية والمقالة الأدبية.
نشر مجموعته القصصية الأولى (ولادات سرطانية) وبعد نقاشات واستدعاءات من قبل الرقيب الثقافي في دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1999 صدرت المجموعة بعنوان (ولادات)، نشر مجموعته القصصية الثانية (حربيات) عام 2011 عن دار ينابيع في سوريا. فاز بالمركز الثاني في مسابقة الوفاق للقصة القصيرة عن قصة (قيل إن للجنرال حصانا أيضا) عام 2004.
حضر وشارك في اغلب المهرجانات الأدبية في العراق، عضو اتحاد الأدباء منذ عام 1996.

لتكن أول طلقة من حصتي
وليكن موتي...
على ضفاف عطرك الأنيق
يا قلعة من فضة وأمنيات
سأجامل حتى تكتنز أوردتي بالهديل
ولتنثر بعدها فراشات الأنين
حزين ومغلف بالسواد
كسنونو معاق عند بوابة الخريف
لا درب يسحب قيودي
ولا حتى مقصلة أمان توحد انهزامي
مهزوم كما القبرة
وعلى جناحي يتربع ألف تاج
يسعى للفوز بقمة رأسك الهائل السواد
السواد يا امرأتي
هو ما تبقى من صلاة المبعدين التي أتقنت
وحشتها
منذ ألف كبوة وحصان
تعشقين أغلفتي...
وتناورين على درب الشموع صدئي
محمل بالصرير
وهذا الباب أضخم من عتمتي
فكيف إذا...؟
كيف ستكنسين عن غربتي هذا الصراخ...؟
لك فقط أن تتبعي بخشوع هذا الكرنفال
وتبجلين نعش الكلمات أو ... جنازة البياض
مات البياض
وهذا الذي يقفز من نعش إلى ... نعش
ليس إلا ... ذاك السنونو المعاق

احضنيه ... وهدهديه
وغنّي له كما الأطفال :
(دللول... دللول... يلولد يبني دللول...)×
غني لهذا الراعـف وردا
عسى أن تنبلج من نايك حرية تشبه الصباح
غني ورتلي كلمات الياسمين
فهذا الذي يحتضر بإصرار قلبي
قبليه يا سيدة التين
وانثري مرآتك على جناحيه
وتدبري أمر فرحته بك
قبل أن تثمر بالقبلات...حقول الكريستال
اسبري غور فضته
وتتبعي بمرآتك أسراب الرحيل
انثري هدهداتك على صباحه المسكين
واغرسي في صميم محنته قبلات تشبه الربيع
بثي جمراتك اللذيذة بذلك البرود المريع
وهزي نخلة الخير
عسى أن يخفق لخفقك ذلك الخافق
التعبان
تجملي له وجمليه
وناوريه وسدي بوجه احتضاره ... بوابة
الوجوم

واجم حد البكاء
ومحطم حد الصهيل
النار على كتفي مثل مشعل للمجوس
و الهوس معجون بعتمتي
أنا لا اطلب مثول أيامك أمام محرابي
فأنا ... منذ آلاف النكبات
مثقل بالدموع
غريب تكاد أن تتقيؤني البلاد
وعند أول جناح للغبار أودعت حقائبي
كمسافر عبر دهاليز الأفاعي
و مختبئ مثل مَن احترف الهروب
وأنت
ما عليك في مثل هذا الحنين إلا أن تغنين
... فغني
وتبتلي ... وانثري على خجل القداح...
لؤلؤك المخبوء
عبئي بالبندقية ياسمينك
وانسفي هذا التصحر الطويل
وحدك أمام معضلتي
فخذي بغزلانك كفي
واسحبيني لكوكب الأيائل
واغفي على مخدة الرخاء

لا رخاء اصفع به تعبي
ولا حتى يدا ارتب بها طاولتي
كم كنت جميلا
ذلك حين كان أبي يحصد الرصاص
ويرتب الأيام على خارطة أمي
وكان أبي فارسا يحترف جنون (الساس)
وكذلك أمي
كلما غرست أصابعها بعجين الفجر
تنفلق منه آلاف المجرات
ذلك تاريخ وهذا يا حوريتي جسد الماضي
أنت اكبر من أن تتعبي بي
واتعب بك
وكذلك... أنبل من أن تعشقيني
احبك... هكذا اتفق القلب مذ أثمرت بالحب
بساتيني
إذا...
لماذا تؤرخين على جسد الحكاية بوادر
النهايات ...؟
لماذا تتجنبين خفقة عصفور وحيد ...؟
لماذا تخترقين صخور الذات و تبتعدين ...؟
ثم ... لماذا النهر يرحب دوما بانتحاري ...؟
لذلك قلت عند أول البكاء غني

وتجملي ... وتبتلي ... ورتلي
وخذي بكفيك كل ابتسامات الشمس
واتركي شفتيك وبعض الصهيل
خذي كل ما يتخم حقائبك بالنسيان
واتركي بأطباق الصباح كلمات الجنون
لا اطلب منك سوى أن تغني فغني
علّ غناءك يذبح هذا الطنين
آه ...
أينبغي أن أحث خطواتك على الرحيل
لكي لا ترحلي ...؟
أينبغي أن ألوذ بصمت القبل لكي اذبح هذا
الفراغ ...؟
هذا الناي أعرج فغني
وانفلقي فيّ لأنفلق فيك قصائد وجوعا
هكذا كانت حكاية الرحيل
فحين شمرت عن طفولتها
وقررت أن تقتحم عتمتي
ابتلت ثيابها بالسواد
كان كل شيء يدعو للرثاء
قبل أن تتنحى عن رجفة الفراق
هكذا باغتتني بالحب
وهكذا فتحت بوجهي أبواب العصافير

كان الناي يبكي في حديقة الصحراء
والبخور يعجن العطر في غرفتي ...
غرفتي التي ابتلعت بعتمتها صرخة البياض ...
البياض الذي فرض على الفضة كذبة الأبراج
...
الأبراج حين حاولت أن تتطاول على أغنيتي
...
أغنيتي التي اتهمت بخيانة الناي ...
الناي الشامخ في عظمة السواد ...
السواد الباقي على شهقة الجروح ...
الجروح الراعفة بروية مئذنتي ...
مئذنتي التي كبرت لرسالتي ...
رسالتي المنذورة لشهوة التمزق ...
التمزق الذي عجز عن حرق مقصلتي ...
مقصلتي التي أرعبتها صرخات أوردتي ...
أوردتي الناثرة عوالم حب ...
الحب المتناثر على خطواتها ...

خطواتها التي غـرست في المدى التعبان
وجودي ...
وجودي المتلاقح مع زغردة الرصاص ...
الرصاص الذي اخترق فكرتي ...
فكرتي وقد أصابها الكساح ...
الكساح الراكض بيّ إليها ...
إليها التي أجلت سهوا عن طلقتي ...
طلقتي المحشوة في مسدس نبيل...
النبل وقد نام في غرفتي...
وغرفتي تشع بالآس ...
الآس المتزاحم على جسدك كفستان ...
الفستان وقد صار عذولا ...
و... هكذا قالت احبك
قالت كذلك وانساحت على الرمان قصائدي
احبك... قلت كذلك فهوت قلادتها عليّ
قالت... وقلت
فجثا على المشهد ظلام ثقيل

*** أغنية للام العراقية لتنويم الطفل.**

قماشة الجنفاص

حسن كريم عاتي

قاص وقانوني، صدر له: «خطوط متعامدة» مجموعة قصص 1997 على نفقته الخاصة، «اليوسفيون» رواية 2004 عن دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، «عزف منفرد» مجموعة قصص 2007 عن دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، «أثر الزمن في خلق البنية الدلالية في الرواية» نقد 2012 عن الدار العربية ـ بيروت، «الرمز في الخطاب الادبي» نقد 2015 عن دار الروسم ـ بغداد.
نال جائزة الابداع لعام 1998 عن مجموعته «خطوط متعامدة» ونال قبلها جائزة الشباب لعام 1999 من الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق.

عند لحظة سريان السم في جسدي في هذا القفر، لا يتراءى لي سواكِ. ولا أراني مجبراً على الاعتراف إلا لكِ. واعلم إستحالة وصول صوتي إليكِ. ولَيس لدي من مدونة إلا قلبي. أستنزفَ منه ذكرى لك، لأغلق عيني على صورتك التي أحببتها. وَلا أعرف إن كان ما أقوله هذيان لحظة الاحتضار أم شيئا غيره.
لك أن تقولي ما تشائين، وأن تعيشي كما تشائين. لك أن ترسمي غدك بطريقة تناسبك بعيداً عني. لأني أدرك البون الشاسع بيننا. لا تقارب رؤى ولا أساليب. كل منا قارة معزولة عن الأخرى. لا يجمعنا سوى إحساسنا بحب جارف يرغمنا على خلق توافقات لا تصمد أمام اختلافنا. ونقاوم الفراق المحتم الذي لا فكاك منه. وهي سمة الحبّ السحرية التي تجمع تناقضاتنا؛ فنراها مناسبات فرح للتندر عليها، ونضحك على مكامن قتل قلبينا من دون ان نعمل بجدّ على مواجهة عللنا التي ابتلينا بها أنا وأنت.
أنت من نكوص تجربة أب ما زال يشكو أمراضها ندوباً في القلب، تخرج مرسومة على ملامح وجهه، وتفلت عبارات على لسانه يلعن بها شخوصا وأحداثا، والتي أكررها أنا بتسميات جديدة وأشخاص جدد. تجربة رسمت موقفك المناقض لموقفه. أنكر عليكِ تفكيرك الأناني، وتنكرين عليّ اهتمامي بالناس، او كما تسمينه: أنانية معكوسة بتحقيق الذات المغلوط بإظهار العناية بالشأن العام. والمقصود منه تحقيق الأنا بطريقة مراوغة؛ وكأن الوطن أنقاض الكعبة بعد سيل عرم تنتظر أن أرفعها بردائي، لأضع الحجر الأسود محله. نبي تائه، كما ترغبين الاستهزاء بي في لحظات غضبك. نبي لا يعرف ما يُحيط به من حجم مأساة، وعظم مسؤولية. ذلك ما تعتقدين أني اعمل عليه، وأحاول إرغامك على الاعتقاد به، وبإحساس صادق وإن كان غير واقعي.
أعرف حين تقولين عن إحباط :
– لا ينفع مع الناس ما تحاول عمله من أجلهم. مشغولون بأمور غير التي تشغل نفسك أنت بها. ولن يمنحونك وسام استحقاق زائف.
تحرضيني على أن أحيا مثل ما ترغبين،

وإن كنتِ تصوغينها باسم العموم:
– عشْ مثلما يعيشون !
بل تذهبين إلى إتهامي بجهل ما أُريد بصيغة إستفهامية، عارفة جوابها:
– ماذا تريد أن تغير؟؟؟؟
لكنك لا تتمكنين من إخفاء سبب ما أظنه إحباطاً متورماً فيكِ:
– سبقك أبي وسقطَ في وسط الطريق. ولن أكرر ما فعله. لي حياتي وعليّ أن أحياها بكامل مداها.
تشركيني معكِ في حوار أنتِ فيه السائل والمجيب، بطريقة تنم عن مقدرة تلقين تجعلني كمن يستسلم فاغراً فاه دهشة، دون أن أكون قد وافقت على ما تقودينني إليه:
– نفكر معاً بالهروب مما تسميه وطناً. مربوط أنت إليه برباط كاذب، وتفكر بالعودة إليه. وأنا أفكر بالهرب منه ولن أعود إليه.
(كإبن الريب) أشكو الموت وأنتظره في القفر الفاصل بين وطن أنتِ فيه، ووطن ألجأ إليه. أنظر الأضواء المَلونة لنقطة التفتيش التي درت حولها للخروج من وطنٍ أفكر بالعودة إليه ليلاً، كلص يكاد يقبضُ عليه متلبساً. أتلدد بين كثبان رمل صحراء، أو أخاديد أودية تمتد بين دول وأفكار وأنظمة تجعل منها تعبيراً رمزياً عن البون الشاسع بين أفكار المتسلطين عليها. أهرب من بلدي إليها.
أعرف.. لم يكن إستقبالها لي عن حب أو قناعة فيما أعتقد. ففيها مثلي ممن تهرسه ماكنة كتمان الصوت والفكر والجسد. بقدر حقدهم عليّ حين كنتُ بين فكيها. ليبعدوا رغبة النهش لديه ويتركونه معلقاً أمام هوس الحاجة للقتل المتبادل بين الإخوة الأعداء. وإن كانت لحين الاتفاق على أوراق جديدة في لعبة قديمة مكشوفة بتبادل الضحايا على طاولة القمار السياسي.
لله درك (يابن الريب)، وأقول قولك:
(يقولون: لا تبعد وهم يدفنوني
وأي مكان البعد إلا مكانيا).
فما سرى في جسدك، يسري في جسدي الآن. لا شاهدة على قبري الذي سيكون. او على جسد ستعافه الذئاب والعقبان عن النهش حين تدرك أن فريستها خطر عليها، سوى أحجار ورمال ورجال تركوه قبل كيلو مترات عدة، قبل نقطة التفتيش.
قالوا: حين يكلكل الليل بسواده تحرك جنوب النقطة. لا تقترب من الأضواء ولا تبتعد عنها. واحذر الذئاب والأفاعي. ما يفصلك عن البلد الآخر ليس ببعيد. تعبر النقطة وتذكر أن نقطة تفتيش البلد الآخر لا تستقبلك أيضاً. إهرب منها مثلما تهرب من الأولى. وحاذر الابتعاد في عمق الصحراء. فإنها مغرية بإتساع منافذ الهروب فيها. لكن لكل درب فيها مخاطره، واستشعر مصابيح السيارات المارة على الطريق الموصل بين نقطتي التفتيش؛ وما يلي النقطة الثانية، فإنها طريق النجاة باتجاه واحد.. ولا تلتفت.
أضع نقطة التفتيش على يميني، وأحني ظهري غريزياً في ظلام لا أرى فيه كفي من شدة حلكته إبتغاء تقليص مساحة الجسد. أطأ الرمل بحذاء يقيد جسدي كله، وتندفع حبيبات الرمل إلى جوفه، كأنها أحجار مسننة تحتك بباطن القدم، فينسل ماء التعرق طيناً لزجاً داخل قفص الحذاء ولا يخرج منه. انزعهما بهدوء واربط حبليهما معا وأعلقهما على رقبتي. فيتدليان على صدري ويرتطمان به عند كل انحناءة أو استقامة، فأحسست بهشاشة الأرض التي أطأها .

تتراقص الأضواء في حفلة التوديع المسكونة بالخوف أن أمسك متلبساً تهريب الوطن المخبوء تحت قميصي. أو المسكوت عن نحره بإتفاق أو من دونه؛ لقوى تصرخ بضرورة كتمان ما يدور من نجيع دم لا يتخثر على طاولة العهر السياسي بالمحافظة على سمعة الوطن، أو عدها ورقة رابحة على طاولة التفاوض السرية، لترميم ما إنهار من إتفاق بين أطراف كانت حتى الأمس لا تشبع من تخوين بعضها البعض، أو اتهامه بالعمالة لأحد طرفي صراع آخر بين طرفي الأرض.

وتقولين بتبجح وثقة:

– شكَد بيك شغل؟!

أقهقه بصوت مرتفع، وأنا أتخيل حجم ما ترغبين به من عمل لتهدين به أجزاءً من بنائي، أو بنائي كله. أتصورها كبيرة وشاسعة المساحات الايلة للسقوط في داخلي. وتجهدين لإعادة بنائها بالطريقة التي ترغبين. لا اختلف في شيء عن جدار آيل للسقوط، أو أرضية بناء دمرها الاستعمال المفرط، فبان الحصى من بين ذرات رمالها. لا اختلف في شيء لديك، تملكتيه أو تحاولين تملكه، وإن كنتِ تظهرين الشغف في حب يصل حد الهيَام؛ لكنه يبقى إمتلاكا مع إضافات لا أتفق معك فيها. وإن بسذاجة أتصورها تهويمات عاشقة للروح والجسد وما إرتبط به تصوري لغد الناس البعيد حقيقة عنك. فأمد يدي لتلامس شعرك الأسود الفاحم كسواد ليلي هذا، وأحاولَ التحايل على تناقضنا، باحتوائك لي حد الذوبان فيك، أو احتوائي لك بإذَابتك في مشروعي الأناني الذي تعتقَدينه. أمرر أصابعي بين خصلاته الناعمة، وأهمس بأغنية شائعة تمزج بين حبنا وحب الوطن المعبأ بجراحات تنزف، وأقول: (يا عشكَنا....). تستفزك الأغنية بدلالتها المنتمية إليّ.

– ولك كافي!

يزداد إعجابي وشغفي بمشاكساتك الرائعة، بل أظنها تزيدني عشقاً وتعلقاً للتناقض الجميل بيننا. أدرك أنك ترغبين إنتشالي من ورطة الوطن التي اتبناها بإنتمائي اليها، أو إنتمائها ليّ في دورة فايروس الوطنية الذي أعانيه، وأعرف أني مصر عليه، وأعمل على نقل فايروسه اليك. تمانعين حد الرفض، لكنك تواصلين رغبة البوح بحب مسكون بموت مؤجل، أو بذبح على رؤوس الأشهاد.

ويأخذني الغرور بصواب ما أعتقده، واتهمك بالانهزامية، فحبنا يترعرع بين أحضان الوطن. نبنيه لبنة لبنة، فما نضحي به اليوم نزرعه شجيرات صغيرة، ستكون باسقات الوطن في غد أولادنا حين يولدون بمزيج من حبنا الشخصي وحب الناس. وبثرثرة لذيذة، أتبرع بشرح مقتضب عن النضال الثوري، الذي سينهي الرجعية والطفيلية والامبريالية، وسيجعل رايات الشغيلة ترفرف فوق مضايق الماء بين قارات الأرض، ترفعها السفن بشير سعادة، وتجعلها شركات الطيران شعار رفاهية متحققة في سماوات الله والناس، وترصعها الدول على أعلامها إشارة انتماء. إياك والقنوط. قد أُغادر الوطن في أي يوم ، أو في أية ساعة. وتصححين عبارة (أغادر الوطن) في نبرة مشاكسة: (تهرب من الوطن). وبتبجح أوافق على التعديل، وبإبتسامة غرور. تدركين ما اعنيه، فتقولين بردّ حاسم:

– إلا أوكَفك على رجليك!

فيزداد حبي لكِ بهذا التحدي الذي تشهرينه

بوجهي على صواب اي منا. أدرك إنكِ تراهنين على إحساسٍ جميل بالحبَ والحياة، وأفترض مكابراً ألا تناقض بيننا؛ فما شغف به قلبي، شغف به قلبك حيناً، وإن انقلبت عليه. لا تهمك تسمية النَضال، ولا يعنيكِ بريقه الأخاذ، فلك نضالك الخاص، تبنينَ عقدتك على سعادة ممكنة وواقعية، وأبني سعادَتي على تهويمات وأوهام وطن يرفل بالسعادة.

أعذرك.. أعذرك.. أعذرك.

فلا أعرَف أينّا عَلى صوابَ في لحظات الموت الذي أعانيه من دون نائحة يدوي صوتها برأسي الذي لا يقوى الوقوف على كتفي. بعد أن سرى سمّ الأفعى التي دستها بقدمي العارية قبل ساعة من الآن. في غلطة أوصاني الرجال الذين أوصلوني إلى نقطة الافتراق قبل نقطة التفتيش أن لا ارتكبها.

قالوا: إياك.. فالأفاعي في هذه الرمضاء شديدة السميّة وشديدة التمويه. وسيغلبك الليل بسواده. فإحذر !!

وأقول لهم: أي حذر يمكن أن أرتديه عباءة لي، في قفر كل ما فيها مموه، حتى أنا، لم أعد من مواطني البلد الذي غادرته، أو البلد الذي سألجأ إليه. ولا أعرف في أيّ أرض سيكون موتي مفجوعاً بقاتل لم أره، وأنسل بين حبيبات الرمل من دون صوت.. أسفت أني لم احملهم رسالتي إليكِ ... أحبكِ!!!!!!!!!!!!.

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

ضوء على الفشل الديمقراطي

إقتبست أعظم كاتبة مسرحية بريطانية على قيد الحياة هي « كاريل تشرشل» عنوان مسرحيتها (نور يسطع في بوكنغهام بشاير) من بيان يعود لسنة ١٦٤٩ كتبته حركة (الحفار) الراديكالية، والمسرحية تروي قصة جماعة ثورية خلال أواسط القرن السابع عشر عندما اندلعت فيها الحرب الاهلية ثم الثورة التي أدت الى إعدام الملك تشارلس وإعلان الجمهورية. كنت محظوظا بما فيه الكفاية لأحضر جلسات القراءة والبروفات في المسرح الوطني وتأكدت من أني أشاهد واحدا من أفضل النتاجات المسرحية، وأحد أسباب الأفضلية هو التمثل الفني الناجح لفترة زمنية ماضية. من نافلة القول التأكيد على أننا نعاني في عصرنا هذا من أزمة تمثيل سياسي ومن هنا فإن السياق السياسي الذي تجري فيه الأحداث في المسرحية يبين أسباب فشلنا، فالفشل الديمقراطي هو حالة تفشل فيها السلطة المؤتلفة والأحزاب السياسية في التعبير عن هموم ملايين الشغيلة. باختصار نحن وصلنا في عصر الرأسمالية المتأخرة الى حالة كانت موجودة في الرأسمالية المبكرة عندما لم يكن قد أوجد أي نوع من أنواع التمثيل الديمقراطي.

في العام ١٦٤٧ طالب (المساواتيون) وراديكاليون آخرون بالحصول على «موافقة الشعب» مصدر السلطة الشعبية. في النقاشات التي تلت ذلك أخبرهم (أوليفر كروميل) وحلفاؤه، (النبلاء كما كانوا يسمون)، بأن ديمقراطية كهذه لا يمكن الموافقة عليها لأنها سوف تنحو «منحى الفوضوية». هذه النقاشات تشكل الجزء المركزي من مسرحية تشرشل، والحقيقة ان هذه الخطوة جريئة إتخذتها الكاتبة لأنها كاتبة عصرية كان عليها التعامل مع شخصيات تلك الفترة لغة وميولا، ومن ذلك مثلا الطابع الديني لراديكالية الشخصيات. في الواقع ان التعارض الذي تجسده شخصيات المسرحية، الجدل بين الديمقراطية والمُلْكية، قد إنبعث من جديد، كما انبعث في بلدان أخرى مثل اليونان. وإذا أردنا التحدث عن «القيم البريطانية» كما تفعل الحكومة فهذه المسرحية تصلح لأن تكون موضوع دراسة في كل مدرسة

وجامعة في البلد، لأننا نجد في صفحاتها تلك القيم بما فيها الحق في القيام بثورة، والحق في أن لا يُحاكم المواطن في محاكم سرية، والحق في حرية التعبير. هذه القيم تحتاج الى مدافعين جدد عنها، الى «مساواتيين» جدد، ولن يُعثر عليهم بين الحرفيين الذين شكلوا الحركة في أربعينيات القرن السابع عشر ولكن بين صفوف الطبقة العاملة التي تحتاج الديمقراطية ليس كهدف بحد ذاته ولكن كسلاح في القتال للدفاع عن الحياة ضد «النبلاء» الجدد، ومرتزقتهم في النخبة السياسية.

إن مسرحية كاريل تشرشل كتبت في الأصل سنة ١٩٧٦ وتتحدث عن أحداث ١٦٤٧ ولكنها، في هذا الإخراج، تلقي الضوء على هذه السنوات من القرن الحادي والعشرين، مسرحية إحتجاج، مسرحية عن (المساواتيين) و(الصخابين) واللحظة التي كادت فيها إنكلترا أن تعيد خلق نفسها، إنها تلقي الضوء على الأسباب المستمرة للصخب في بريطانيا المعاصرة، وخصوصا الهوة التي لا تردم بين الغني والفقير.

إن التحدي من الناحية النظرية في تنفيذ المسرحية هو في أن الفعل المسرحي يكمن في تصارع الأفكار، المستمدة من وثائق مكتوبة، فيما تأتي الشخصيات والسايكولوجيات بالمرتبة الثانية.

جون ريز/ جريدة «ذي مورننغ ستار» الإشتراكية البريطانية

سرد:

وقائع الغائصين في الرمال المتحركة

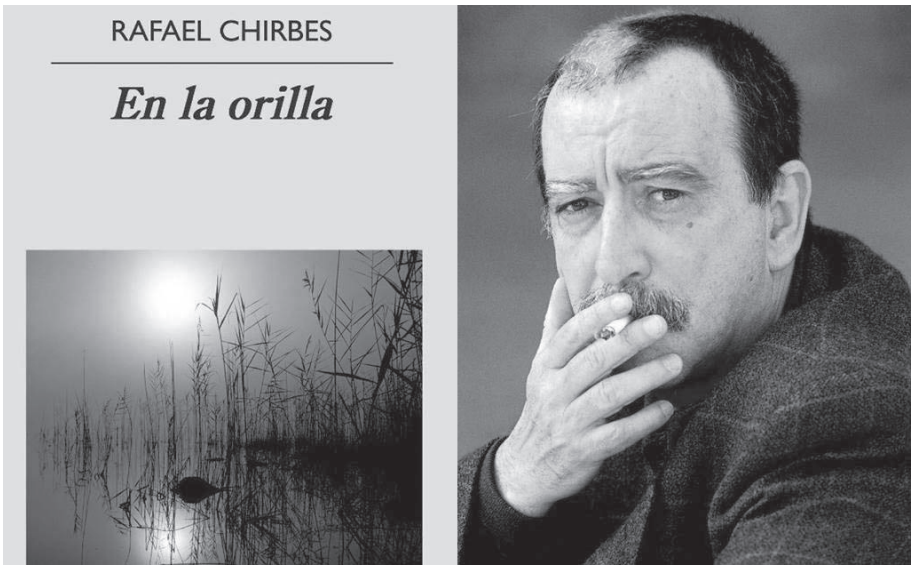

صدرت هذا العام، مترجمة الى الإنكليزية، رواية بعنوان (على الحافة) للأديب الإسباني (رافائيل شيربيس) الذي توفي في آب ٢٠١٥ عن عمر ناهز ٦٦ عاما، وكانت قد صدرت مترجمة الى الفرنسية بعنوان (على الضفة) بالتزامن مع وفاته تقريبا. تبدأ الرواية بمجيء (أحمد) الى المستنقعات لصيد السمك فهو يملك الكثير من الوقت منذ أن فقد عمله عندما أدركته الأزمة المالية وتعطلت أعمال البناء. غير أن صاحبه (رشيد) كان أحسن حظا منه إذ لا يزال يحتفظ بعمله كنادل في مطعم. يحب أحمد هدوء البحيرات الشاطئية والبرك، ولكنه وجد هذه المرة زاويته الأثيرة وقد إحتلها كلبان يتقاتلان على يد بشرية.

يروي لنا المؤلف كيف هرب أحمد من المغرب وجاء الى إسبانيا ولكن سرعان ما خيمت الأزمة على البلد وفقد عمله. من جانب آخر نتعرف على شخصية (إستيبان) الذي يأتي الى المستنقعات في سيارة ذات دفع رباعي وبندقية صيد وكلب في المقعد الخلفي. إنه يواجه ظروفا سيئة أيضا فقد ورث عن أبيه معمل نجارة صغيرا واشترك مع صديق له يدعى بيدروس إلا أن الأزمة المالية عكرت عليه آماله. مع ذلك فإستيبان نموذج "للمعجزة الإسبانية" فهو إبن الشيوعي الذي كان مقاتلا في صفوف الجمهوريين ثم صعد الى طبقة أصحاب الأملاك، ينظر الى ما يجري في البلاد نظرة خالية من الأوهام، إنه ليس الأكثر جشعا من بين المستغلين، ولا يعوي مع الذئاب ضد الهجرة والمهاجرين، ولا يطلق الأحكام الأخلاقية على العاهرات المصطفات على طول طريق المستنقعات، ولا على قواديهن.

إنه بكل بساطة يهتم بأبيه الذي لا يستطيع النهوض من كرسيه ويبقى طوال الوقت يراقب التلفزيون. نغوص مع إستيبان في أعماق البؤس الإقتصادي والأخلاقي والجسدي. يجعلنا رافائيل نتحسس الجسد بشكل مدهش، الجسد فريسة العذاب، والتوق الى الجنس، بورتريه إسباني واقعي بشكل قاس، يفتح كل الخزانات على مصاريعها وينثر علينا كل الأسرار العائلية، أسرار مجتمع بني على إقصاء الفقراء فيما يحلم الثوريون بإمكانية أن يعيدوا الكرة مع المنبوذين الجدد: الفقراء، وخصوصا الأجانب منهم.

لا يهمل الكاتب، وهو يرسم لنا تفاصيل المأساة، المنظور التاريخي، من الحرب الأهلية الى الحرب الباردة، واللتين تلقيان بظلالهما على المجتمع الإسباني المعاصر، وكيف يتخبط الضحايا والمنتفعون في هذا المستنقع. حاز شيريبس على جائزتين إسبانيتين عن هذه الرواية، والجدير بالذكر أنه نشر منذ ١٩٨٨ عشر روايات وأربعة كتب مقالات غير مترجمة كلها.

آلان نيكولا/ جريدة "لومانيتيه" الفرنسية

شعر:

ساحر لدهيانوي.. شاعر الرفض

(لست آسفا لأن الناس لا يعدونني فنانا/ ولا أنا آسف لأن تجار الفكر لا يعدون قصائدي قصائد)

بهذين البيتين يلخص (ساحر لدهيانوي) تجربته الجمالية، فهو يقصد أن يكون شعره بيانا للطبقة العاملة وليس جزءً من الفنون اللطيفة Funoon e Lateefa ، وهذان البيتان أيضا يبرزان التوتر بين أنصار الشعر الأوردي التقليدي وأنصار التجربة المنفتحة من جمعية الكتاب التقدميين الذين جعلوا واقعية السرد في النثر والشعر مقدمة على خصائص الشعر "الكلاسيكي" الأوردي، وقد أبدعوا كما فعل الشاعر (غالب) ولكن الفرق بين غزليات غالب ومير وغنائيات فائز وسداسيات إقبال وبين المنجز الشعري عند ساحر هو التجديد المترابط في المضمون والشكل معا عنده.

ولد ساحر (١٩٢١–١٩٨٠) لعائلة غنية غير أن والديه افترقا بعد ولادته كما أنه لم يهنأ بالإمتيازات التي توفرها له مكانة عائلته الاجتماعية فقد واجه مشاكل كثيرة، وقيل أنه طرد من الكلية بعد قصة غرام عاصفة. طبع في العام ١٩٤٣ أول دواوينه الذي أصبح أكثر الدواوين مبيعا بعد ديوان غالب. بقي في لاهور بعد استقلال الهند يصدر جريدته نصف الشهرية ولكنه اضطر الى الهرب في العام ١٩٤٩ بعد أن أصدرت الحكومة الباكستانية أمرا بإلقاء القبض عليه لنشره مقالات تنتقد الدولة الباكستانية، وقد كتب ساخرا من الدولة الجديدة في قصيدة له عن أحوال المسلمين الذين إستبشروا خيرا باستقلال باكستان وظنوا انهم سيسعدون فإذا بهم في ظل حكم أسوأ من الإستعمار: (شكرا لله وصلنا سالمين من بلاد الكفار/ ولكن ماذا حدث في مملكة الربّ بعد ذلك للمساكين؟).

انتقل ساحر الى بومبي حيث أصبح من أنجح

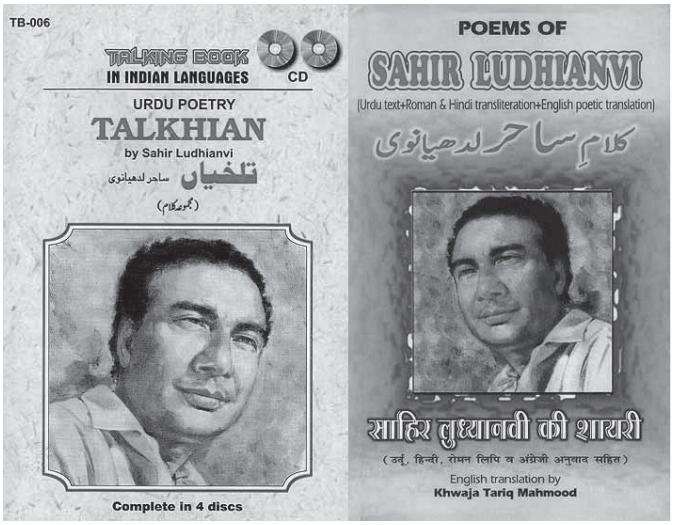

كتاب الأغاني للأفلام، وقد وظف كتابته للأغاني ليمنح صوتا لطائفة واسعة من الهموم من الهمّ اليومي البسيط الى الفكري التأملي، وأغنى الأوردية من خلالها، فمثلا كتب في العام ١٩٥٦ قصيدته الرائعة (ظلال) والتي يتغنى فيها بالحب المفقود ولكنه يضمن القصيدة في الوقت نفسه بيانا مضادا للحرب. غير أن ساحرا الذي يتغنى الناس بقصائده وتحقق دواوين أغانيه للأفلام أعلى المبيعات لم يحظ من ناقد كمحمد صادق في تحليله للأدب الأوردي إلا بسطر واحد يقول "برغم ضعف مخيلته إلا أن ساحرا لديه مقترب ثقافي قوي"، وهذا الحكم غالبا ما كان يُطبق على جميع أدباء جمعية الكتاب التقدميين.

يقول ساحر في قصيدة/حوارية مع حبيبة عن العمال الذين بنوا تاج محل ورحلوا دون أن يذكرهم أحد: (حبيبتي لا بد أنهم وقعوا في الحب أيضا/ أولئك الذين أعطت مهارتهم لتاج محل وجهه الجميل/ يرقدون في قبور دون شواهد/ حيث لا يوقد لهم أحد حتى شمعة). مع ذلك ظل شعر ساحر موضع دراسة للنقد الجاد ودائما يكون مصحوبا بالهوامش التفسيرية والإحالات.

كان ساحر ماركسيا لا يقبل المساومة ويظهر هذا التشدد جليا في شعره غير الغنائي ففي حين أن شعره الغنائي يتمتع برقة وشاعرية لا متناهيتين يتصف شعره غير الغنائي بالكآبة والغضب والهموم السياسية. يقول في قصيدة (أغانيي): (عندما يسمع الناس قصائدي الغاضبة، يظنون/ أن قلبي ربما يبغض أغاني الحب/ وأني أستمتع بقعقعة الحرب والنزاعات/ وأني بطبيعتي أحب قصص إراقة الدماء/ ولكن آه، لو أنهم يستطيعون سبر لياليّ الوامضة/ عندما أرنو الى النجوم وأبكي/ عندما تومض اللقاءات المنسية في ذاكرتي/ وأرتعش لساعات من شدة حزني/ أنا شاعر وحبّ الطبيعة غريزتي/ لقصائدي الغاضبة أسباب هي الأرض الجائعة/ والفقراء والمضطهدون والعاجزون/ والجمال الباكي والشباب الغاضب).

الكتاب:

Poems of sahirludhianvi, English translation by Khawaja tariqmahmood

مير علي رضا/ مجلة "آوت لوك" الهندية

قضية:

(توماس سنكارا) إبن الشعب البار

وجهت محكمة عسكرية في بوركينا فاسو بغرب افريقيا في السابع من كانون الأول الماضي مجموعة من التهم الى قائد الحرس الرئاسي الخاص السابق الهارب (بليز كامباوري) الذي قاد محاولة إنقلابية ضد الحكومة الانتقالية في وقت مبكر من العام ٢٠١٥. أهم التهم تلك التي تتعلق بالاشتراك في إغتيال الرئيس اليساري توماس سنكارا في تشرين الأول ١٩٨٧.

إن سنكارا الذي يدعى أحيانا «جيفارا أفريقيا» قد تولى السلطة في أعقاب ثورة في العام ١٩٨٣. خلال وقت قصير قام سنكارا بخطوات عملية لتنفيذ وعوده في إنتشال البلد من حالة الفقر المدقع وهو الذي بدل إسمه من الإسم الإستعماري (فولتا العليا) الى (بوركينا فاسو) ويعني الشعب الشامخ. اتخذ سنكارا برنامجا طموحا للإصلاح الزراعي وتأميم الثروة المعدنية وتطوير الرعاية الصحية والمدارس والإسكان والخدمات الأخرى بحيث ظهر أثرها خلال فترة حكمه القصيرة، أربع سنوات، في انخفاض معدل الوفيات وزيادة نسبة المتعلمين وتحرر المرأة، والى الآن، بعد ٢٨ عاما من مقتله، لا تزال ذكراه حية نضرة في نفوس أبناء بلده وتقام في ذكراه الإحتفالات الخطابية والفعاليات الفنية كما أُخرجت أفلام تدور مواضيعها حوله من بينها فيلم (سنكارا في قوافيي) ٢٠١٤ يتحدث فيه مفكرون وفنانون وشخصيات اجتماعية عن أهمية فترة حكم سنكارا.

كان خصما عنيدا لفخ الديون الذي نصبته الدول الإستعمارية، وبالمقابل كان هدفا لحقد الذين تضررت مصالحهم من البوركينيين والمتنفذين في المجتمع الذين اكتسبوا وجاهتهم في فترة الإستعمار الفرنسي وبنوا ثروتهم على إستغلال أبناء بلدهم، كذلك ضباط العسكر الذين كرهوا أن يعطي الأولوية للمنظمات المدنية في قيادة المجتمع، وبعض السياسيين في البلدان المجاورة والذين تخوفوا من نموذج الحكم الذي يقوده سنكارا بنجاح حثيث عندما أخذ يقدم السياسيين الفاسدين الى المحاكم.

من كل هؤلاء لقي الإنقلاب الذي قام به إثنا عشر ضابطا من بينهم كومباوري دعما قويا وإدعوا، بعد قتل سنكارا وعدد من رفاقه القادة، أنه توفي وفاة طبيعية عن عمر ناهز ٣٨ عاما. قام أنصاره بمحاولة لمقاومة الإنقلاب لم يكتب لها النجاح وقُمعت قمعا وحشيا. حكم كومباوري حكما ديكتاتوريا ٢٧ سنة حرّف فيها جميع منجزات حكم سنكارا، ثم أطيح به بثورة شعبية قبل عام لكنه ما لبث أن قام بمحاولة إنقلابية على الحكومة الإنتقالية أفشلها الشعب ووحدات من الجيش تحت قيادة ضباط آمنوا بمنهج سنكارا، وهو الآن وعدد من ضباطه خارج البلاد.

طوال هذه السنوات لم تتراجع مريم زوجة سنكارا وعائلته وطليعة مناضلة من أنصاره خطوة عن المطالبة بمحاكمة القتلة، حتى انهم توجهوا في العام ٢٠١٣

الى البرلمان الفرنسي بمبادرة من الحزب الشيوعي الفرنسي لفتح تحقيق في تورط فرنسي محتمل في الإنقلاب على سنكارا، وما أن أطيح بكومباوري حتى بدأ البحث عن جثة سنكار او استخراجها من القبر لإجراء الفحوصات عليها، وملاحقة المسؤولين عن مقتله، وبدأ تحقيق آخر في العام ٢٠١٥. فيما يلي بعض من أقوال سنكارا:

لا يمكنك أن تقوم بتغيير جذري دون قدْر من الجنون/ أريد أن يتذكرني الشعب كشخص ساعدت حياته الإنسانية/ نحن لن نسدد الدَين لأننا لسنا مسؤولين عنه/ الجندي الذي يفتقر الى الإعداد السياسي والآيديولوجي يمكن أن يتحول الى مجرد مجرم/ يمكن قتل الثوريين كأفراد ولكن لا يمكن قتل الأفكار/ أستطيع أن أسمع هدير صمت النساء/ الثورة وتحرير المرأة يسيران جنبا الى جنب. نحن لا نتحدث عن تحرير المرأة كبادرة إحسان أو نزوة عاطفية، إنه ضرورة أساسية لإنتصار الثورة فالنساء يمسكن بالنصف الثاني من السماء./ المساعدة المالية مطلوبة ولكن علينا أن نقوم بالعمل بأنفسنا/ من يطعمك يسيطر عليك.

جريدة «لومانيتيه» الفرنسية

سينما:

(دالتون ترُمْبو) الرجل الذي كسر القائمة السوداء

يعرض الآن في الولايات المتحدة فيلم (ترُمْبو) عن حياة الكاتب المناضل دالتون ترمبو. الفيلم من إخراج جاي روتشو من بطولة براين كرانستون بدور ترمبو، وقد وصل الفيلم الى قائمة الترشيحات للأوسكار ويحظى بمشاهدة جيدة برغم المنافسة الشديدة بينه كفيلم جاد وبين أفلام الإثارة أمثال حرب النجوم والعائد والثمانية البغيضون، كما فاز كرانستون بجائزة أفضل ممثل في مهرجان بالمسبرنغز عن دوره هذا، ورُشح المخرج أو أحد الممثلين، بضمنهم كرانستون، في ٢١ مهرجانا سينمائيا للفوز بإحدى الجوائز (معلوماتنا هذه لحد ١٠ شباط ٢٠١٦– م).

ولد الكاتب الأميركي دالتون ترمبو في العام ١٩٠٥. فازت روايته المضادة للحرب (حصل جوني على سلاحه) ١٩٣٩ بجائزة الكتاب الوطنية (أعيد طبعها مؤخرا وأقتبست الى المسرح – م). رفض الخضوع لما تريده لجنة محاربة النشاطات المعادية لأميركا باعتباره واحدا من عشرة هوليوود الذين أدرجوا في القائمة السوداء. قضى ١١ شهرا في السجن سنة ١٩٥٠ بتهمة إحتقار الكونغرس. فاز ترمبو بجائزتي أوسكار فيما كان اسمه مدرجا في القائمة السوداء، الأولى في العام ١٩٥٣ عن قصة الفيلم الرومانسي (عطلة رومانية) والثانية عن قصة فيلم (الشجاع) وقد كتبهما تحت إسم مستعار. انتهى مفعول القائمة السوداء في العام ١٩٦٠ وكان ترمبو في هذه الإثناء قد حصل على شعبية واسعة فقد أعلن المخرج (أوتوبيرمنغر) أن ترمبو هو الكاتب الحقيقي لسيناريو (سفر الخروج) كما أعلن الممثل الكبير كيرك دوكلاس أن ترمبو هو الذي كتب سيناريو (سبارتاكوس). توفي ترمبو في العام ١٩٧٥.

هذا الفيلم يبيّن أن الخطر على البلد وعلى الديمقراطية لم يكن «الخطر الشيوعي» المزعوم بل لجنة مكارثي لمحاربة النشاطات المعادية لأميركا، مثلما يبيّن شجاعة ووطنية الشيوعيين والضحايا الآخرين الذين كافحوا بضراوة وكسبوا في النهاية الحق في النضال من أجل حياة سعيدة. لم ينكر ترمبو إنتماءه الى الحزب ولم يتنكر لمعتقداته برغم المحاربة حتى في لقمة العيش وهجمات الصحف ذات العقلية الفاشستية والإنتهازية ومراقبة المخابرات على مدار الساعة. هنا نشاهد بوضوح كيف ينظم ترمبو زملاءه كتاب السيناريو للخروج من حالة الضحية العاجزة، (هذا الجانب في الفيلم كان القصة الرئيسية لفيلم وودي آلان «الجبهة» ١٩٧٦). أوضحت شخصية ترمبو في النهاية أن ما يقاتلون في سبيله هو ما جاء في التعديل الأول في الدستور والدفاع عن الحريات الديمقراطية للجميع، وأنهم الوطنيون بأروع ما تعنيه هذه الكلمة من معان لأنهم رفضوا الإنهزام أمام اليمينيين المولين جيدا والذين أرادوا جعل الفكر التقدمي خارجا على القانون وإيقاف جميع أشكال المقاومة من جانب

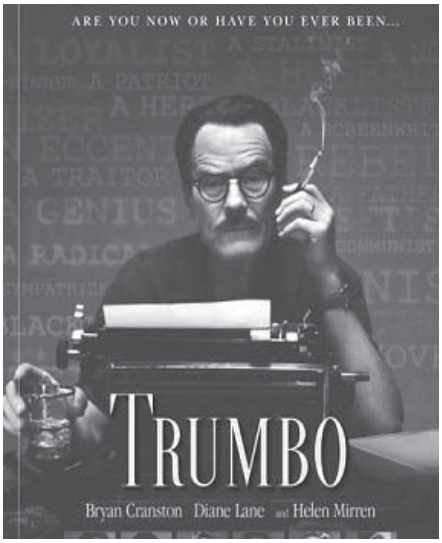

الحركات العمالية والشعبية.
بقي أن نقول ان مجرد الذهاب الى صالة السينما لمشاهدة الفيلم هو فعل نضالي ضد بوادر انبعاث المكارثية بشخص المرشح دونالد ترمب وأشباهه من الجمهوريين المعادين للطبقة العاملة وللتقدم وللأقليات، الكارهين للآخر. (في الصورة دالتون ترمبو مع زوجته في جلسة للجنة مكارثي التحقيقية سنة ١٩٤٧ وخلفهما الكاتب الألماني الماركسي برتولد بريخت والى اليسار ملصق الفيلم).

جارفيستينر/جريدة بيبلز وورلد (عالم الشعب جريدة الحزب الشيوعي الأميركي)

هندسة معمارية:

عمارة روتردام

إذا كنت تتنزه في ثاني مدن هولندا، ستشعر كما لو أنك تقلب كتالوغا لهندسة معمارية تجريبية. سترى أبنية شيدت كأقلام الرصاص أو أبراجا محززة بألوان صارخة، ومتاجر كبيرة تشبه المركبات الفضائية، وأبنية أخرى تتحدى القوانين الهندسية الإقليدية. هذا التشكيل يعود «الفضل» فيه الى ألمانيا عندما قصف سلاحها الجوي روتردام يوم ١٤ آيار ١٩٤٠ بلا هوادة حتى دمر وسط المدينة تماما، وبعد إحتلال الألمان لها، أعقبها عدة غارات للحلفاء مستهدفة الميناء ولكن القنابل كانت تسقط أحيانا في المناطق السكنية. هكذا تحولت المدينة الى ركام، وعندما انتهت الحرب، إختارت السلطة البلدية حالها حال جميع السلطات البلدية الأوربية أن تبدأ بناء روتردام من الصفر وأن تمنحها وجها جديدا متوجها نحو المستقبل. يقول آرونبيتسكي المدير السابق لمعهد الهندسة المعمارية الهولندية بأنه «في بداية الثمانينات شعرت المدينة بأنها في حاجة الى بيع الفنون المعمارية» وإذا كانت باريس هي عاصمة الموضة ولوس أنجلس عاصمة السينما فقد أصبحت روتردام خلال السنوات الثلاثين الماضية عاصمة العمارة.

قبل هجوم الألمان عليها كانت روتردام معروفة بأنها عاصمة الحداثة، وقد شعر المعماري الكبير لو كوربيزيه (فرنسي صمم ملعب الشعب في العراق وصروحا

عديدة أخرى في الشرق الأوسط والعالم – المترجم)، شعر بالإنتشاء عندما زارها في العام ١٩٣٢ ووقف أمام مصنع (فان نيل) الذي تشكل بناؤه من الزجاج والحديد والخرسانة وقد صممه وأشرف على تنفيذه ما بين ١٩٢٥ و١٩٣١ المعماري ليندبرت فان دير فلوغت ويوهانيس برنكمان، وقد تحول اليوم الى مشغل للتصميم ووضعته اليونسكو ضمن التراث العالمي.

تعتبر بيوت المعمار(بييت بلوم) من بين إبداعات فن الكولاج المعماري الأكثر تجديدا في الثمانينات حيث نرى مجمعا من ٥١ بيتا على شكل مكعبات مائلة في مركز المدينة انتهى العمل بها في العام ١٩٨٤ وكلها مسكونة إلا واحدا ترك للجمهور ليتفرج على تصميمه

من الداخل. لكي نفهم بالشكل الأفضل التوجه التجديدي لمدينة روتردام نقصد شبه جزيرة (كوب فان زويد) الملقبة بمنهاتن الهولندية ونرى ناطحات السحاب المتمردة في معمارها على قوانين العمارة التقليدية حيث نرى مثلا نصف ناطحة السحاب العلوي وقد زحف على ناطحة السحاب المجاورة وهكذا يتشكل لدينا تراكب معماري من عدة عمارات قد يصل ارتفاعها الى ١٦٥ مترا.

في العام ٢٠١٣ بنى (ريم كولهاس) مدينة روتردام ٢٠١٣ وهي عبارة عن مدينة عمودية بمساحة ١٦٠ ألف متر مربع تستوعب ٢٤٠ مسكنا و٦٠ الف متر مربع للمكاتب وفندقا مكونا من ٢٨٥ غرفة، وقاعة مؤتمرات بملحقاتها بمساحة ٢٠٠٠ متر مربع، وملاه ومتنزهات على مساحة ٨ آلاف متر وموقف سيارات بخمسة طوابق وغير ذلك. لقد شيد كولهاس ذو السبعين عاما حلما شبابيا مانحا مدينته الأم انفتاحا معماريا مدوخا.

سيفيرين آس/مجلة لو تون السويسرية

تصوير فوتوغرافي:

عين على أرض البشر

ولد المصور الفوتوغرافي سيباستياو سالغادو سنة ١٩٤٤ في قرية من أرياف البرازيل وسط الغابات التي جرفت الشركات الجشعة خلال هذه السنوات ٧٠ بالمائة منها، وهذا أحد الأسباب التي جعلته يهتم بالبيئة وبالسكان الأصليين وبالأقليات المضطهدة في أعماله التي حازت على جوائز عالمية. عُرض في العام ٢٠١٤ فيلم وثائقي عن حياته ومشروعه التصويري من إخراج (فيم فيندرز) بالإشتراك مع إبن المصور

جوليانو وهو مخرج وكاتب سيناريو.
انضم سالغادو وهو طالب في الكلية الى إحدى التنظيمات اليسارية المعارضة للديكتاتورية والتي تعرضت الى القمع وفُقد الكثير من رفاق سالغادو وزملائه فقرر هو وزميلته التي أصبحت زوجته فيما بعد أن يغادرا البرازيل الى فرنسا حيث عمل مصورا محترفا وفي الوقت نفسه انتمى الى لجان دعم ضحايا الديكتاتورية فأسقطت الحكومة البرازيلية الجنسية عنهما ولم يستطعا العودة مع طفليهما الى البرازيل إلا في العام ١٩٧٩. خلال أكثر من أربعين عاما زار سالغادو ١٢٠ بلدا موثقا المعاناة الإنسانية، الجوع في أثيوبيا ١٩٨٤، والنهاية المدمرة لحرب الخليج ١٩٩١ حيث صور فرق مكافحة النيران الكندية في آبار النفط في الكويت، والإبادة الجماعية في راوندا ١٩٩٤ وغيرها كثير.
في ومضة واحدة من كاميرته يدخل سالغادو الى العمق الإنساني لمواضيعه، يقول: تكمن قوة البورتريه في ذلك الجزء من الثانية، عندما تمسك بلحظة خاطفة من حياة ذلك الإنسان». ولطالما ترك سالغادو عائلته أشهرا متخليا بطيب خاطر عن الحياة العائلية الهنيّة ليذهب خلف تلك اللحظات التي تثبّت في الذاكرة فواجع الآخرين ونضالاتهم. يعمل سالغادو على مشاريع طويلة الأمد وقد نشرت ثمرات هذه المشاريع على شكل كتب مثل (أميركا الأخرى) و(السهل) و(العمال) و(الهجرات) وتضم المئات من الصور. أشهر صوره في منجم ذهب برازيلي وقد أطلق على المجموعة اسم «سيرا بيلادا».
أصبح سالغادو سفير النوايا الحسنة لليونسيف منذ ٢٠٠١.

ربيرتهاوكسلي/ جريدة «ديلي تليغراف» البريطانية

في المناسبة

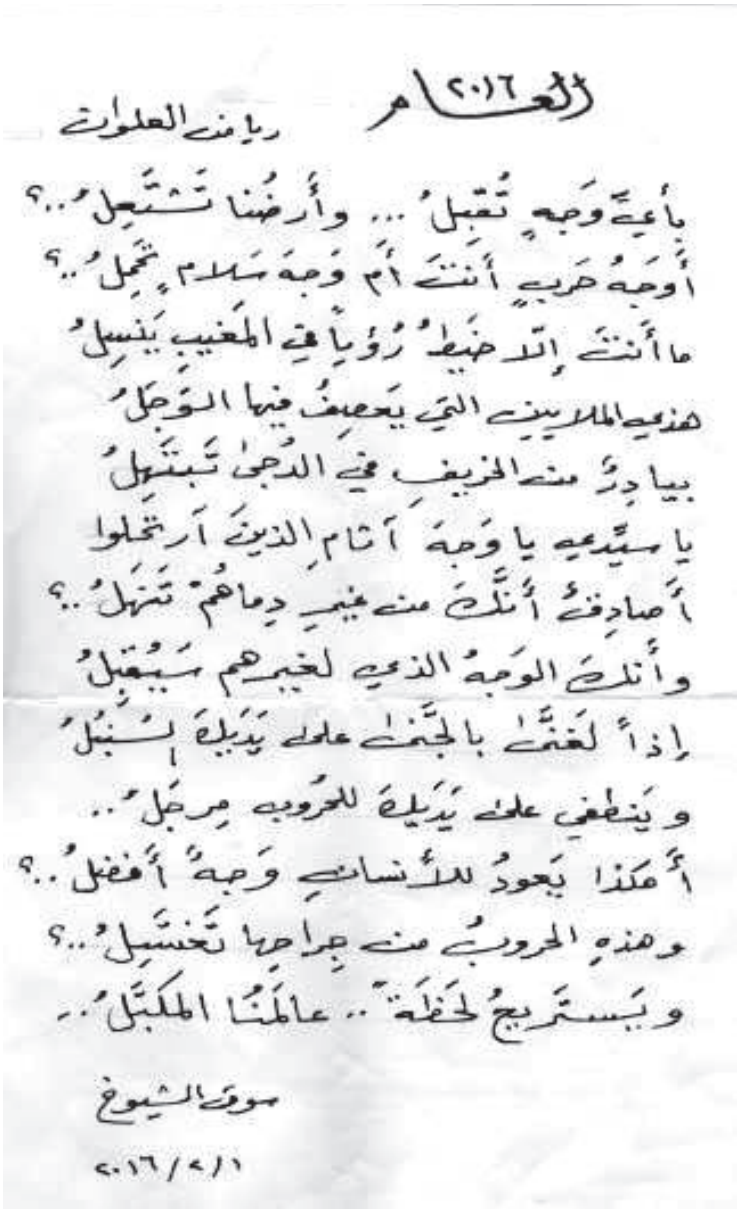

العام ٢٠١٦

رباعيات العلوات

بأيِّ وجهٍ تُقبلُ ... وأرضُنا تشتعلُ ..؟
أوجهُ حربٍ أنتَ أم وجهُ سلامٍ تحملُ ..؟
ما أنتَ إلا خيطُ رؤيا في المغيبِ ينسلُ
هذي الملايينُ التي يعصفُ فيها الوجلُ
بيادرٌ منَ الخريفِ في الدجى تتبتّلُ
يا سيّدي يا وجهَ آثامِ الذينَ ارتحلوا
أصادقٌ أنّكَ منْ غيمِ دمائهمْ تنهلُ ..؟
وأنكَ الوجهُ الذي لغيرهم سيُقبلُ
إذا لغنّى بالجنى على يديكَ السنبلُ
وينطفي على يديكَ للحروبِ مرجلُ ..
أهكذا يعودُ للإنسانِ وجهٌ أفضلُ ..؟
وهذهِ الحروبُ منْ جراحِها تغتسلُ ..؟
ويستريحُ لحظةً .. عالمُنا المكبّلُ ..

موت الشيوخ

٢٠١٦/٨/١

مطبوعات وصلتنا :

- رواء الجصاني، نضال وصفي طاهر – وصفي طاهر رجل من العراق – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- مجموعة من الباحثين، ترجمة د. هاشم نعمة فياض – دراسات اجتماعية– اقتصادية معاصرة – دار الرواد المزدهرة – بغداد2015.
- داود أمين، إعلام الحزب الشيوعي العراقي خلال فترة الكفاح المسلح 1989-1979 – دار الرواد المزدهرة– بغداد 2015.
- داود أمين، كتابات إعلامية وغير إعلامية – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- فارس كريم فارس، مستقبل العراق وأثره على الاستقرار الاقليمي – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- صبيحة الشيخ داود، أول الطريق الى النهضة النسوية في العراق، ط 2 – وزارة الثقافة – بغداد 2015.
- صبيحة شبر، هموم تتناسل وبدائل (رواية) – منشورات مديات ثقافية، دار الزيدي للنشر والتوزيع والاعلان – العراق 2015 .
- جمانة القروي، أقمار عراقية في سماء المنافي – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- مزهر بن دلول، متاهات أبو المعيد – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- مجلة التراث الشعبي – العدد 1،2016 /السنة 47 – وزارة الثقافة – بغداد.
- مجلة الثقافة الأجنبية، العدد 2،2015/ السنة 36 – وزارة الثقافة – بغداد.
- مجلة آفاق أدبية، العدد2،2015/ السنة 5 – وزارة الثقافة – بغداد .
- مجلة المورد، العدد 3،2015 /السنة 42 – وزارة الثقافة – بغداد.
- مجلة الأقلام، العدد 3 أيلول– كانون الأول 2015 /السنة 50 – وزارة الثقافة – بغداد.